كاراكلا

كـــاراكـلا

روايـــــــة

مجـــدي حـافـــظ

كـــاراكـــــلا

روايـــــــة

اسم الكاتب: مجدي حافظ

تدقيق لغوي: علي مختار

تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولى

رقم الإيداع: ١٣٤٨٣ / ٢٠١٨

طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

المكتبة العربية للنشر والتوزيع
Arabic Library

Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة

إهـداء

"وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا"

صدق الله العظيم

الآية ٢٤ من سورة الإسراء

إلى كل من أمي و أبي رحمهما الله

مقدمة

اكتوى العالم بنيران حربين عالميتين، وهما الحرب الأولي من بداية ١٩١٤م حتي نهاية ١٩١٨م. ثم قامت بعدها الحرب العالمية الثانية التي بدأت من عام ١٩٣٩م، وانتهت في عام ١٩٤٥م. وقد أهلكت هاتان الحربان الملايين من البشر، وأكلت الأخضر واليابس، وتركت العالم يبدأ من الصفر من جديد، ويعيد السلام والأمن للشعوب بعد حربين عالميتين طاحنتين.

هذه الرواية تتعرض لمعاناة الإنسان في هجرته وتركه للأوطان؛ للبحث عن تحقيق أحلامه أو ذاته، بعيداً عن النظم السياسية الديكتاتورية، التي تعتمد في حكمه على البطش والجبروت، وإلصاق التهم بالمواطنين الأبرياء الشرفاء، الذين يبحثون عن لقمة العيش في أمن وسلام، بعيداً عن قوى الفساد والبغي والطغيان؛ ولكنهم نادراً ما يسلمون من بطش وجبروت الطاغية ومكائد أذنابه، من حثالة القوم، الذين أصبحوا القبضة الحديدية التي يلوح بها الطاغية لأفراد الشعب المسالمين، الذين يسعون إلى العيش في أمن وسلام، والعمل الجاد الشريف الذي يحفظ ماء الوجه من السؤال، ومذلة الحاجة للآخرين.

هذه الرواية تستعرض في أحداثها أن الهجرة ترتبط دائما وأبداً بمعاناة الإنسان داخل وطنه، سواء من ناحية الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومدى تحقيق ذاته على مدى الحقب الزمانية، ولم تختلف الظروف خلال هذه الحقب، وتتمثل دائما في السعي نحو تحقيق حياة أفضل، على الرغم من المعوقات التي يواجهها.

لذلك ما زالت المعاناة الإنسانية مستمرة!

مجدي حافظ

الجـزء الأول

أوجسـتين

(١)

الحرية لا يمكن أن تعطى على جرعات، فالمرء إما أن يكون حرّاً أو لا يكون نيلسون منديلا

أكتوبر ١٩٢٢م.

"إن الحرية هي أن الناس تعبت من الحرية" كان الصمت يلف المكان، والمذياع معلق على جانب من الحائط، في الشقة التي تعلو فوق المخبز القديم "كاراكلا" في قلب الشارع القديم، في حي تراستيفيري، الشوارع المغطاة تماما بالحصى في خطوط متعرجة، وهي تخترق القرية التي تغط في نوم عميق؛ ترك سكانها المقاعد الخشبية، التي كانت بجانب الأبواب الخشبية المتآكلة أطرافها، التي قد بهتت ألوانها تماماً، والتي كانت نسوة القرية يجلسن عليها لتدخين لفائف التبغ، وتتصاعد غيامات الدخان مع الأنفاس المتتالية في هدوء، ومن منهم لايتذكر الصيف قبيل الحرب، الذي كان أجمل صيف قد مر على هذ القرية القابعة علي الطرف الآخر من روما، كانت القرية أكثر حيوية من الآن.

كانت النسوة أكثر نشاطا، والكسل بعد يوم شاق، والاسترخاء في هدوء، مع شرب النبيذ في الأمسيات الصيفية، مع الرقصات، وتصاعد الإيقاعات الموسيقية، والتي تختلط بالضحكات المتصاعدة، ولكن آثار الحرب قد أذهبت كل مظاهر الفرح والسعادة من عيون سكان هذه القرية، وقد زادت المعاناة في ظل تردي الأوضاع، وكأن الناس قد هاجرت من الشوارع والأزقة الضيقة؛ لقد اختفت النسوة العجائز من أمام الأبواب، واختفت

السحابات الرمادية من الدخان، ولعب الأطفال أمامهم قد توارت عن العيون؛ خوفا من المأساة التي يعيشونها.

القرية تلف في صمت رهيب، والشوارع والأزقة الضيقة قد خلت تماما من سكان القرية، والأضواء قد انزوت حتى التي كانت قريبة من المخبز، قد اختفت تماما في أهم معالم القرية التي ترزخ تحت نيران الفوضي، حتى النهر "التيبر" وإن كان يفصلنا من بعيد عن السلالم الأسبانية المؤدية إلى "نافورة الأحلام" نافورة تريفي، التي اختفت أنوارها تماما، لم تعد تتألق كما كانت في الماضي؛ لم يعد زوار النافورة يأتون، لقد تناسوا أحلامهم، وهم يلقون بالقطع المعدنية في قلبها؛ لكي تحقق أحلامهم. لم تعد الأحلام مجدية، لقد حاولوا أن ينسوا أن أحلامهم قد أصبحت ملكا لغيرهم، وتحويل مسارها لم يعد في أيديهم، ياله من وضع مأساوي عندما تكون أحلامك ليست في يديك أنت.

الصراخ قد وصل إلى أعالي المدينة، وأوصل ماء النهر الصراخ القادم من ملكوم الحزين علي حال روما، وكادت الجدران تتصدع من صراخ "أوجستين" لقد تخطي الشيب قليلا، زاحفا إلى الشعر الأسود الكثيف؛ تاركاً علامات الشيب مبكراً. هذا الشاب الذي أصابه الكبر، مع هذا الجسد الفارع الطول، لقد أصابه انحناءة الظهر، على الرغم من أنه مازال شاباً لم يتجاوز الثلاثين من عمره؛ عيونه العسلية يملاؤها الحزن، لم تكن كذلك في الماضي، كان أكثر مرحاً كان لايتوقف عن المزاح، وإلقاء النكات. لم يتعود الحزن حتى بعد وفاة أمه، كان مؤمنا أن لكل إنسان ميعادًا، كان كلامه يوحي بالإيمان والأمان من كلماته، والفهم الحقيقي لأحوال الدنيا. لم يصله اليأس أبداً، بل كان مقبلاً علي الحياة. ولكن في السنوات الأخيرة كان يحترق و اقفا، وهو يرى أن الأمل أصبح معدوما؛ لقد حفرت الأيام بأظفارها، وتركت أخاديد عميقة

على وجهه المكتنز قليلا، لقد أصبح شاحب اللون، واختفت العيون التي كانت تلمع، وحل محلها عيون غائرة من التفكير والسهر المتواصل. يجلس على كرسيه المعتاد القريب من المذياع، يحترق حزناً على ماآلت إليه الأمور، بعد تناوله للعشاء الذي لم يتعد في هذه الأيام، سوي الخبز "توسكان" وشوربة الطماطم، وقطع من اللحم المقدد "البيبروني" اليابس، الذي خلا تماماً من الدهن؛ كاد صراخه يهدم الحوائط، وكأس"النبيذ" يتكسر من بين أنامله؛ حتى النبيذ ليس بالطعام الجيد الذي يستطيع الإنسان أن يستمتع بشراب جيد، لقد وصلت مرارته إلى حد استطعام النبيذ ولما لا؟؛ لقد بلغ حنقه واستعر في نفسه، وهو ينصت إلى هذا الهراء، بل زاد حنقه بعد أن أصبح عاجزاً عن إطعام عائلته الكبيرة؛ لم يستطع أن ينصت إلى هذا الهراء القادم من المذياع، فتكاد الصرخة تشق صدره في حزن بالغ قائلا:

"انقطع عنا اللحم منذ فترة بعيدة؛ لقد نسيها الأولاد".

تقترب "كارينا" زوجته، هذه الفتاة ذات الجذور الريفية، لم تتخطى الثلاثين من عمرها؛ ليست بالقصيرة، إنها ربعة في النساء، إنها ليست بالجميلة، ولكن توجد مسحة من الجمال، يجعلها متفردة عن الأخريات؛ ذكاء فطري حاد، ولكنها في بعض الأحيان تثور بدون داعٍ، ثم بعد ذلك تتدارك

مافعلته؛ كان "أوجستين" يتغاضي كثيرا عن انفعالاتها التي لاتنتهي، يعلم تمام العلم أنها تحبه بدون شروط، كانت تقف من خلفه، وهي تحاول أن تطبق علي فمه، حتى لايتفوه أكثر من ذلك، في ظل الظروف الصعبة التي تمر بها العائلة؛ وهي ترى أن زوجها قد فاق حد التحمل في ترقب وخوف محذرة قائلة:

"اصمت ياأوجستين الغوغائيون قد انتشروا في البلاد".

وفاق حمله الكثير، علاوة علي الولدين "ألكسندر" الذي بلغ العاشرة، والعيون العسلية، ولايختلف كثيرا عن والده، وعلى الرغم من صغر سنه، إلا أنه يتحلى بالكثير من علامات النضج المبكر والشجاعة؛ إنه يتحمل في قرارة نفسه الكثير، فهو يعتبر نفسه مسؤولا عن أخيه، و أيضا عن هذه الصغيرة التي غزت حياته وقلبه "فر انسيسكا". كان الوجه ينطق بالذكاء الفطري، والتحلي بالكثير من ضبط النفس، كان في قرارة نفسه:

"أن العائلة تواجه الكثير من المشكلات".

لكن حجم إدراكه لايعطيه الصورة كاملة، ولكنه يدرك أن هناك مشكلة، كانت نظراته إلى أبيه فيها الكثير من الاحترام والتبجيل لهذا الشخص الذي أمامه. كانت عيناه تلمع بمجرد التحدث مع أبيه. إنه يدرك حجم وشموخ هذا الشخص الماثل أمامه. كانت هاتان العينان العسليتان توحي له بالاطمئنان وأخية أخوه الأصغر "إبرا" الذي تحمل عينيه الكثير من الدهاء والخبث الطفولي، الذي يصغره بثلاث سنوات، كان كثيرا مايتهرب من تحمل المسؤولية، وكان إيعاز أمه:

"أنه مازال صغيراً ولما تطالبنوه بالتحمل أكثر من عمره".

كانت عيناه تحمل علامات الذكاء، ولكنه بقليل من الخبث الطفولي الذي دائما يتنصل من أفعاله الصبيانية، التي دائما تورط "ألكسندر" في كثير من مشاكله، وخاصة في المدرسة، ولكنه كان "ألكسندر" دائما يقوم بالدفاع عنه.

الحِمل قد زاد بشكل مبالغ فيه، وهو لايستطيع أن يفعل الكثير في هذا المأزق، الذي لامفر في مواجهته، بل الأمور قد زادت صعوبة، بعد انتحار شقيقه الأوسط "أبرتو"، تاركا حِملاً آخر فوق حمله، لقد ترك زوجة في ريعان الشباب "فيولا" التي لاتختلف خلفيتها عن زوجة "أوجستين"، ولكنها كانت

أكثر جمالا منها، وتحمل نضارة طازجة، كانت ممتلئة قليلا، ولكن امتلاء ليس بالمنفر، بل يبعث علي الراحة والقبول به؛ ولذلك كانت تدب الغيرة بينهما، وكانت المعارك الكلامية بينهما لاتنتهي، و أيضا النظرات النارية بينهما كانت تصل إلى حد المعايرة بينهما على نسب العائلات، وخلفيتها الريفية التي كانت تعتبرها أكثر رقيا من عائلة "كارينا". كان في بعض الأحيان يستمتع "أوجستين" بهذه المبارزات التي لا تنتهي، ولكنه كان يتدخل في الوقت المناسب؛ حتي لايتطور الأمر إلى مالا يحمد عقباه. كان دائما يردد:

"إنهما من المعين نفسه".

لا معايرة بنسب هذه أو تلك، و ابنتها الوحيدة "فرنسيسكا" التي بلغت العامين؛ تحمل الكثير من علامات الجمال الوديع، ولكن عيناها يحملان الكثير من الرغبة المشتعلة؛ حتى في هذا العمر المبكر. هذه اليتيمة التي تركها قبل أن تولد؛ ربما لم تعي أن أباها قد انتحر، ولكنها كانت تدرك أنه لايوجد أب لها. وكان هذا الأمر يجعلها في حالة من الارتباك، وخاصة عندما ترى الولدين يحتضنهما "أوجستين" في حنان بالغ، وكانت تدرك أن هذا الماثل أمامها ليس هو أباها، ولكن لم يبخل عليها بحب الأب؛ كانت تشع نوراً كلما رآها تبتسم.

لم يطق "أبرتو" شظف العيش بعد الحرب العالمية الأولي، على الرغم من أنه كان يعمل مع أخيه في المخبز نفسه، لكن تطلعاته كانت أكبر من إمكاناته، التي وقفت حائلا دون تحقيق حلمه؛ كان يتطلع أن يسكن بعيداً عن روما، كان حلمه بمجرد زواجه من "فيولا" أن يسكن في "توسكاني" في بيت من دورين، تحيط به أشجار الكروم؛ ويجلس في الشرفة قبل غروب الشمس، ويرتشف "النبيذ" في كسل واضح، ويضع الصغيرة علي ركبتيه؛ لكن الأمور قد آلت إلى الأسوأ، لقد أطبقت الحرب على أحلامه، كان

إحساسه قاتلاً بأنه لن يستطيع أن يفي بوعده، الذي كان مملوءاً بالآمال العريضة، الأمر قد زاد سوءاً، بعد أن أتى خبر لايقل عن صدمة أخاهم الأصغر "ألبرتينو" الذي لم يتعدِ ثمانية عشر عاما، على الجبهة أتى الخبر من وزارة الحرب بأن أخاهم قد قتل على الجبهة النمساوية المجرية، ويبزغ السؤال كيف لطفل في مثل عمره أن يزج في الخطوط الأمامية؟ كان الخبر مثل الصاعقة علي العائلة، التي طالمت حلمت بالأفضل لها؛ تردد في نفسه عدة مرات أن هذه الحرب من أجل خراب العالم، ولا طائل منها سوى زيادة عدد الثكلى والأرامل والأيتام في شوارع روما.

لم تستطع "كارينا" أن توقف زوجها عن الصراخ الذي تعالى، وأصابته نوبة من البكاء الشديد، وهو يرى أن أفراد عائلته قد خرجوا من غرفهم لرؤية ما يحدث؛ لم يصدق "أوجستين" عندما رأى الأولاد وهم يفركون أعينهم. وفي الحقيقة أنهم لم يستطيعوا النوم؛ لأن كمية الطعام كانت قليلة عن اليوم السابق، وهذا الحال استغرق الكثير من الوقت، لولا أن المخبز هو العائل والمصدر الوحيد للدخل؛ لكان الوضع أسوأ من هذا الوضع، لقد خرج آلاف من الجيش، وأصبحوا بلا عمل، و انتشرت البلطجة في أنحاء التلال السبع، بل لقد وصلت إلى الهجوم علي البيوت، أصبحت البيوت غير آمنة، لا أحد يكون في أمان في مثل هذه الأيام الصعبة.

أدرك "أوجستين" مافعله، ولم يدرك حتى رأى ابنه الأكبر قد وصل إلى حد ركبيته وهو ينظر إليه في استغراب، وهو يسأله في إلحاح واضح عن الذي يحدث؟ ينظر إليه "ألكسندر" في عيون يملأها الدموع قائلا:

أبي إنك تبكي؟!! هذه هي المرة الأولي التي أراك فيها تبكي.

كان صوت "ألكسندر" مرتعشا، وهو ينظر إليه في دموع تكاد تمزق قلبه، وهو يرى أباه والقلق يكاد يقتله، وما الذي يؤرقه في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ ما الذي يهز هذا الأب الصلب الصلد الذي لايهتز إلى أي عارض؟ ما الذي يبكيه؟ كان السؤال من قلب صغير لايدري مايحدث لأبيه؟ كيف يشرح له هذا الهراء القادم من "الدوتشي"؟ لم يجرؤ على الشرح، بل ترك دموعه تحكي لابنه عما يجيش في صدره من حنق وغضب. وما يعانيه من شظف العيش، بعد الحرب التي أكلت الأخضر واليابس.

كانت صدمة "ألكسندر" أن يرى أباه وهو يبكي أمامه، كانت هذه المرة الأولى التي يرى فيها أباه وهو يبكي، كان معروفاً في الحي أنه الرجل القوي، الذي لايهاب أحداً، الذي لايخاف كيف يبكي؟ لم يدر بخلده أنه حتى الأقوياء يبكون أحيانا؛ ليس في ذلك عيب، لكن العيب أن يكابر في الألم الذي يعتصره. انتقلت دموع "أوجستين" إلى زوجته التي انخرطت في بكاء مر، مشاركة مع زوجها، وهو يرى العائلة الكبيرة وهو مسؤول عنها، لايستطيع أن يدبر احتياجاتها الأساسية؛ لم تتعود على رؤية زوجها في هذا الموقف المتأزم من قبل، بل كانت ترى أن زوجها أعظم إنسان في الكون، ويستطيع أن يستوعب العالم. وله من الحكمة أن يحكم العالم، بعيداً عن أصحاب هذا الهراء، الذي انتشر بطول وعرض إيطاليا.

انتشر أصحاب "القمصان السوداء"، فهذه العصابات الهمجية تعد نوبة من الجنون قد ضربت إيطاليا في مقتل؛ فالغوغائية قد انتشرت، كما تنتشر النار في الهشيم بدون رادع، حتى الحكومة الليبرالية قد تخلت عن دورها. لقد اضطر أصحاب الأعمال والمصانع بالاستعانة بـ "سكوادريستي" . كتائب المحاربين القدماء المسرحين من الجيش ،: للاضطلاع بأدوار الشر، وليست لحماية الوطن؛ استغلوا ما يعرفونه في فض اعتصامات العمال

والاضطرابات، فلم تعد لها وجود، لقد انزويت الاشتراكية، وماتت داخل البلاد، بل الأمر أصبح أسوأ عما كان في الماضي، لقد توارى أصحاب رؤوس الأموال، وهربوا إلى خارج البلاد، والأقرب لهم كان الشمال "سويسرا" كانت الملجأ لتهريب الأموال عبر الحدود، بل الأمر قد زاد بلاء، بعد أن فرضت الإتاوات علي أصحاب الأعمال اليسيرة، في ظل غياب الحكومة المركزية.

الغلاء الطاحن وندرة العملة في أيدي الناس؛ مما يشجع أفراد العصابات على السرقة، واستعمال السلاح في حالات السرقة بالإكراه، وربما تؤدي في نهاية الأمر إلى قتل الضحايا دون ذنب ارتكبوه، أصحاب القمصان السوداء يمثلون الخداع والعنف، أوجستين ينظر إليه في حدة قائلا لابنه:

"الشوارع قد امتلأت بحثالة البشر".

صمت "أوجستن" وهو يرى أفراد العائلة تنظر إليه في شفقة إدراكهم للواقع المر، لم يفت على أذهانهم بأن الوضع سوف يتفاقم، بعد أن جمع "موسوليني" أكثر من أربعين ألف من العصابات والمسرحين من الجيش وأصحاب السوابق، بأن الأسماع قد تواردت لهم بأن "الدوتشي" قد قرر الزحف إلى روما، وهاهي الأيام تقترب من شهر أكتوبر، وأبوه ينصت إلى المذياع في حسرة على مايسمع من "الفاشستي الأكبر" وهو يخبر الجموع المسلحة: "بأن الحرية مرض يجب الشفاء منه! " كان "الدوتشي" يقولها في صوت عالٍ وفي عنف قائلا:

"إن الناس قد تعبت من الحرية ويجب الشفاء منها الآن".

ينظر "أوجستين" إلى ابنه محاولا أن يخبره أن البلاد قد دخلت في حالة فوضى عارمة، وعلى وشك الانفجار، ولا مجال للسيطرة عليها في حال وصوله إلى سدة الحكم ورئاسة الوزراء، سوف تتفاقم الأوضاع؛ ينظر "إبرا" الابن

الأصغر الذي وقف وراء أخيه الأكبر وهو لايفقه شيئا، ولكن يلمح في نظرات أبيه الحيرة القاتلة، ولكنه لايفهم سبباً لهذه الحيرة.

أوجستين يردد في نفسه قائلا:

"القادم أسوأ بكثير".

زوجة أخيه الأوسط "فيولا" تصل إلى كتفيه، تقف من خلفه، وهي تحاول أن تهون عليه الأمور؛ وهي تحاول أن تذكره بأن الأعمال الجيدة التي فعلها من أجلها ومن أجل ابنتها عظيمة، ولامجال لرد الجميل ليس الآن ولا فيما بعد؛ لم يطردها إلى الشارع، بل احتضنها هي والصغيرة. كانت "فيولا" تحاول أن تقترب منه، وهي تخفف عنه، ممسكة بكتفيه في هدوء واضح قائلة:

"هون عليك ياأوجستين".

كان رد "أوجستين" يحمل الكثير من الحقيقية، إنها جزء من العائلة التي هي أمانة في عنقه، كما كانت هي وصية والده دائما له: أن العائلة هي رأس ماله الحقيقي قائلا لها:

"أنتِ والصغيرة فر انكا جزء من عائلة أليسندرو".

كما كان متوقعاً: خاض حرباً كلامية طويلة، وعتاباً وخصاماً بينه وبين زوجته "كارينا" وصل إلى حد الهجر في الفراش؛ بل خاض معركة طويلة معها في سبيل الحفاظ علي الأسرة متماسكة؛ كيف يترك زوجة أخيه، و ابنتها المولودة على قارعة الطريق بدون مورد؟! بل سوف تتحول إلى بائعة للهوى في بيوت الدعارة المنتشرة بعد انقضاء الحرب، وتفشي حالات الفقر بعد الحرب، و انتحار زوجها "أبرتو" وكم تكاثرت منازل بيع الهوى في أنحاء إيطاليا، بل الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، عندما نظر في يوم من الأيام، ووجد زوجة أحد أصدقائه المقربين. تخرج في صحبة أحد المترددين على بيوت الهوى. يترنح يكاد يسقط علي الأرض من فرط سكره، ويحدث في قلب روما ما يشيب له

الولدان، لم يصدق عينيه وهو ينظر إليها؛ لقد رمقته بنظرة طويلة، كأنها اللوم والعتاب منها إليه في قلب الليل؛ كأنه الملوم على هذا الوضع الذي تفاقم؛ النظرة قد طالت بدون كلمات، بل نظرة طويلة مازال يحتفظ بها في ذاكرته، ويستدعي صورتها وهي تعنفه على نظراته لها في غضب واضح قائلة: "لماذا تنظر إليّ هكذا؟! لا أستطيع أن أطعم أطفالي".

كيف تلومها علي فعلتها؟ كان ردها له: كيف تلومني على من لم يستطع أن يتحمل المسؤولية؟ ويترك زوجته وثلاثة من الأبناء يحتاجون إلى المأكل والملبس، وسقف فوق الرؤوس؛ لقد تركني بدون ليرة واحدة، وها أنت تراني في هذا الوضع المزري ولا أخجل منه، بل أتعرض له كل يوم؛ لقد تداعت الصورة أمامه بقوة، بمجرد أن فتحت زوجته رأيها في وجود زوجة أخيه المنتحر. وكان الرد عنيفاً:

ماذا لو كان الوضع معكوساً و أنتِ في حالة "فيولا" نفسها، هل كنت أتركك في شوارع روما وكلاب روما؟ كان يحدث نفسه في عنف وغضب واضح قائلا: "لن أترك فيولا ولا الصغيرة لكلاب الشوارع".

لقد أدرك "أوجستين" أن الوقت قد تأخر، ولذلك عليه أن يدرك أن أطفاله قد باتوا جوعى والعشاء كان قليلاً في هذه الليلة، وعليه أن يعوض الأطفال عن هذه الليلة الحزينة. لقد فتح ذراعيه حتى احتوى أطفاله والابنة الصغيرة "فرنسيسكا"، بل تركها تدخل إلى ذراعيه قبل أولاده، إحساس غريب ينتابه وهو يحتضن هذه الصغيرة بعيون حانية عليها قائلا:

"تعالوا يا أولاد في أحضاني، و أنت أيضا أيتها العزيزة".

عندما يضم الصغيرة يحس بأحضان أخيه، يأتي له الإحساس بالأمان، وينظر إلى عينيها فيحس بدفء عيون أخيه؛ كما فعل أخيه تماما عندما كان يخبره "أبرتو" وينظر إليه ويخبره بدون كلمات:

"كم أنت عظيم ياأوجستين"

لقد اختبر هذا الإحساس من قبل، عندما تنظر إليه "فرنسيسكا" بنظرات طفولية وتغمره بها، ولايستطيع الفكاك منها. يحتضن الثلاثة وهو ينظر إليهم في نظرات العطف والاعتذار عما بدر منه في هذه الليلة الحزينة؛ يلتصق الأطفال الثلاثة في أحضانه أكثر، لقد قبلوا اعتذاره على الرغم من أنهم يعلمون أن الأمر ليس في يده؛ لقد قبل كل واحد منهم متمنيا لهم نوماً هنيئا خالياً من الكوابيس، وأن يزيدوا من الأحلام السعيدة على قدر الإمكان لأن القادم أسوأ.

المسيرة إلى روما

(٢)

أن تعيش يوماً واحداً مثل الأسد
خير لك من أن تعيش مئة عام مثل الخروف

لقد جفا النوم العيون، مع اقتراب نسمات الفجر الباردة؛ لقد استيقظ قبل موعده، كانت الليلة طويلة، وهو مستلق على ظهره يفكر في العائلة الكبيرة، وما الذي سوف يحدث في الأيام القادمة، وأعياد الميلاد علي الأبواب؟ هناك أقل من شهرين علي مواسم الأعياد، ولايوجد ما يقدمه إلى الأولاد أو زوجته! لكن الوضع مازال كما هو. يتذكر. لم يتغير منذ زمن بعيد، بل كانت آخر مرة تلقى فيها الأولاد هدايا؛ عندما كانت أمه على قيد الحياة قبل أربع سنوات؛ "ألكسندر" يبلغ من العمر عشر سنوات كان مازال صغيرا؛ كانت فرحته غامرة وهو يرى جدته تعطيه شالاً من الصوف، لكي يلتفح به، لقد عاني كثيرا من نزلات البرد، وكانت الأكثر تأثرا منطقة الرقبة وصدره، كان يعاني الكثير في أيام البرد القارص في شهر ديسمبر. كان معظم وقته في سريره، كان نادر الخروج واللعب مع أقرانه مع كرات الثلج المتراكمة علي الطرقات والأرصفة.

استيقظت زوجته بعد نوم متقطع، لم يغمض لها جفن في هذه الليلة السابقة؛ كادت الدموع تغلبها وهي ترى "أوجستين" مستيقظا لم يحاول أن يترك السرير، بل لم يحاول أن يظل تحت الأغطية التي تدثر بها؛ نظرت إليه طويلا، وهي تحاول أن تقرأ ما يجول في عقله؛ لم تستطع أن تغور إلى أعماقه، لقد سألته عدة مرات. كان الحنان يغلب علي صوتها. قائلة:

"نحن في أشد الاحتياج إليك يا أوجستين".

كان الصمت هو الغالب؛ كانت الأعين تفصح عما يجول في عقله؛ لقد حاولت أن تقرأ ولكنها قد فشلت، تركت الأمر على حاله، وذهبت إلى الحمام الملحق بغرفة النوم؛ حتى تغتسل من الليلة المؤرقة، وسوف تنزل إلى الأسفل حتى تقوم بتحضير وجبة الإفطار، مع فنجان من القهوة. تركت الغرفة، وهي تفكر في ثقل واضح مع سماع الأرضية الخشبية، وهي تئن من خطواته المثاقلة؛ لايوجد سوى القهوة السوداء، وقطع من الخبز اليابس؛ لقد تذكرت الآن أنها كانت تحتفظ بقطعة من الجبن "البارميزان" مازالت محتفظة بدسمها؛ عليها أن تبقي زوجها في حالة مزاجية ومعنوية عالية؛ لأنه لاداعي لانتقال قلقها إليه في هذه الظروف العصيبة.

"أوجستين" قد ترك الغرفة، وفتح الباب الصغير المجاور إلى باب غرفته؛ لكي يلقي نظرة علي أولاده؛ لقد أطمأن أنهم في سبات عميق، لقد قرب الوقت على الصباح؛ عليه أن يترك المنزل لكي يفتح مخبزه، ويقوم بعمله قبل استيقاظ الجيران، حتى يتحصلوا علي خبز "توسكان" قبل إفطارهم، وقبل ذهابهم إلى أعمالهم.

لقد ابتسم ابتسامة سخرية وهو ينطلق إلى أعماله، "أي أعمال؟!" والمتوقع أن هناك مسيرة "القمصان السوداء" سوف تصل روما قادمة من الشمال، وتحديداً من "ميلانو" في وقت لاحق في هذا اليوم؛ لقد نظر طويلا قبل أن يغلق الباب على أولاده. متمنيا أن يوفر حياة كريمة أفضل من هذه التي يحياها، متذكرا عمه الذي هاجر إلى أمريكا قبل خمس سنوات، واستقر في "التفاحة الكبيرة" نيويورك؛ قبل ستة أشهر، أرسل إليه لكي ينقذه من الفقر المدقع الذي يعيشه على وعد منه أنه سوف يرد كل ليرة قد دفعها في استقدام العائلة إلى أمريكا؛ إنه في أشد الاحتياج للخروج من إيطاليا في هذا الوقت، قبل أن تتفاقم الأمور أكثر من هذا.

لم يفت على المطبخ كما هي عادته، كانت أفكاره مشوشة، ليست مرتبة بل ترك البيت متجها إلى مخبزه؛ لم يتعود أن يفوت وجبة الإفطار التي تعدها "كارينا"، بل إنه قد تعمد حتى يجد الأولاد ما يتناولونه؛ لقد حذرها قبل نومه آلا يذهب الأولاد إلى المدرسة؛ نظراً للأحوال المضطربة والمتردية في روما، وتوقع أعمال شغب وتكسير داخل روما وضواحيها، كان تحذيره شديد اللهجة قائلا لها:

"لا داعٍ أن يذهب الأولاد اليوم إلى المدرسة".

إن معظم الأعمال قد أغلقت أبوابها مع تصاعد نغمة المجئ إلى روما، والمسيرة المتوقعة من "الدوتشي" التي جمعها من المسرحين من الجيش، وخليط من عصابات الإجرام المنظم المافيا؛ الكومورا؛ وفايدا؛ ومن القتلة والمجرمين الذين خرجوا من السجون، في ظل الأوضاع المتفاقمة في شتى مناحى الحياة في إيطاليا، بعد هزيمتها في الحرب، ويالها من سخرية القدر "الدوتشي" قد حكم عليه من قبل؛ بسبب تقاعسه في الخدمة العسكرية ومكوثه بعيدا عن رحي الحرب لقد قضي عاما ونصف في الراحات والإجازات المرضية؛ الأفكار كانت كثيرة وهي تزاحم رأسه الذي تحولت فيه إلى مطارق حديدية، وهي من فرط التتابع وملاحقة الأحداث التي لن تنتهي حتى بعد نهاية المسيرة المتجهة إلى العاصمة، لا محالة من عبور النهر، والقدوم إلى الحي؛ لا محالة من تقليل كمية الخبز المنتجة اليوم؛ لم يكن يتخيل في يوم ما إن إنتاجه الذي تتهافت عليه المحال والمطاعم في السابق، من قطع الخبز الذي يتفنن في عمله و إتقانه، ويعتبره لامثيل له في روما كلها؛ لم يكن يتوقع أن يقل معروضه، ويعزف الناس وجيرانه عن شرائه! ماذا يتوقع بعد أن نضبت الأموال من جيوب الناس؟ وأصبحت الليرة عزيزة لديهم! الأسئلة الكثيرة

الحائرة التي لايجد لها إجابات، قد استعرت في القليل من الشعر الأبيض، الذي بدأ يزحف على الشعر الأسود الكثيف.

الأضواء قد تسللت إلى جدران المخبز العتيق، والأضواء الضعيفة تنعكس بألوانها، والإضاءة تزين الملابس التي تحتاج إلى وقت لكي تجف، وهي تتدلى من الشرفات القريبة من بعضها البعض، ومن الشبابيك المطلية باللون الأزرق؛ المخبز في حالة يرثى لها، لقد اختفت الألوان، وتشققت الحوائط، كانت نية "أوجستين" أن يبدأ تجديد المخبز، ولكن الظروف حالت دون ذلك؛ كانت نظراته توحي بالانكسار، وهو يرى الأنوار وهي تسقط بالشعاع الصادر منها على أركانه المتهالكة، وكانت تنعكس أيضا على وجهه الذي امتقع من رؤية المخبز القديم على هذه الحالة المزرية. الأنوار قد شملت الغرفة الخلفية التي يقع بها الطاولات الخشبية، لايوجد بها سوى بقايا من الدقيق، الذي بقي في أركانها، وترك فيها علامات من بقايا الخبز في الصباح الفائت، والعجانة المتهالكة التي صدأت الأجزاء الخارجية، وقاربت علي التصدع من الأرضية التي تقريبا قد قاربت على التحطم. أجولة الدقيق قد رفعت عن الأرض الرطبة التي تكسر فيها البلاط من شرق الغرفة إلى غربها، ويتوسط الغرفة فرن من الأفران القديمة الذي يعمل بالأخشاب المجلوبة من أثاث متكسر، أو من أشجار الغابات المنتشرة حول روما لقد قل المعروض من الغاز، ولكن إلى الآن قد قل المعروض من الدقيق أو الأخشاب التي أصبحت شبه معدومة. وأصبح جلبُ الأخشاب يكتنفه شيءٌ من الغموض! حتى الدقيق وهو العنصر المهم في عمل "توسكان" أصبح هناك ضبابية في جلبه، بل أصبح في القريب العاجل شيئا من المستحيل. لم تنقطع أفكار "أوجستين" عن التفكير فيما سوف تؤول له الأيام القادمة القريبة، وليست بعيدة أصبح فيه شيء من الألغاز والأحجية التي تحتاج إلي قارئ للبلورة السحرية! أو أن يقرأ النجوم!.

لم ينقطع سيل الأفكار حتى صاح من خارج الغرفة صوت مألوف يعرفه تمام المعرفة، لم يغب عنه منذ أن كان شابا يافعاً، يقف مع والده في المخبز العتيق، خرج على أثره ليجد "الونزو" هذا الجسد الفارع في الطول، والمكتنز الوجه قليلا، وفرق شعره الأشهب من المنتصف تاركاً خصلة متطايرة على جبهته. وجده أمامه وهو يحمل زجاجات الحليب الأربع في يد واحدة، وهو يتقدم من الباب الأمامي المغلق إلى منتصفه، كان دخوله من الباب الأمامي في منتهى الصعوبة؛ نظرا لطوله. ولكنه تعود منذ سنوات طويلة أن يدخل من الباب، حتى وإن كان مغلقا تماما؛ لم يتوقف عن الكلام منذ أن دخل من الباب الأمامي، وهو يلعن الأيام السوداء التي حلت عليه منذ أن وضعت الحرب أوزارها، وصعود نجم الفاشيستي الجديد في سماء إيطاليا. لم ينقطع سيل الشتائم بمجرد خروج "أوجستين" من الغرفة الخلفية للمخبز، كان الصوت العالي قد شق هذا الفجر الساكن في كلمات سريعة قائلا:

"المتقاعس في الجندية، سوف يصبح حاكما للتلال السبع كيف هذا؟"

لقد فوجئ "أوجستين" بصوته العالي أن قبعته البيضاء التي يعتمرها تقريبا، قد فارقت رأسه وسقطت علي الأرض، وهو يضع زجاجات الحليب علي المنضدة، التي في جانب بعيد عن فترينة العرض، الخالية تماما من أي نوع من الخبز. وضع الزجاجات وأخذ الفارغة التي تعود أن يوصلها علي مدار سنوات طويلة، ربما قبل ولادة "أوجستين" وهو في قمة غضبه من الذي يحدث؛ لم ينفك في سبابه، وهو ينظر إليه في استغراب واضح؛ لأن "أوجستين" وقف صامتاً أمامه، وهو يعلم تمام العلم أن مايحدث سوف يستمر لفترات طويلة قادمة، وأن الآتي أسوأ، ولذلك لاداعي لتكراره أمامه أو أمام غيره؛ لأن الكلام لن يفيد أحداً؛ ربما يأتي الأسوأ إذا ردد الكلام أو زاد

عليه؛ لذلك أتي الصمت مطبقاً بعد أن انتهي "الونزو" من السباب والشتائم؛ فجأة توقف تماما ناظرا إليه قائلا له في عصبية واضحة:

"أنت لا تجبني يا أوجستين؟!"

كأنه يستحثه على الكلام، ولكنه لاتوجد لديه رغبة في الكلام؛ لذلك توقف تماما عن الكلام، لقد أشار إليه بالصمت، ولكنه لم يدع أن يترك المشهد بدون أن يترك لمساته الأخيرة قبل أن يترك المخبز، عندما التفت إليه في بطء شديد، وألقي عليه الخبر مثل الصاعقة بأن "أصحاب القمصان السوداء" علي بعد ثلاثين كيلو مترا من روما، قادمين من الشمال، لقد قالها له في عصبية وفي صوت خفيض قائلا:

"هل أصبت بالصمم؟! إنهم علي مسيرة نصف يوم!".

وسوف يكونون في روما من بعد عصر اليوم، وربما يكون أقرب من هذا، ربما بعد ظهر اليوم، لقد جاءه الخبر مع سائقي السيارات الذين يجمعون الحليب من المزارع القريبة من روما وخاصة من "تيفولي". لقد بدا الانزعاج على وجه "أوجستين"، عندما نظر إليه في صمت مطبق وحزن، يالها من أيام عصيبة، بعد أن كان من الممكن الحصول على وجبتين في اليوم، الآن من الممكن . الصمت كان مطبقاً ما الذي من الممكن أن يحدث بعد ذلك؟ . آلا يحصل أطفاله على أي شيء، يالها من مأساة عندما يلغي الناس عقولهم، بتتبع هؤلاء الغوغاء بدون النظر إلى العو اقب المحدقة بهم، وشعارهم في ذلك الخداع والعنف؛ لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة بل أخذ الصمت منه، حتي ظن "الونزو" أنه قد أصابه الصمم؛ لذلك أعاد عليه الجملة مرة أخرى، ظن منه أنه لم يسمعه جيدا قائلا:

"هل تسمعني؟ إني أتحدث إليك!"

ولكنه قبل أن يبدأ في إعادتها طلب منه "أوجستين" أن يصمت وآلا يعيد الكلام مرة أخرى، كانت نبرات صوته توحي بعجز الرجال قائلا له:

"لا فائدة من حديثك يا الونزو، لقد حلت اللعنة على هذا الشعب".

لقد استمع إلى مافيه الكفاية، ولكنه لم يصمت، بل زاد عليه أن هؤلاء قد جاؤوا على ظهور الخيل والقطارات والسيارات، يحملون السلاح والرايات. يتقدمون في سرعة حتى يجبروا "عمانويل الثالث" علي أن يمنح "الدوتشي" رئاسة الوزراء. لقد رفع "أوجستين" يده مرة أخرى حتى يصمت، ولكنه لم ينصع؛ ولذلك تركه وشأنه واتجه إلى الغرفة الخلفية، وهو ينعي حظه وحظ أولاده، وحظ إيطاليا كلها، بعد أن استشري هذا الوباء الزاحف إلى قلب إيطاليا، وهو يردد:

"إن القادم أسوأ".

لم يستطع "الونزو" أن يتفهم موقفه، هو يراه يتركه ويذهب إلى الغرفة الخلفية؛ لم ينقطع عن الكلام حتى عندما ذهب "أوجستين" وتركه واقفا أمام فترينة العرض. أحس "أوجستين" أن الحوائط تكاد تقبض روحه؛ لقد أحس أنها نهاية العالم الآن، وإن الذي سوف يحدث في الأيام القادمة نذير شؤم.

لقد تداعت أمام عينيه صورة أولاده وزوجته وأولاد أخيه، ونظرات "فرنسيسكا" هذه الطفلة التي يوجد في عينيها حزن دفين، كأنه يعلم سببه وهو عدم الأمان، ولكنها لاتستطيع أن تفصح عنه؛ سمع خطوات لاتخطئ، يلتفت في بطء لكي يرى أمامه زوجته، وهي تحمل صينية خشبية عليها قطعة من الخبز المحمص، وعليها قطعة من الجبن اليابس قليلا، والخالية من الدهن، وتحمل على الصينية نفسها كوبا من القهوة السوداء الخالية من السكر، لايوجد سكر يستطيع أن يشتريه في الأيام القليلة الماضية، حتي مخزون السكر الذي يستخدمه في عمل بعض أنواع الخبز قد تناقصت كميته إلى حد كبير؛ ولذلك

كانت الكمية المنتجة قليلة، قياسا بالأيام أثناء الحرب أو بعد الحرب، ولكن هذه الأيام تناقصت بشكل كبير. اقتربت "كارينا" وهي تحمل الصينية، وهو ينظر إليها بنظرات كاشفة يغلفها الحزن الدفين.

ترتسم على شفتيه ابتسامة كاشفة، عندما يراها قادمة في اتجاهه، مازالت كما هي لم تتغير بل زادت جمالاً؛ كما هي التي التقى بها في إحدى الأعراس، في إحدى ليالي الصيف الرمادية، كانت ترقص في نعومة بالغة، على الأنغام المتصاعدة من الكمان والأكورديون، وهي تدور في دوائر حول أصدقاء العروس؛ حتى العروس قد غارت منها؛ لأنها قد خطفت الأنظار من العروس، وهي من المفترض صاحبة الحفل؛ ولذلك قد دارت رؤوس الرجال وهم ينظرون إليها، ولكنها كانت عيونها فقط علي شاب واحد في الحفل "أوجستين"؛ إنها تعلم الكثير عنه، الذي تحمل الكثير من أجل عائلته بعد وفاة الأب، والحفاظ على ملكية المخبز العتيق، وعلى المنزل ذي الدورين، وأيضا هذا الشاب الذي يحظى باحترام الجميع الكبير قبل الصغير. لم تخفي إعجابها به، بعد أن هدأت وتيرة الرقص، وانبعثت أنغام رقيقة وحزينة من الكمان، مع تقاسيم على الأكورديون، الذي كان يسيطر على الحفل. لقد اقتربت منه، ولم يكن من المألوف من فتاة في ذلك الوقت أن تطلب من أحد الشباب أن يراقصها، ولكنها كانت لها الجرأة علي طلبها أن يراقصها؛ كانت نظرات عيونها تخبره أنها قد اخترته بكامل إرادتها؛ إنه الشخص الذي تريد أن تكمل حياتها معه، لم يماطل بل أخذها في دورة سريعة، أثبت بها أنه الشخص المنشود، إنه يستطيع القيادة، بل يستطيع أن يقود الحياة. لم تقاوم، بل جعلته يقوم بما يحلو له معها، وانتهت الرقصة بقبلة طويلة، كانت البداية لحياة جميلة، تكللت بالأولاد. وعلى الرغم من شظف العيش، إلا إنها كانت راضية على الرغم من

اعتراض أمها على زواجها من خباز، كانت الأم تنظر إليها وهي تسترجع حديثها معها في ضيق قائلة لها:

"إنه خباز، خباز يا كارينا؟! كيف سوف تعيشين مع هذا الخباز المعدم؟"

جاء الرد سريعا من "كارينا"، وهي تبتسم مع الإصرار علي اختيارها قائلة لها:

"أنا أريد هذا الرجل، هو الوحيد الذي أشعر معه بالأمان".

لم يلق ردها أي استحسان لديها؛ لقد نفضت يدها من اختيارها قائلة لها في ضيق واضح:

"أنا أحذركِ سوف تندمين، مادام هو اختيارك فتحملي".

كانت تريد الأفضل لها، بأن تتزوج من أحد يعمل في البلدية، أو أن يعلو المستوى قليلا إلى أحد العاملين في الحكومة، ولكنها وقفت أمامها وأخبرتها على عدم تنازلها عنه، مهما كانت الدوافع، وكان لها ما أرادت، حفل يسير علي ضفاف النهر في ضوء القمر، بعد انتهاء المراسم في الكنيسة القريبة من الحي. كان حفلاً رائعاً لا يقل عن زواج الأميرات، تفنن "أوجستين" في عمل قائمة الطعام المتنوعة التي لم تخل من خبز "توسكان" والذي زاد عليه الكثير من العنب المجفف، كانت الحفلة حديث الحي حتى وقت قريب؛ لأنها لم تتكرر.

اقتربت منه، وهي تحمل الصينية الخشبية، وكأنها تلومه على عدم انتظارها لكي تحضر الإفطار، كانت تنظر إليه بعيون حانية قائلة له:

"لم تنتظرني في المطبخ كما هي عادتك؟".

ولكنها انشغلت بكلام "الونزو" وهو يغادر المخبز، ويتمتم بكلمات غير مفهومة. لم تستطع أن تتبين مايقوله، ولكنها كانت تدرك تماما ما يعنيه، بأن الوضع سوف ينفجر في أي وقت من هذا اليوم، ولكنها تجاهلت تماما ما يقوله، واتجهت إلى زوجها؛ لكي تعطيه قطعة الخبز المحمص والقهوة السوداء. تنظر

إليه في حنان واضح، ولا يخلو من الشفقة. اقتربت أكثر منه، وهي تنظر إلى عينيه؛ لكي تعطيه بريقاً من الأمل. وإنها لن تتخلى عنه في هذه المحنة، مهما كانت العو اقب. كان ينظر إليها وهو يعلم أنه وفق في اختياره، وبادرها أنه سوف ينتهي من عمله قرب الظهر، بعد أن يعد قطعا من البيتزا التي يتفنن في عملها؛ لكي يعوض الأولاد عن وجبة العشاء. في الليلة الماضية كانت علامات السرور المصطنع تكسو وجهه قائلا:

"البارحة كان الطعام قليلا، سوف أعوضهم بقطع من الشطائر".

إنها تعلم تماما كم هو بارع في عمل الشطائر والبيتزا، التي لا أحد في روما يباريه في صنع هذه القطع الفريدة من العجين. كان حريصاً علي وصفة أمه، كان يعتبرها سراً من الأسرار الحربية، التي تخص فقط عائلة "أليسندرو"؛ حتى لم يطلع زوجته علي سرها؛ لأنه كان العهد بينه وبين أمه المتوفاة ألا يبوح بسرها؛ ولقد أعطت السر إلى ابنها الأكبر "أوجستين"؛ لأنها لم ترزق بالبنات، وكان لها ما أرادت.

طلوع الشمس كان على استحياء في هذا اليوم، وكما تعودت "كارينا" أن تقف مع زوجها على مدار السنوات الماضية في تحضير العجين، والوقوف معه في المخبز حتى ينتصف النهار، ولكنها في هذا اليوم كانت تريد أن تقف أكثر للشد من أزره؛ لقد وقفت في الحجرة الخلفية؛ حتى اختمرت قطع العجين، وكان الفرن في أوج حرارته التي انبعثت من أنحاء متفرقة، وهي تقوم بإنضاج القطع التي خرجت من الفرن، وهي تبعث برسالة إلى سكان الحي، عن طريق المدخنة العلوية، التي نشرت رائحة الخبز الطازج، ونشرت الدفء في أنحاء المخبز العتيق، وهذه الرائحة المنبعثة قد جعلت أطفال "أوجستين" يأتون في جلبة واسعة، جعلته يخرج من الغرفة الخلفية، وهو ينظر إلى الأطفال وهم يدخلون

من الباب الأمامي، ومن ورائهم "فيولا"، وهي تحمل الصغيرة "فرانسيسكا" كانت فيولا تحثهم على عدم رفع أصواتهم قائلة لهم:

"تكفي هذه الجلبة، لقد استيقظ الأموات بسببكم".

لكنهم لم يكفوا عن الصياح، من وقت خروجهم من الباب الأمامي للمنزل، حتى كانوا داخل المخبز العتيق؛ لقد زادت الجلبة، عندما شاهدوا قطع الخبز الناضجة ورائحة الخبز تملئ الانوف، وهي ترص في الفترينة الزجاجية الأمامية؛ طلبوا أن يكون لهم دور. طلبوا في إلحاح أن يساعدوا "أوجستين" في أي شيء يريده، طالما قد تغيبوا اليوم عن المدرسة يجب أن يكون هناك فائدة منهم. لم يسلم "أوجستين" من الإلحاح والجلبة التي هي تقريباً قد أيقظت السكان من سبات عميق، وهم ينظرون إلى الجلبة الآتية من المخبز العتيق.

في الساعات الأولى من الصباح كانت الأصوات مختلطة من "إلكسندرو إبرا" هما يصيحان في بهجة قائلين في صوت واحد:

"أبي لا مدرسة اليوم، نريد أن نعمل اليوم في المخبز".

لقد رضخ تماما "أوجستين"، وبعد إلحاح طويل من "إلكسندر" وأخيه "إبرا" كان لهم ماأرادوا؛ كان من مهام "إلكسندر" . بما أنه هو الأخ الأكبر. أن يقوم بنظافة المكان من الداخل إلى خارج المخبز القديم. أما "إبرا" أن يقوم بتفتيح الأكياس البنية؛ حتى يتسنى لأمه أن تقوم بتعبئة الخبز في الأكياس الورقية. أما "فيولا" فقد وقفت مترددة، وهي تحمل ابنتها علي كتفيها، لقد نظرت طويلا إلى "كارينا"؛ لكي تعطيها أيا من هذه الأدوار. نظرات "كارينا" انتظرت طويلا قبل أن يتحرك زوجها، وهو يحاول أن يحفزها على الكلام، وأن تبدي مرونة في التعامل مع زوجة أخيه المنتحر. كان "أوجستين" ينظر إليها آلا تكون قاسية القلب في صوت خفيض قال لها:

"بلين العقل تكسبين الكثير، وبلين الكلام تكسبين القلوب وهذا أكثر".

وكان له ما أراد، عندما نطقت "كارينا" بعد صمت طويل، على أنها من الممكن أن تحاسب العملاء على قطع الخبز المبيعة، وهذا جعل "كارينا" أن تشرح في عجالة الأسعار؛ ونظرا لقلة المعروض كان ليس من الصعب على "فيولا" أن تدرك أن الموضوع يسير، ولن يستغرق وقتا طويلاً؛ كانت السعادة تبدو على ملامح "أوجستين"، وهو يرى أفراد أسرته تتعاون على إنجاح اليوم، على الرغم أن الأولاد لم يتناولوا إلا القليل في وجبة الإفطار، التي قامت "فيولا" بتحضيرها لهم؛ كان سعيدا وهو يرى أن زوجته قبلت الأمر الو اقع، وليس هناك مفر من التعامل مع زوجة أخيه؛ كانت السعادة كبيرة، وهو ينظر إلى كل واحد منهم، أن له دورا مهماً، مهما كان حجم الدور. كانت الأسرة هي الشيء الوحيد الذي يجعله متماسكاً، ويبدي كل المحاولات المستميتة؛ للحفاظ على كيان الأسرة كما علمه "أليسندرو" والده:

"إنه ربما الرجل رأس العائلة. ولكن العقل المدبر لإنجاح أي أسرة هي المرأة وتكتمل الأسرة بالأطفال، وللحفاظ عليها يجب بذل الغالي والنفيس، مهما كانت التضحيات؛ لأن الأسرة هي رأس مال الرجل الحقيقي".

كلمات من ذهب، قلما يجود علينا برجل بهذه البصيرة والتأمل؛ لم يبخل عليه الزمان بسيدة مثل أمه، أخذ يردد عبارات أبيه، وهو يرى أفراد الأسرة، الكل على استعداد ببذل مافي وسعه، حتى وإن كان قليلاً الذي سوف يكثر بمرور الأيام بتماسك الأسرة في هذه الظروف.

انتصف النهار تقريبا، وتجمع أطفال الحي في الشارع المؤدي إلى المخبز العتيق، وهم يمارسون بعض الألعاب الطفولية البريئة، عندما قدم من الطريق المؤدي إلى المخبز شخص قد رأوه كثيرا، ولكنه يحمل دائما الأخبار السيئة. كان نذير شؤم دائما بالنسبة إلى "ألكسندر" لقد أتى بظرف وزارة

الحرب، عندما مات عمه الأصغر على جبهة القتال، وهاهو يأتي علي الدراجة الهوائية؛ سعياً إلى المخبز، لقد تسمر "ألكسندر" في مكانه تماما، وهرع من ورائه أطفال الحي، وهم يسعون إلى الإمساك بالدراجة الهوائية، كأنهم يريدون أن يمنعوا الأخبار السيئة عن "أوجستين" لم يعر أي اهتمام بهم، بل سلك طريقه، مطلق الجرس المثبت علي مقدمة المقود في تعدد أصوات صليلة تنبئ عن حضوره؛ كانت نظراته إلى الأطفال تحمل لهم عدم المبالاة وهو ينظر إليهم في شفقة معهودة، يلفه نوع من الازدراء لما يفعلونه؛ لأنه لا طائل منه ما دام سوف يقوم بمهمته "كابي"، إنه ليس باسم على مايسمى، إنه دائما يحمل الأخبار السيئة؛ تساؤلات كثيرة كانت تساور شك "ألكسندر" قائلا في نفسه: "لقد جاء نذير الشؤم".

هل هناك أحد آخر على جبهة القتال، على الرغم من أن القتال قد انتهي منذ سنوات، إلا أن تساوره الشكوك، هل مازالت الحرب لم تضع أوزارها بعد؟ أما هناك عم آخر لم يره؟ وأصبح مفقوداً، وهاهو يأتي بأخبار مزعجة. ياله من نهار طويل ملئ بالأخبار السيئة؛ لم ينتظر حتى يستطلع ما الذي يحمله من أخبار؟ لم يتنظر، بل ذهب مسرعا إلى المخبز، لكي يرى ردة فعل "أوجستين" على ماهو قادم؛ دخل مهرولا على المخبز، بعد أن ترك "كابي" دراجته الهوائية خارج المخبز، وترجل عنها بهذه البدلة الكاكي، وبرجليه القصيرتين. متجها إلى قرب الفترينة الخاصة بالخبز، وهو ينظر إليه متوجسا خيفة من "أوجستين" الذي أخذ يرقبه، وهو يفتح الحقيبة الجلدية المعلقة على كتفه، ويخرج منها خطاباً كبير الحجم؛ ليس هو خطاباً ولكنه عبارة عن شبه مظروف ورقي كبير؛ لقد لمح "أوجستين" وهو يرى عدداً من الطوابع، قد زينت الخطاب من أعلى، إنه لايخطأها هذا الخطاب من "أرض الأحلام"، هل يستجيب القدر بهذه

السرعة في أقل من سبعة أشهر يأتي الرد؛ لم يفرح كثيرا، بل الأمر قد زاده خوفا، وهو يردد في نفسه:

"كابي لا يأتي بالأخبار الجيدة على الرغم من اسمه "حظ"، ولكنه لايمت بصلة للحظ".

عليه أن يتريث قبل أن تأتي النتائج مخيبة للظنون، التي لايقدر عليها في الوقت الحالي. إنه يريد أن يفرح، وأن يعيش، وأن يبعد عن هذا المستنقع النتن.

لقد تناول "أوجستين" المظروف الورقي الكبير من يد ساعي البريد، وهو ينظر إليه متوجسا منه خيفة؛ لأنه لايستطيع تحمل صدمة أخرى في حياته؛ نظرات "كابي" كان بها اعتذار عما كبد فيها "أوجستين" قائلا له في صوت خفيض:

- "أرجوك آلا تغضب مني؛ ما أنا إلا ساعي بريد، وليس بقارئ لبلورة سحرية أو للنجوم".

المعاناة بعد وفاة أخيه الأصغر، إنه الوحيد الذي يأتي بالأخبار السيئة؛ كان "كابي" ينظر إليه، وهو يخبره أن هذا الخطاب، وبالأحرى هذا المظروف أتى من عمك المقيم في أمريكا؛ "أوجستين" يعلم هذا، ولكن ماهو في داخل هذا الطرد؟ هذا ما لايعلمه؛ لقد نظر طويلاً وهو يرى "كابي" على وشك أن ينصرف؛ لقد استدار مرة أخرى، قبل أن ينصرف تماما من المخبز أن يعذره، إذا كان هذا يحمل من الأخبار السيئة، فهذا الموضوع لادخل له فيه، بل إنه فقط ساعي بريد لا أكثر، وهذا كان يحمل أخباراً جيدة له، أن تكون مكافاته قطعا من "توسكان"، علبة من قطع الخبز على أن تكون ساخنة وطازجة؛ كان "أوجستين" ينظر إليه وإلى الخطاب الذي يبدو على شكل مظروف متخم بأوراق؛ لقد تجمع الأطفال في داخل المخبز، ووقف في الخلف "ألكسندر" وهو ينظر إلى أبيه على بعد أمتار منه، ونظرات الخوف ينطق به وجهه الذي امتقع

تماما، خوفا على أبيه من أي أخبار سيئة؛ لأن هذا الخطاب هو استجابة لدعائه وصلواته التي كان يتلوها في أيام الآحاد، بل جعلته في الشهور السابقة أن يذهب إلى الحج، حيث المدينة المقدسة "الفاتيكان"، أن يطلب بركات البابا وشفعة القديسين أن يحققوا ما يتمناه؛ هل هو طوق النجاة؟ لم تحاول "كارينا" الانتظار أكثر من ذلك، بل كانت في شوق عظيم لكي ترى ماتحملها هذه الرسالة من أخبار سارة أو غير سارة. الانتظار يقتلها، بل كاد أن يفتك بها، وهي ترى "أوجستين" قد تسمر في مكانه، ولايريد أن يفتح الظرف؛ لقد حاولت أن تخطف من يده الخطاب، ولكنه كان يقبض عليه بأنامله القوية، ولم تقدر أن تفلته من يده، وهو ينظر إليها آلاتستعجل عليه في فتحه.

"مارسيا سو روما"؛ "مارسيا سو روما" كانت العبارات خافتة، وتصاعدت رويدا رويدا؛ حتى وصلت إلى أعتاب الحي؛ ووصلت إليه الأخبار بأن المسيرة والأصوات الضخمة قد أتت من قلب روما، وهي تتصاعد من قلب السلالم الرخامية الأسبانية "مسيرة روما" لقد شرف العدد على ما يزيد عن أربعة عشر ألف من راكبي الأحصنة والسيارات القادمة من شتى أنحاء إيطاليا، وخاصة من ميلانو، وهم يحملون الأعلام والرايات والموسيقات العسكرية التي تتقدم الطوابير العاصفة من المسرحين من الجيش، والبلطجية، وخريجي السجون، وأصحاب السوابق وأعضاء الجريمة المنظمة. خليط مثير من الأجساد الفارعة الطول والقصيرة؛ لايوجد تناغم، بل ما يجمعهم شيء واحد، هو الغضب والحنق، والرغبة في التكسير والخراب لكل ماهو جيد في المدينة؛ لم يخب ظن "أوجستين" تراءى إلى سمعه صوت الزجاج المحطم، وأشياء تُكسر وإشتعال الحرائق علي مرمي البصر. كان انتشار كتائب المحاربين القدماء قد انتشرت مثل النار في الهشيم، كان "سكودرايستي" يحطم كل شيء في الطريق، على

الرغم من أنهم جنود في هذه الدولة، ولكن صيحات الغوغائية قد طغت على صوت العقل استغل "الدوتشي" غياب العقل، وبدأ في بث سمومه:

"سوف تعطي لنا السلطة، وإلا سوف نأخذها بأنفسنا؛ اننا لا نخاف من احد طالما القلم في يد والسلاح في اليد الاخري".

كان نوعاً من اغتصاب السلطة بدون إجراء ديمقراطي! لكن من ينصت إلى هذا الفاشستي الأكبر، سوى هؤلاء الغوغاء. قد غيبوا العقل تماما. تصاعدت وتيرة الحرق والتكسير و انتشر الفزع بين الناس، وهي تجري إلى منازلها؛ للاحتماء من بطش هؤلاء الغوغاء؛ لقد أجبر "أوجستين" زوجته على أخذ الأولاد و"فيولا" و ابنته الصغيرة، بعد جدال قصير أن تذهب إلى المنزل بدون تلكؤ؛ نظراً لتفاقم الأوضاع التي سوف تؤول إلى الأسوأ.

لقد بزغ نوع جديد من الديمقراطية، هي الرايات والقمصان السوداء والهراوات؛ لقد بزغ نوع جديد من الفوضى، تعتمد علي تغييب العقل، وحشوها بالعبارات العنصرية ضد أبناء الوطن الواحد! الانقسام سوف يأتي بدون إبداء أسباب لاحياة للاشتراكية أو الرأسمالية، بل هي تطبيق القانون للشيطان الأكبر، الذي ذهب إلى البعد عن الإيمان، بل ذهب إلى الإلحاد الذي يقف عنده إلى حد التبجيل. إنه يكره الكنائس والقساوسة بالملابس السوداء؛ لم ينج من تسلط والده الملحد، إلى شفافية أمه الكاثوليكية، التي حاولت أن تنجيه من هذا المصير المجهول؛ تصاعدت الضربات التي تسمع على بعد أمتار من المخبز العتيق، والخطوات المتسارعة من الأحذية الثقيلة التي تنهب الأرض، وتدخل الأزقة الضيقة في الحي على عجل، وهي تقترب بالرايات السوداء المرفوعة علي الأكتاف، ويتسارع في حملها الجنود القدامى، وهم يتقدمون ويكسرون كل ماهو في طريقهم، حتى وصلوا إلى المخبز العتيق، وينظر "أوجستين" إليهم في خوف، ولكنه لم يرتعد، بل وقف رافضا؛ لما يجرِ من

أفعال يندى لها الجبين، ولسان حاله كيف تفعلون هذا في أبناء الوطن الواحد؟ قائلا لهم في صوت حاد:

"كيف تجرؤون على فعل هذا بنا؟ كيف تغيبون العقل؟!

لم يخف لما سيحدث، بل كان ينظر إليهم في تأمل واضح؛ ولكنه لم يدر بما حدث له؛ كل الذي يتذكره أنه كان يقبض على الظرف الآتي من أمريكا، وشج رأسه، ويتحسس بيده الدم القادم من خلف رأسه، ويسقط على الأرض والإغماء قد طال.

السفر إلى "أرض الأحلام"

(٣)

"لقد تملكني الأمل دائماً بأن هذه الأرض لربما ستصبح ملاذاً آمناً ومُرحِباً بالفاضلين والمضطهدين، من أي أمةٍ كانوا"

مرشح الرئاسة الأميريكية دينيس كوسينج.

أفاق "أوجستين" بعد عدة ساعات: كان إحساسه بالصداع لايطاق، يكاد يفتك برأسه؛ إحساسه بأن رأسه قد شقت إلى اثنين. الإحساس كان فظعياً لايطاق، ويتحسس بأصابعه مكان الجرح الذي أصابه، ورباط من الشاش الأبيض قد لف رأسه كله، ويوجد جزء يسير حاسر من أعلى الرأس والجفون، أثقلته لم يستطع أن يفتح عينيه؛ من الصداع الذي أصابه، بل كانت خيالات أمامه، وبالكاد ظهرت صورة زوجته في ضبابية. لم يستطع أن يجمع ملامحها؛ لكنه بالكاد يفتح عينيه ليلمح ملامح الجزع على وجهها، الذي ارتسم عليها لما حدث له؛ ارتسم علي وجهه ضحكة سخرية من الذي حدث، كان يبحث عن كلمات للاطمئنان عليه، قائلا لها:

"لا تجزعي، من بات وأصبح في الشقاء لايأتيه الموت مبكرا".

ارتسمت على وجهه محاولة الهدوء حتى يطمئن "كارينا" على أن ماحدث شيء يسير لايستحق الجزع أو القلق، ولكنه لم يستطع أن يحقق مراده؛ بل زاد من جزعها عندما رأت أنه لايستطيع أن يستقيم في جلوسه، أو أن يقيم رأسه المتكئة على الوسادة التي اختلط بياضها بقطرات الدم، التي نزلت أثناء معالجة الطبيب "كارلو" الذي هرع "ألكسندر" إلى عيادته في آخر الشارع، في منتصف النهار عندما سقط "أوجستين" في منتصف الشارع، أمام المخبز

العتيق مضرجاً في دمه؛ كان يقرع باب العيادة في دقات عنيفة، وفي جزع واضح، وينادي بأعلى صوته علي الطبيب "كارلو" وهو يصيح فزعا قائلا: "يادكتور كارلو أبي في أشد الاحتياج إليك لقد أصيب في رأسه".

دكتور "كارلو" لم يعبأ بأن يذهب إلى المستشفي العام في هذا اليوم، مفضلا أن يكون في منزله الذي يعلو عيادته، تحسبا أن مسيرة "الدوتشي" سوف تصيب روما وضواحيها بالشلل التام. ولكنه أزعجه القرع المستمر الذي لم ينقطع، والصوت الذي خرق جدران العيادة، وهو يردد اسمه في تكرار بدون ملل، لم ينقطع حتى نزوله إلى "ألكسندر" هو يطلب منه في سرعة أن يأتي معه؛ لأن أباه قد سقط مضرجا في دمه، بعد اعتداء "سكودراستي" عليه. لم يتوان على أن يسحب الحقيبة الجلدية، وأن يخرج من عيادته وهو يرتدي منامته، لم يعر اهتماماً لأي أحد؛ لأن الشوارع كانت مهجورة تماما من المارة، الذين فضلوا أن يكونوا داخل منازلهم، تاركين الشوارع للفوضي.

كان حديث دكتور "كارلو" يبعث على عدم الجزع، بعدما رأى أفراد الأسرة قد تجمعوا حول مرقده، وهو يضمد شج الرأس، وقال الطبيب المتمرس في هدوء:

"لاتقلق ياأوجستين، إنه جرح سطحي. بالتأكيد إنهم قتلة ومجرمون، ومجموعة من الرعاع التي لاتتورع عن عمل أي شيء. سوف تشعر بالصداع؛ ولذلك هذه الحبة سوف تخفف عنك هذا".

كانت تعليمات "كارلو" شديدة الوضوح، ولامجال للشك فيها. "كارينا" تتذكره جيدا عندما كان طالبا في كلية الطب في السنة النهائية، عندما كان يصر علي طلب قطع من الخبز "الرنيلا" قبل ذهابه إلى الامتحانات، كان يخبرها أن هذا الخبز يعطيه طاقة لاتجابهة طاقة، من رائحة الخبز فقط الذي لايضاهيه في روما كلها، بل إنه أقنع طلاباً آخرين لكي يذهبوا إلى المخبز العتيق،

حتى يصابوا مثله بهذه الطاقة. كان يتفنن في عمل شطائر من اللحم المدخن "البيبروني" مع قطع الجبن والخس الطازج؛ "كارينا" كانت تحسده على ذوقه وتفننه في عمل الشطائر. نظر إليها "كارلو" وأحس من نظراتها أن تتذكر الأيام الخوالي؛ استرجعت هي الأيام الأخر التي فيها رغد العيش، عندما أفاقت على الحبة التي أعطاها إليها في حالة استمرار الصداع. أحضرت كوبا من الماء، وأسندت رأس "أوجستين" قريبا من صدرها وهي تناوله الحبة.

تحسنت حال "أوجستين" بعد أن تناول الحبة، وهو ينظر إلى زوجته مستفسرا عن الذي حدث؛ اطمأنت أنه في حالة جيدة، عندما أخبرها عن حال الأولاد، وكيف هم أمسوا في هذه الليلة؟ وتناولهم للغداء أما لا؟ لقد اطمأنت أن حاله قد عادت إلى طبيعتها بعد السؤال عنهم؛ كانت ترد في ابتسامة .لاتخلو من الخوف . إنهم قد تناولوا ألذ الشطائر في حياتهم، قائلة في حنان ويغلف صوتها السعادة:

"شطائرك كانت عيدا لهم، لقد استحوذت على قطعتين لك".

وإنها قد استحوذت على قطعتين؛ حتى يتسنى أن يتناولهما في وقت لاحق؛ لأنه لم يتناول طعام الغذاء، وبالتالي سوف يصيبه الجوع في حالة عدم تناوله أي طعام؛ لقد نظرت إليه وهو يبحث عن الخطاب، ولكنه كان يبحث عليه بعيون زائغة مرتعبا قائلا لها:

"أين الطرد ياكارينا؟".

ولقد أدركت مايبحث عنه، فأخبرته قائلة له:

"لقد وضعته بعيدا عن أيدي الأطفال. إنه هنا في خزينة الملابس".

فأراحت رأسه من على صدرها، وذهبت إلى دولاب الملابس، وسحبت الظرف من وسط ملابسها، وهي تنظر إليه بعدم القلق؛ الخطاب قد انكمشت أطر افه بعد أن كان يقبض عليه بأنامله، حتى أن أظافره قد تركت علامات على

أطرافه. اعتدل في جلسته، وهو يفتح الخطاب في تأنٍ واضح؛ حتى لايصاب بخيبة الأمل في حالة رفض طلبه. كانت "كارينا" تنظر إليه وهو يفض الظرف، كان الفضول يقتلها، وهي تترقب حركات "أوجستين" بعد أن فتح الخطاب، نظر إلى داخل الظرف، وهو يرى ورقة بيضاء تتوسط المظروف، وقام بسحبها وهو يقرأ:

"ابن أخي العزيز أوجستين" الموقر: يحزنني ما آلت إليه الأوضاع في إيطاليا، وما أصابك أنت والعائلة في ظل الظروف الصعبة التي تمر بها أنت وأولادك وزوجة أخيك "أبرتو" والصغيرة. كان الخبر مفزعا لي ولأفراد العائلة، برجاء أبلغ ببالغ الأسى والتعازي "لفيولا" في وفاة "ألبرتينو" إن الذي حدث خلال السنوات الخمس لاطاقة لبشر لكي يتحمل هذه المصائب، ولكنكم كما هو معروف عنك أنك قد خلقت للمسؤولية منذ أن كنت صبيا؛ ولذلك لن أقلق عليك أو علي أسرة أخي، ولكن يحزنني أنني لم أكن معكم في هذه الظروف الحزينة.

أوجستين لقد ذكرت عدة مرات من قبل: قبل وفاة أخي، أن يهاجر معي من قبل، ولكنه رفض بشدة الفكرة؛ وكان يتعلل دائما وهل ترك إيطاليا هو الحل؟ عندما يترك الخبازون أفرانهم؟ كيف سيأكل الشعب؟ كيف تستقيم الأمور بدون خبز؟ كان ينظر إلى نفسه على أنه حامي لهذه الأمة المتداعية؛ لقد استخف بحديثه معي، وأخبرته عندما تضيق بك الدنيا أخبرني؛ ولكنه لم يفعل، لعله يرقد في سلام.

ابن أخي الموقر، لقد نقلت رغبتك إلى العائلات الخمس في نيويورك؛ ولقد دبرت العائلات الخمس هنا في أمريكا كل الترتيبات لجلب عشر عائلات من أنحاء إيطاليا، ولقد وقع الاختيار على عائلتك يا "أوجستين" تجد مرفقا مع هذا الخطاب، الذي أرجو أن يصل و أنت في أحسن حال، تذاكر سفر على الخطوط الملاحية النجمة البيضاء، وهي خطوط ملاحية منتظمة مابين ميلانو وليفربول

إلى نيويورك، وصولا إلى جزيرة "اليس" أو جزيرة الدموع، وسوف يكون سفرك على "ماجستيك" في الدرجة الثالثة، ربما يكون هناك أكثر من ألف من المهاجرين؛ لأن السفر مكلف، ومن قام بدفع هذه المصاريف هي العائلات الخمس، ولست أنا.

"أوجستين" الرحلة سوف تستغرق قرابة أسبوعين، بمعني أنكم سوف تكونون في أمريكا قبل أعياد الميلاد، وسوف يكون أول عيد ميلاد، ونحن مجتمعون على "أرض الأحلام". أرجو تدبير أمورك مع السفارة الأميريكية في روما؛ ونصيحة أن يكون الأولاد في صحة جيدة، وآلا يكونوا معتلي الصحة، بعيدين عن السل قبل السفر؛ حتي لايتم رجوعهم مرة أخرى إلى إيطاليا. سوف يكون هناك مندوب دائم من العائلات الخمس في الميناء؛ لتذليل أي عقبات أمامكم حتى لو كانت بالمال لاتقلق.

ابن أخي أتمنى من العذراء والقديسين أن تشمل عائلتك ببركاتهم، وأن توفق في القدوم إلى أمريكا في أقرب وقت ممكن؛ تحياتي لك وللعائلة الكريمة، وأراك قريبا علي "أرض الأحلام"   عمك ماركو.

لم يصدق أن المعجزة قد تحققت، وأن أمنياته ودعواته قد استجيبت له. إن العذراء والقديسين قد رضوا عنه وعن عائلته، وأن الحلم سوف يتحقق، لقد أخذ يقرأ الرسالة، وهو يردد كلمة بكلمة على مسمع زوجته، وهي تكاد ترقص فرحاً، وهي تنظر إليه؛ لقد تحقق من الرسالة عدة مرات، حتى كاد أن يجن، وهو يقرأ الرسالة مرارا وتكراراً، حتى فوجئ أن أطفاله وزوجة أخيه، وحتى الطفلة الصغيرة داخل غرفته ينظرون إليه في استغراب؛ لأنه لايدرك أن صوته كان عاليا، وأن صوته قد أيقظ أفراد العائلة؛ حتى ظنوا أنه قد ألمه شيء؛ ولذلك دخلوا إلى غرفة نومه، وهم يسرعون الخطى، وهم ينظرون إليه محتضناً زوجته، ويمطرها بقبلات حتى ظنوا أن الوقت غير مناسب لدخولهم،

ولكنه طلب منهم عدم الخروج، والبقاء وهو يصيح ويدور في حلقات رافعا "فرانسيسكا" في الهواء، ويدور بها عدة مرات وهي بين ذراعيه، صائحاً: "سوف نذهب إلى أمريكا، سوف نذهب إلى أمريكا".

اليس (جزيرة الدموع)

(٤)

"أن يكون الإنسان حرا لا يعني مجرد تحرره من الأغلال التي تقيده، بل أن يعيش بطريقة تحترم وتعزز حرية الآخرين".

نيلسون مانديلا

ديسمبر ١٩٢٢م.

كانت الصيحات تتعالى من على سطح "ماجستيك". الصيحات تتعالى من الأطفال الصغار قبل الكبار، وهم ينظرون إلى هذه السيدة التي تقف صامدة وتحمل في يد شعلة الحرية، واليد الأخرى نقش ٤ يوليو ١٧٧٦م تاريخ استقلال أرض الأحرار والاهداء من فرنسا بمناسبة مرور المئوية الاولي لتحريرها.

كانت النظرات حانية، نظرات تبعث على الهدوء، قد وصلت إلى قلوب هؤلاء المهاجرين، الذين يرمقونها بنظرات بماذا تخبئ لهم الأيام القادمة؟ كان تهليل بالوصول، وهم يلوحون بكل الأشياء التي امتدت لها الأيدي. على الرغم من البرد القارص الذي أصاب الجميع، وتيبس الأطراف إلا أن الكل قد تراص على جوانب "الماجستيك"؛ لكي يلقوا النظرة الأولى على الأرض التي سوف تضمهم إلى فترات كبيرة من أعمارهم، وربما سوف تكون لهم الملجأ الأخير في ساعة الرحيل عن الدنيا.

طوال الرحلة من ميناء ليفربول إلى مدخل الميناء في مدينة نيويورك، ووقوف هذه السيدة في شموخ محطمة أغلال الاستعباد، لقد أبدع بارتولدي في رسم هذه السيدة الفلاحة المصرية وثوبها الطويل، وهي تنير العالم بالحرية الذي كان هدية من فرنسا، لقد امتن الأميريكون، ولعبوا أدوار الكومبارس

لحليفة كانت في يوم من الأيام لمحاربة البريطانيين، قبل أن تكون "أرض الأحرار" قوى عظمى.

هذه السيدة التي أبدع فيها غوستاف إيفل، والتي كانت في يوم آخر سوف تقف أمام مدخل قناة السويس في يوم الافتتاح، ولكنها الآن هي تقف هنا على مدخل نيويورك؛ لكي تنير القارات السبع بالحرية أمام الأمواج العاتية في شهور هذا الشتاء القارص، التي بخلت فيه الشمس بعدم سطوعها طوال فترة الرحلة كم كنا نظن أن في كثير من الأحيان أن القدر سوف ينجي هذه السفينة التي كانت تترنح علي جانبيها في عنف بالغ؛ تكاد جوانبها تلامس سطح الماء العاتي، وتغرق السطح بدفعات من المياه التي لا تمكث علي السطح أكثر من ثوانٍ، ثم يتبعها بأخرى، لقد تكرر هذا المنظر وهذا السيناريو الذي تكرر على مدار الأسابيع الماضية، كانت رحلة محفوفة بالمخاطر من أولها.

لقد عانت هذه الأسرة كثيرا ابتداء من تدابير المصاريف؛ لم يكن يتخيل مدى صعوبة الأمر، وهو يري "كارينا" تسحب من الخزينة الخشبية من قاعها علبة خشبية قديمة، يوجد بعض الحفر البارز عليها، والكتابات الطفولية، إنها تحمل اسمها؛ يبدو أنها علبتها الخاصة بها؛ لقد سحبتها وهي تفتح هذا القفل الصغير لم يدرك بوجودها في هذه الخزينة، وهي تسحب جزءاً ليس بالقليل من أموال "البنكنوت" كأنها كانت تدرك أن الوقت قد حان لاستخدام هذه الأموال؛ لم يدرك أنها تحتفظ بهذا القدر من الأموال قائلا لها في دهشة:

"ماهذا ياكارينا؟"

كان ردها في سعادة بالغة قائلة له:

"لقد حان وقتها".

كان "أوجستين" ينظر إليها في دهشة: من أين أتيتي بهذه الأموال الكثيرة؟ لم يعهد فيها أن تخفي أي أمر من الأمور المالية التي تخص الأسرة قائلا لها في حدة: "من أين لك بكل هذه الأموال؟".

لقد انتبهت أن هذا الأمر قد أزعجه بشدة، وهو يردد السؤال نفسه مرتين؛ لم تدرك أن سؤاله لها سوف يزعجها بهذا القدر، ولكنها أجابت في شجاعة قائلة ليّ:

"إنها أموالي يا أوجستين، لقد كانت أموالي طوال هذه السنوات، وهي من والدتي وكانت تساعدني من وقت إلى آخر في تكاليف الحياة، وحان الآن وقت استخدامها في ذهابنا إلى أميريكا".

كان عليه أن يعتذر إليها، بعد سوء الظن الذي أصابه؛ كان عليه أن يثق بها أكثر من ذلك؛ كان له كل الحق فيما يساوره من شكوك، فيما يراه اليوم أو سمعه، كان عليّه الاعتذار منها، قائلا لها في حنان:

"أعتذر لم أقصد أن أظن بك هذا الظن".

كانت تنصت إليه، وتنظر إليّه بنظرات حانية قائلة له في هدوء:

"لا عليك؛ علينا أن ندبر أمورنا جيدا. هل هذه الأموال سوف تكفي؟ أم سوف نحتاج إلى مبالغ أخر".

كان عليّه أن يقرر هل هذه الأموال سوف تكفي في رحلتهم من هنا إلى الميناء، ثم بعد ذلك إلى ليفربول، ومن هذه المدينة إلى مدينة الدموع؛ كان عله أن يقرر في أقرب وقت؛ لقد انقطع الحديث بينهما بسبب طرق علي الباب، إنه صوت "فيولا" تستأذن في الدخول؛ لقد سمح لها بالدخول إلى الغرفة، وهي تتحسس بكلمات لا يكاد يسمع منها تقريبا شيئا. لقد طلبت منها أن ترفع صوتها قليلا قائلا لها:

"ارفعي صوتك قليلا يافيولا، نحن بالكاد نسمعك".

يكاد صوتها يكون همسا؛ لقد تشجعت قليلا، وهي تقترب منهما ونحن جلوس؛ لقد اقتربت منهما وهي تفتح براحة يديها على قرط ذهبي، وصليب فضي، قائلة لنا في هدوء:

"أرجو أن يكون هذا يكفي؛ أو على الأقل أن يكون جزءاً من المصاريف؛ اعتقد أن القرط سوف يفي بالمطلوب، ولكني سوف أحتفظ بهذا الصليب؛ لأنه سوف يبقى ذكرى من أبرتو، والاحتفاظ به لفرانكا، هذا حقها عليّ أن ترى شيئا من أبيها".

لقد وقفت "كارينا" على قدميها، وهي تنظر إلى "فيولا"، وتبتسم ابتسامة صغيرة، وهي تحتضنها في حب كبيركان " أوجستين" ينظر إليهما؛ متأكداً أن هذه الأسرة لن تتفكك أبدا مادام هاتان على هذا الحب؛ حتى وان دبت غيرة النساء بينهما، يظل هناك خيط رفيع يربطهما بدون أن يشعرن به، هذا الرابط الذي جمعهما في أحلك الظروف، وهي أن تبقى هذه العائلة على مر السنين القادمة؛ كان الموقف لايحتاج إلى دليل على الحب والتفاني من أجل هذه العائلة.

لقد بلغ الإعياء أشده على الأطفال، وهم يحتمون من البرد القارص في أحضان الأسر وأمهاتهم. تسلل البرد القارص إلى أطرافهم في عنف بالغ؛ كان الصراخ من قلة الطعام وقلة الأغطية التي تحميهم من هذا الطوفان الذي يلسع بسياطه في أجسادهم، لم يفرق بين أحد، بل كان يتسلل أيضا إلى كبائن الأغنياء؛ كانت تعج بكل الطوائف والمستويات طوال الأسابيع الماضية في رحلتنا من البحر المتوسط، وصولا إلى ميناء ليفربول. كان الجزء الأصعب هو الوصول إلى الجانب الآخر من المحيط العاتي، الذي ابتلع كثيرا ممن يبحثون عن الفرار من الاستعباد ومناشدة الحرية أن تقترب منهم أكثر.

لقد لاحت لنا الآن هذه السيدة الصامدة؛ طوال هذه السنوات، وهي ترى القادم إليها، والمغادر أيضا، لم تطرف بعينيها أمامه؛ لم تختلج أي جزء منها؛

لم تعد تعي ما يحدث، بل هي تنظر فقط إليهم؛ لم تعد النظرات تعني لنا شيئا؛ بل ربما نظرتنا نحن تعني لها شيئا؛ هل سوف تكونين أحن علينا من أوطاننا، أم إنك سوف تكونين قاسية بقدره؟ هل نظراتك سوف تبعث فينا الأمل مرة أخرى، أم أننا سوف نجرب الشقاء مرة أخرى في أرض غريبة، وسوف ينقلب الشقاء إلى أكثر من واحد، وتنقلب الغربة إلى غربات أكثر لا أستطيع أن أجيب.

كانت الصيحات تتعالى من البحارة على "الماجستيك"، الذي تعالت الأصوات في توجيه المهاجرين، وهم يقفون في أسفل السلم؛ كانت الصفوف طويلة؛ لقد بلغ بنا التعب ونحن نقف في هذه الصفوف الطويلة، التي امتدت على طول الأرصفة من السفن إلى مكتب الهجرة. سوف نكون من المحظوظين إذا اقتصر وقوفنا على خمس أو ست ساعات على الأقل، وربما أكثر، قبل وصولنا إلى هذه الفتحات الصغيرة المنتشرة داخل هذا المبنى، الذي بني بالحجر الأحمر، إنه يذكرني بالمباني الأثرية القديمة في بلدتي، وربما يسعفنا الحظ بدخولنا إلى المستشفى البحري رقم ٤٣ للكشف الطبي، الذي هو عجيب ولايستغرق أكثر من ست ثوان؛ أو ربما لن يسعفنا الحظ قد نقضي ليلتنا في هذا المكان البارد قبل الكشف الطبي.

كل مايقلقني من هذا هو رؤية "ألكسندر" يعاني من السعال الذي يلازمه في هذا الوقت من السنة؛ كنت أصلي كثيراً من أجل ألا يلاحظ الأطباء حالة ابني البكر الصحية؛ كنت أحمل "فرانكا" واقفا في الخلف، في هذا الصف الطويل الذي امتد على مدى البصر، لقد عبثت بي الظنون، وأصبحت أفكاري كلها مشوشة، ولقد زاد عليّ العبء، وأنا أرى كثيرا من الحيرة في عيون المهاجرين.

كلنا لانجيد الإنجليزية والأسئلة تتوالى علينا تسعة وعشرون سؤالا؛ كانت صعوبة بالغة، وتدخل ابني "ألكسندر" عدة مرات حتى يوضح مايريده موظف الهجرة منا؛ كنت أتفصد عرقا في قلب الشتاء القارص؛ كان الكل يقف

مرتعشا، وهذا الموظف يسأل في برود، ولا يعنيه إن كنا نقف في هذا البرد القارص قائلا ليّ:

"هل معك من الأموال ما يكفيك للإعاشة؟".

كانت الإجابة حازمة حتى لايشك في الأمر؛ في حقيقية الأمر نعم، كان هناك ما يكفينا ربما لشهر واحد فقط، قائلا له في حزم:

"نعم قرابة ثلاثين دولارا".

لقد لانت قسمات وجهه قليلا، و ابتسم قائلا ليّ:

"إنك تملك ثروة!".

لم أستغرب من رد فعله؛ بل ابتسمت له في دهشة قائلا له:

"إنك لاتعلم كم عانينا في سبيل الحصول علي هذا المبلغ؛ هذا مانملكه من حطام الدنيا".

لقد انتهت الأسئلة، وحان الوقت لتسلق السلالم الرخامية إلى مستشفى البحرية رقم ٤٣، أكبر مستشفى بحري على مستوى القارة الأميريكية؛ إنهم يقفون في أعلى السلم بهذه المعاطف البيضاء. إنهم يتفحصون الصاعدين، أعينهم تجري تبحث عن الفريسة التالية. أصابع الطبشور الأبيض تزين السترات والفساتين لهولاء المهاجرين؛ كنت أخشي على "ألكسندر" حتى لايصاب بهذا الخط من الطبشور، إنه يسعل بشدة. يقترب منه رويدا واحد منهم، ويغطي معطفة بعلامة: (p) ، وهي علامة خاصة بالرئة واللياقة البدنية، لقد اتجهت إليه سألته:

"ماهذا الذي تفعله، قائلا له في إنجليزية ركيكة لاتفهم علي الإطلاق:

"ماهذا الذي تفعله؟".

إنه لاينصت بالمرة، بل لقد تجاهلني تماما، وهو يبحث عن فريسة أخرى ينال منها بهذا الطبشور الظالم؛ لا أخفيك أمرا إنني كنت خائفا جدا ما

الذي سوف يفعلونه؟ اعلم أن ابني مريض، ولكن مرضه ليس بالمعدي بالمرة، بل هي حالة يعاني منها في وقت الشتاء فقط، حتي اقترب مني واحد من جلدتي، وسألني في صوت لايكاد يسمع قائلا:

"هل هذا ابنك؟".

كانت إجابتي له بالتأكيد، لقد ظهر الامتعاض والضيق عليّ قائلا له:

"هو ألكسندر ابني البكر".

كان الرجل منصتا لِما أقول؛ لكنه كان يتلفت في أثناء صعودنا السلالم الرخامية هو يهمس بكلمات ليّ:

"عليك أن تقلب هذا الجاكت الخاص بابنك، لا أحد سوف يلاحظ شيئا، وأن تتوارى قليلا؛ وأن يأخذ القليل من هذا الدواء، سوف يجعله ينام حتى يفوت ميعاد الفحص الطبي، وعندما تُسأل أخبر الطبيب:

"أن ابنك مرهق من الرحلة، وعليه أن يخلد إلى النوم".

كانت كلمات الرجل طوق نجاة ليّ من هذه المعضلة، على الرغم من الممكن أن يمكث ابني في هذه المستشفى، حتي يسترد عافيته، ولكني كنت خائفا من رجوع العائلة بالكامل إلى إيطاليا مرة أخرى، وتذهب كل هذه المشاق أدراج الرياح، كنت في حالة يرثى لها، واعترتني الأفكار السوداء.

لقد تأخر الوقت كثيرا، الكل كان في إعياء كامل، لقد انتهى الفحص الطبي: لقد استعبد الكثير من المهاجرين أمراض معدية، أوراق مزورة، انتحال شخصية، خلفية إجرامية، وعدم وجود أموال كافية؛ حتى لايصبح عبئاً على هذا الوطن الجديد.

علينا أن نقضي ليلتنا في هذا المكان الفسيح، الذي تضرب به الرياح العاصفة من كل مكان، لقد تجاوز العدد ألف من هؤلاء المتعبين من طول الرحلة، و أيضا من الوقوف في هذه الصفوف الطويلة، التي لم تختفِ بل هي

مازالت في الخارج متراصة؛ لقد أطفئت الأنوار على الأَسرة ذات الدورين، وتنعكس الأنوار من خارج هذا المبنى على الأعمدة، وتنسحب ظلال طويلة على الأرضية الرخامية، فتعطي لك الإحساس بقضبان السجون مرة أخرى، أريد أن أشم هواء نيويورك:

"إنه يبدو مختلفاً عن أي هواء".

لقد وصلت الأصوات المتعبة في نشاز واضح؛ تخترق الآذان، إنها ليست عذبة، بل هي خليط من الشخير المتعالي من هؤلاء، إلى خليط من الأحلام، وساعد أيضا قلة الأغطية في إعطاء الصورة سيريالية بشرية والإنسانية المعذبة منذ فجر التاريخ، وتنصت إلى أحلام هؤلاء، فيما لايقل عن عشرات اللغات، كلنا نتشارك في أحلام واحدة، وإن اختلفت الجنسيات واللغات، الهم واحد، حتى وإن تعددت الأوطان.

النوم المتقطع لم يجعلنا ننام؛ بل كنت أنتظر الصباح بفارغ الصبر؛ لأطمئن على أفراد أسرتي؛ لقد تكوموا علي الأَسرة ذات الدورين؛ قلة الدفء جعلتني أرى السهد والأرق في أعينهم، كنت أكثر منهم يأساً، ولكني لم أظهر هذا إليهم، بل كنت أشجعهم بكل ما أوتيت من قوة؛ حتى لا تخور قواهم أمام ما سوف يواجهونه من مصاعب ومشكلات حتى خروجنا إلى الشوارع؛ ذهبنا إلى القاعة الكبرى لتناول الإفطار. إنها قاعة كبيرة تسع ألف أيضا مثلنا، كانت رائحة الطعام قد ذهبت إلى الأنوف؛ لقد ضرب الجوع موعداً معنا منذ فترة ليست بالقليلة؛ كان التهام الطعام بشراهة، كأننا لم نأكل منذ زمن بعيد، كان شكلنا في هذه المعركة مضحكاً، وإن غلب الصمت علي الباقين لم نكن نهتم بهم، بل كان يعنينا أنفسنا فقط؛ كان الخروج إلى الشارع كأنه أصبح عيداً لنا في هذا الصباح المشرق، نعم كنت أشم هواءً مختلفاً، إنه بالتأكيد مختلف عن أي هواء آخر، إنه هواء "أرض الأحرار".

أعياد الميلاد

(٥)

"ترانا هل نحتاج إلى وطن جديد، أم تراه وطننا من يحتاج إلى شعب جديد!؟"

محمود درويش

٢٤ من ديسمبر١٩٢٢م.

أول عيد ميلاد لنا في "أرض الأحرار" إنه مختلف بالتأكيد عن كل الأعياد التي قضيناها؛ كان النهار ساطعاً في هذا اليوم في "برونكس"، كل الجالية الإيطالية التي تقطنه قد خرجوا إلى الشوارع لقضاء آخر احتياجاتهم ولوازم العيد؛ كان وقع العيد على عائلة "أليسندرو" مختلفاً، لم يكن مثل الذي كنا نقضيه في قريتنا أو في روما؛ حتى الهواء كان مختلفاً أتذكره مع النسمات الأولى لنا على جزيرة الدموع، بعد أن خرجت الجحافل المتعبة من قلب المرفأ إلى خارج الميناء؛ تراصت سيارات النقل في هذا المكان الذي كان مزدحما بشكل كبير؛ كانت مثل شحنات الأغنام، الكل يتسابق بحقائب كبيرة الحجم، كان الرجال يسحبون هذه الحقائب أو يحملونها في عناء شديد بعد هذه الليلة الطويلة، والأغطية التي ربطت بالأربطة والحبال على رؤوس النساء؛ الكل كان يتسابق إلى حجز مكان له على هذه الشاحنات المنتشرة خارج المرفأ؛ هذه العائلة التي تنتظر أولادها وهي خارجة من المرفأ، كانت الدموع تكتسي الوجوه، وهي تنظر إلى أحبائهم بعد خروجهم من قلب هذا المعتقل الصغير التي حبست حريتهم فيه.

كانت هناك شاحنة صغيرة قد وقفت بعيدا عن هذه الضوضاء المنتشرة في أنحاء الميناء. كانت مناسبة لنا؛ طلبت من السائق عن طريق ابني البكر"ألكسندر" أن يتجه إلى هذا العنوان علي الظرف الذي أتى من أميريكا في

وقت سابق من عمي "ماركو". شاب صغير السن، إنه إيرلندي، إنه يعرف العنوان ولكنه سوف يكلفنا الكثير قائلا لنا في هدوء:
"هذا سوف يكلفك ثلاثة دولارت!".

كنت أرى أن هذا المبلغ مبالغ فيه إلى حد كبير، ولكن لاتوجد سيارات أخرى تستطيع أن تأخذنا إلى "برونكس". أيضا العائلة كلها متعبة، ونحتاج إلى راحة في أقرب وقت قائلا له في هدوء:

"ما تطلبه يتجاوز المعقول؛ إنك أيضا مهاجر، واحتاجت في البداية إلى مساعدة عليك أيضا أن تساعدنا".

كان الشاب ينصت؛ لكنه لم يعيرني أي اهتمام، بل كان يبدو عليه عدم الاكتراث تماما بما أقوله قائلا في هدوء:

"هذا هو الثمن تقبل أو ترفض أنت في هذه البلاد حر تفعل ما تريده".

لم يجد " أوجستين" مفراً من قبول عرضه؛ أنه ينظر إلى العائلة، إنهم مرهقون وفي إعياء تام، كان عليّه القبول مضطراً؛ حتى لا يجلس في هذا المكان ساعات أخرى؛ لم يجد أحداً من العائلات الخمس كما أخبره عمه في خطابه، لابأس عليه أن يدبر اموره بنفسه.

المدينة البكر انتشرت فيها الطرق السريعة؛ والشروع في البنايات الضخمة وعمال البناء هم يقفون علي الشدات المعدنية والهياكل الفلولاذية، وهي تتمطى في السماء وتطولها، كان هذا مشهداً غير مألوف بالنسبة لمن أتى من القرية، وهو يرى بناية من خمسة أدوار من عمل الشيطان؛ النظر في وجوه أولاده كان يبعث على الحيرة في طريقهم إلي برونكس. وهو يري أن ألكسندر قد بدت على وجهه الدهشة من طول البنيان. متلفتاً من جهة إلى أخرى في شكل سريع، كأنه يلاحق هذه المشاهد حتي لاتغيب عن عينيه. أما إبرا فاغراً فاه على مصراعيه، وهو يحملق في هذه

البنايات والطرق السريعة، لم يكن يتخيل أن الأزقة في قريته هي آخر ما سوف يعرفه من شوارع كان يحدث نفسه، لقد دفنت بالحياة في هذه القرية اللعينة، لم أكن أعلم أنه هناك أشياء أخرى غير مخبز كاراكلا الحقير.

كان اللقاء حاراً مملوءاً بالمشاعر والحب والاشتياق، إنه لا يصدق أنه يري عمه! هذه هي المرة الأولى له؛ منذ أن أغادر إيطاليا منذ عشر سنوات! لم أكن يتخيل أن يري عمه على هذه الحال: لم يتغير البتة، ربما قد زاد في الوزن قليلا، ولكنه مازال يملك هذه المشاعر الطيبة والحس الفكاهي؛ لم تغيره أميريكا كما كان يسمع؛ ربما لم يظهر هذا التغيير الآن، ولكنه على الأرجح قد تغير، كان أكثر بِشراً عندما رأي وجهه، وهو يبتسم له حضنا قائلا له:

"الموقر (أوجستين) يالك من ولدٍ شقي؛ لقد تكبدت هذه المسافة حتى ترى عمك ماركو".

لقد كنت يجاريه فيما يقوله له قائلا له:

"أنت الذي تأخرت كثيرا ياعماه كنت أنتظرك منذ الأمس".

كان احتضانه له فيه دفء عائلة "أليسندرو"، إنه مختلف عن والده؛ إنه أكثر عمليا من والده؛ كان لايرى أمل في إيطاليا قبل الحرب العظمى؛ لقد قرر أن يغادر إيطاليا قبل أيام الحرب بعامين؛ كان يقرأ الكثير عن "الأرض الجديدة" والفرص المتاحة أمام المهاجرين الجدد، في إقامة وتأسيس حياة جديدة لهم. كان أكثر ما يحزنه أن أبي لم يو افقه على رأيه، بل حثه على أن ينتظر حتى تتحسن الأمور قائلا له:

"انتظر ياماركو قليلا، سوف تتحسن الأمور إلى الأحسن".

لم ينظر عمي في نصائح أبي، بل كان أكثر حرصا على المستقبل، وهو أيضا يرى أنه ليس هناك بارقة من أمل، ليس الآن أو بعد ذلك قائلا إلى أبي:

"لن تتحسن الأمور، بل سوف تتزداد سوءاً، إن الغوغائين عما قريب سوف يتحكمون في هذه البلاد".

كان دفء عمي قد وصل إلى أفراد العائلة، هو يقبلهم فردا فردا وصولا إلى الصغيرة "فرانكا"، وهو ينظر إلى هذه اليتيمة في تأمل، قائلا إلى "فيولا" في أسى واضح:

"أنت أيتها الجميلة العزيزة (فرانكا) يالك من أيقونة لهذه العائلة، ورائحة من العزيز (أبرتو) فليرقد في سلام، ولتعيشي لهذه العائلة أمداً طويلا".

العيد كان مختلفا، الديك الرومي الذي خرج من الفرن توسط طاولة الطعام؛ شجرة أعياد الميلاد قد تزينت بالألوان والنجمة التي علت الشجرة، وانتشرت الهدايا تحت الشجرة في انتظار اليوم التالي لفتحها. انتشرت الكراسي حول طاولة الطعام، والكل في انتظار تلاوة الصلوات لمباركة هذا الطعام؛ الأطفال كانوا أكثر سعادة من البالغين، وهم يرون أن شتات عائلة "أليسندرو" قد تجمعت منذ فترة بعيدة على طاولة واحدة، كانت البداية الجديدة لعائلة "أليسندرو" في "أرض الأحرار".

كان لعمي ماركو دور كبير في استقرار العائلة؛ لقد استضفنا في منزله الصغير لمدة شهر تقريبا. أحاول بقدر الإمكان أن أبحث عن مكان خاص بنا؛ حتى وجدت ضالتي في شقة صغيرة ثلاث غرف. كانت مناسبة لحالتنا؛ ولكنها بالتأكيد لن تناسبنا في المستقبل القريب؛ لقد انعدمت الخصوصية تماما في هذه الشقة الصغيرة في بناية كبيرة، ضمت الكثير من أبناء جلدتي الذين خرجوا في توقيت خروجنا نفسه، أو خرجوا مبكرا عنا قليلا؛ لا أكاد أحس بالتغيير، بل تحولت

البناية إلى إيطاليا الصغرى. إنني لا أكاد أسمع كلمة واحدة باللغة الإنجليزية، وكان هذا ما يعذبني ألا يكون هناك قدرة على التواصل بينا وبين الجنسيات الأخرى، ولكني لم أقلق على الأولاد، بل سوف يتأقلمون سريعا على هذا الوضع الجديد.

دور العائلات الخمس قد ظهر من أول يوم، وقد تولى أمر العائلات الجديدة هذا الشاب اليافع الذي لم يتجاوز التاسعة عشر، الذي جاء مهاجرا مع أبيه في بداية القرن وليدا، ولكنه الآن أصبح مسؤولا مباشرا عن العائلات المهاجرة، كان يسمي "السفاح" كارلوتشي، لم يكن يتورع عن عمل أي شيء يرهب به من يتطفل عن منطقته، أو أن يتأخر عن دفع الإتاوة، أو أقساط المبالغ التي تكفلت به العائلات لجلب هذه العائلات إلى "أرض الأحرار".

لم أر في حياتي أكثر من هذا استعباد؛ كانت هذه الأقساط مثل السياط التي تلهب الظهور في أيام البرد؛ لكني كنت أنظر إلى الأمر من جهة أخرى، أن أقوم بمحاولة إقناع "كارلوتشي السفاح" بإنشاء مخبز، ليقدم الخبز التوسكان الذي تفتقر إليه المنطقة بالكامل قائلا له:

"ألا تريد أن تزيد من أرباحك قليلا؟"

نظر إليّ كارلوتشي السفاح بنظرة فاحصة، ساخرا ومتهكما، كان يريد أن ينظر إلى داخلي قائلا ليّ في عدم اهتمام:

"ما الذي يدور في عقلك الصغير؟".

كنت أريد أن أصفعه حقا، لقد جبنت قبل أن أسيطر على أعصابي. إنه شخص تافه، لايستحق العناء، ولكنه في الوقت نفسه أصبح صاحب نفوذ واسع في "برونكس" عليَّ أن أستميله إلى صفي، حتى أحقق حلمي في إنشاء مخبز آخر غير الذي تركته غصبا عني. كان عليّ أن أجرب عليه الخبرات المتراكمة لدي

في التعامل مع الشخصيات المتغطرسة والنرجسية أيضا، قائلا له في مهادنة وبخبث:

"إنه أمر تافه، ولكنه يستحق منك التفكير؛ لأنك صاحب رأي سديد، فيما سوف أقوله".

كان ينظر إليَّ متفحصا، ولكنه لم ير سوى وجه ارتسمت عليه ابتسامة لا معنى لها، قائلا له في هدوء، وأمر آخر كان يعصف بداخلي على هذا المتغطرس:

"إنك تعلم بالتأكيد أن إيطاليا الصغيرة لايوجد بها أي مخابز خاصة بتوسكان".

كان ينظر إليَّ، هو لايفقه أي شيء مما أقول له، بل ذهب إلى غطرسته أبعد من ذلك، عندما كان رده ينم عن غباء مستمر على غطرسته قائلا:

"وهل هذا يفرق في شيء؟ كل ما أعرفه أنه خبز مثل أي خبز".

إنه فعلا يحتاج إلى صفعة موجعة علي وجهه القبيح؛ لا ألومه في ذلك، لقد ترعرع في هذه البلاد الغريبة، ولايعرف قيمة التوسكان أو الرنيلا، إنه ليس بإيطاليا. إنه شخص فارغ من الداخل، ولا يعرف قيمة بلاده في شيء، كان عليَّ أن أجارية حتى يو افق علي تمويل إنشاء المخبز، ولقد وصلت إلى حد التطويل معه في الحديث، حتي دخل بعض أعوانه، وبعض الرجال العجائز الذين يعلمون قيمة هذه الأشياء. كان استجداء بشيء من الكياسة مني، وهم يستمعون لما أقوله، ومدى حب إيطاليا الصغيرة لهذه المنتجات من هذا المخبز الجديد. ساعدني في ذلك بعض العجائز، وكانت وسيلة ضغط ناجحة عليه. كان إقناعه شيئا من المستحيل، ولكن بعد عدة محاولات مني، ومن عمي ماركو اقتنع أخيراً بنسبة سبعين إلى ثلاثين في المئة، يالها من نسبة مجحفة، بالإضافة إلى أقساط الدين الذي مازال على العائلة، يالها من معضلة.

الإيمان لم يتزعزع، بل زاد رسوخا في قلبي؛ كنت أعلم أنني سوف أنجح ناجحاً ساحقاً، وهذا ماحدث؛ كان عملي يبدأ قبل الفجر، وينتهي في الحادية عشرة مساء كل يوم؛ لم أتاخر في يوم من الأيام عن دفع أقساط الرحلة من إيطاليا إلى أميريكا، ولا نسبة السبعين بالمئة؛ كارلوتشي كان يبث بصاصينه على أعمالي؛ كان يعلم عن كل دولار اكتسبته، ومن الذي قام بدفع هذا الدولار، كان يعد عليّ أنفاسي؛ كان لا يعنيني في شيء، ولكن كان يجد في نفسي نوعاً من الاستضعاف لم أجربه من قبل، ولم أتعود عليه، بل كان أقرب من الإذلال؛ كان السؤال دائما يتصاعد في رأسي، لماذا يأخذ هذه النسبة، ويترك ليّ ولعائلتي هذا الفتات؟ ولكني دائما ما أراجع نفسي، إن هذا ما اتفقت عليه حتى تقوم بتسديد ثمن المخبز ومعداته، وأيضا قيمة الرحلة؛ كان بحق طريق طويل وصعب وشاق.

الجزء الثاني

أوقات عصيبة

(١)

"إن الفساد عم البلاد وخالها"   جلال عامر

يناير ١٩٩٤م

كانت الحركة غير عادية طوال اليوم، هو أيضا من أطول الشهور في السنة، وهو أيضا من أثقل الشهور لدى العاملين؛ كان بالنسبة لي سوف يكون من أسعد الشهور لدي؛ لأنه بداية الترفع في العمل والترقيات. أنا في انتظار هذا الشهر بعد أن أكملت أربع سنوات في هذا الفندق الفخم؛ طوال هذه السنوات كنت العامل المثالي لأشهر عدة داخل الفندق العريق. وهذا الشهر سوف يتم ترشيحي لترقية، وأيضا إرسالي في بعثة تدريبية إلى قبرص، في إطار من البروتوكول للتعاون الفني في مجال السياحة والفنادق. كنت أمني نفسي بالخروج، وأبحث عن فرصة للخروج من أعباء الوظيفة القديمة، إلى مجال أرحب بعد الترقية. كان السرور يغمرني بشكل غير عادي؛ كانت أيضا التهنئة من الزملاء وهم ينظرون إليّ:

"إنه يستحقها" "إنك تستحق الترفيع والترقية، التهاني القلبية لك".

إنني أفني نفسي في مجالي، إنني أحبه؛ لا أتهاون عن التعلم وتفتيح إدراكي لكل ماهو جديد في هذا العالم السحري. ناهيك عن المؤامرات التي تحاك ضدي، ولكني لا أبالي؛ لقد واجهت صعوبات كثيرة في بداية حياتي بعد وفاة والدي، أعتبر والدي . بحكم منصبه . كان سنداً ليّ. ولكن بعد وفاته لم يعد أحد ينصت ليّ؛ لا أخفي أمراً عندما كان أحد يعرف أنني أحد أبناء القوات المسلحة، وخاصة في الحرس الجمهوري، كان الكل يقف منتصبا، وكل الأبواب المغلقة تفتح على مصراعيها بدون بنت كلمة. كان الكل ينظر إليّ باحترام شديد؛ لم

يأخذ من والدي سوى مكالمة هاتفية واحدة، وكان الوعد من الإدارة أنه بمجرد تخرجي سوف أخضع إلى تدريب لمدة ثلاث سنوات، لكي أنضم إلى الطاقم الإداري في الفندق العريق. صاحب المنصب كان يخبره قائلا له:

"على العين والرأس ياسيدي لقد تم توظيفه".

لقد ذهبت أحلامي أدراج الرياح، و أنا أرى أبي راح ضحية الإرهاب الأسود في عيد النصر. لقد ذهبت الوعود أدراج الرياح، وأن أنظر إلى صاحب الوعد، وهو ينظر إليّ في سخرية، ولسان حاله يقول:

"لولا أن أباه في الحرس الجمهوري ماكان يجرؤ على تخطية هذه العتبات".

صاحب المنصب لم يقابلني، بل أرسل ليّ الساعي أن يخبرني قائلا:

"الوقت غير مناسب، ولكن إن كنت تريد العمل، فهناك وظيفة نادل في مطعم".

كانت صدمة ليّ، و أنا أرى هذا الساعي ينظر إليّ بنظرات التشافي، كان له كل الحق، ولكني ليس من الشارع، بل متعلم في إحدى الكليات التي يتباهي بها الخريجون؛ لم أكن أتسول، بل أنظر إليه لكي يمنحني فرصة بعيدة عن لغة "الواو" أقصد الواسطة. ياله من حرف، به قد فتحت أبواب مغلقة كثيرة، ولكنه أبي!. لم أتوقف عن المحاولة حتى التحقت بعمل ينظر إليه الناس على أنه من الوظائف الدنيا التي لاتليق بابن لعميد في الحرس الجمهوري! كانت هذه النظرة القاصرة التي ينظر إليَّ الناس بها، ولكني لم أعر اهتماما لأحد؛ لأنني أعلم أنني في يوم من الأيام سوف أصل إلى المكانة التي أستحقها بمجهودي فقط لاغير، وليس بحرف "الواو".

مازالت الحركة غير عادية في طريقي لاستلام عملي بعد الظهر، و أنا أنظر إلى زملائي وأرى نظرة غير مريحة، ربما أصابهم شيء من الصدمة، أو ربما قد حدث شيء ما يعكر الأمور في الصباح، كل شيء وارد في هذا العمل الذي يتعلق

بسلوكيات أو آداب المهنة. ولكن الوجوم يخيم علي الجميع، كانت هذه النظرات تخصني وحدي أنا. كان الصوت عاليا، و أنا أسمع صراف الفندق وهو ينادي عليَّ في صوت عالٍ، أن آتي إلى مكتبه علي الفور قائلاً لي:

"أرجوك يابني أن تحضر لكي تأخذ راتبك، أريد أن أذهب إلى المنزل".

إنه آخر الشهر، وميعاد صرف الراتب الهزيل؛ لقد دلفت إلى مكتبه، وهو ينظر إليَّ بنظرة حزن وحسرة؛ لم أعر اهتماما بهذا الشأن، و أيضا هو لم ينبس بكلمة واحدة بل كان يتمني لي الحظ الطيب، ولم أفهم في وقتها ما الذي يتحدث عنه. كأنه يضع بعض الأحجية في كلامه ليّ قائلاً لي:

"لا تبتأس يابني، فالقادم أفضل باذن الله".

كان المكتب مكتظاً بأفراد العاملين الذين يتسلمون رو اتهم منه، وينظرون إليّ في نظرة غريبة؛ لم أتصفح ماذا يقصدون بهذه النظرة؛ لقد استلمت الراتب منه، وبعد أن بدلت ملابسي ارتقيت السلم الرخامي حتى أذهب إلى المطعم الرئيس، وقبل دخولي إلى استلام موقعي. كان هناك من يضع يديه على كتفي، يخبرني أن مدير القسم يطلبني في مكتبه على وجه السرعة. هذه أول مرة يتم استدعائي إلى مكتبه؛ لا أعتقد أنني ارتكبت أي مخالفات طوال الأشهر الماضية، وإذا حدث لايتم استدعائي إلى مكتبه. بل يتم التوجيه عن طريق قسم العاملين(الموارد البشرية)؛ كان في الأمر خطأٌ ما، تعللت بأنني سوف أذهب لاستلام عملي، وبعد ذلك سوف أذهب إليه؛ ولكنه لم يسعفني بتكملة الأمر، بل لاحقني بكلمات آلا أهتم الآن بعملي، بل أذهب إلى مكتبه علي الفور، وعلى وجه السرعة كان . فعلا . الأمر غريباً؛ لقد أخذت المصعد إلى الدور الثاني في المكاتب الإدارية؛ كان من المرات القليلة التي اتجه فيه إلى الدور الثاني، و أنا أبحث عن مكتبه؛ هاهو مكتبه مزين بلوحة (يافطة) خشبية تتصدر مكتبه من الخارج (مدير الأغذية والمشروبات)؛ لقد طرقت الباب عدة مرات، طرقات

خفيفة حتى سمح ليّ بالدخول، ونظرت إلى وجه السكرتيرة الخاصة به، وهي ترمقني بنظرات. أخبرتها عن اسمي، واعتقد أنها قد لاحظت الاسم على الرقعة الموجودة في أعلى الصدر؛ لقد عرفت على الفور، هو أنا المقصود بأمر استدعائي، ولذلك قامت بفتح الباب لي، بعد استئذان المدير القابع خلف مكتبه، وعلى مكتبه الوثير، وهو ينظر إليّ بين الفنية والفنية، كأنه يبحث عن كلمات يبدأ بها حديثة؛ لقد أجلسني على الكرسي المقابل له؛ وسألني عن أحوالي؟ وعن عائلتي، وكيف هي أحوالي في الفندق؟ كان حديثا أكثر من ودي، قائلا لي في ود بالغ:

"كيف حالك ياسمير والعائلة؟ لعلكم بخير؟".

كان ردي عليه مقتضبا، لايرقى إلى هذه الحميمية المصطنعة قائلا له:

"الحمد لله ياسيدي، إنهم بخير".

وأنا أعلم تمام العلم أنه ليس بالسهل التحدث مع هذه الشخصية النرجسية المعقدة، التي زحف الشيب تاركا الفراغ الأوسط خاليا تماما من الشَعر، وتدلت النظارة الطبية علي أرنبة الأنف، متعللا بالأوراق التي كانت أمامه، إنه يحمل كل العقد النفسية التي ورثها من رؤوسائه السابقين، نظراته إلى الموظفين هي نظرة دونية إليهم علي أنهم (خدم) له؛ وأنهم لايستحقون ما يأخذونه من رواتب؛ بل كان الأمر من ينبس له بكلمة، أو أن ينقل له معلومة ما، عن عامل آخر أو موظف كان هذا من أصحاب الحظوة والترقيات وآيات الإعجاب والتبجيل له؛ لكني لم أقع في هذا الفخ القميء من الانتحار الأخلاقي، ربما هذا لم يعجبه لم أهتم كثيرا؛ كان حديثه عن المرجو مني في الأيام القادمة أن أبذل مجهوداً أكثر من الذي أبذله؛ أن يكون التعاون أكثر بين الزملاء، وآلا أبخل بمعلومة عن باقي الزملاء؛ حتى نصل بالفندق إلى أعلى المراتب؛ لا أخفى عليكم أنني لم أفهم شيئا مما قال. كل هذه الأشياء أفعلها بدون المجيء

إلى هذا المكتب؛ ولكن ما قد قاله بعد ذلك قد جعل الدنيا سوداء في وجهي؛ عليَّ آلا أتاخر في التعاون مع رئيسي القادم، وهو يغمض عين واحدة قائلا:

"أريدك أن تتعاون مع مديرك القادم كما كنت تتعاون سابقا"

أسقط في يدي وهو يردد هذه العبارة المبهمة من رئيسي القادم؟ أنا من المفروض أن أكون في هذا الموقع، إنني أستحق هذا المنصب كنت في منتهى العصبية قائلا له:

"ماذا؟ مديري القادم؟ كيف هذا؟! هذا ميعاد ترفيعي وترقيتي".

هذا العمل لايعتمد على الأقدمية، بل عمل يعتمد على الكفاية؛ و أنا ليّ من الكفاية، ربما كنت أبحث عن "الواو" ولكني الآن لا أبحث عنها، بل أبحث عن حقي. أبحث عن سنوات السهر والشقاء في هذا الفندق الفخم؛ لقد تخليت عن الكثير من متع الحياة، العمل في الليل أو النهار، لم تكن تفرق كثيرا معي. أصحابي من القليل الالتقاء بهم حتى يوم إجازتي لا أستطيع الخروج، بل كان عليّ الراحة من عناء أسبوع طويل، استغر اقا في استقبال أو توديع الأفواج السياحية، هو عمل مضنٍ بكل المقاييس؛ كان هناك من الحسد غير مفهموم بالنسبة لعملي؛ هو إنني أعمل في السياحة والفنادق، ولا يعلمون أن كثيرا أصبحوا دخلاء على هذه المهنة التي تعتبر من أرقى المهن؛ لأنها تعتمد علي الضيافة والكرم والابتسامة.

لقد اختفت الابتسامة التي كانت تملأ الوجه، وأصابني الغثيان من كلام هذا النرجسي، الذي أصابني في مقتل، وهو يخبرني أن ترقيتي سوف تتأخر قليلا، ربما إلى شهر يوليو القادم. محاولا خداعي مثل الكثير الذين تم خداعهم من قبل، قائلا لي في هدوء:

"لا تنزعج هكذا، أيام وسوف تكون في مكان أفضل".

لقد أصابني في مقتل، بعد أن باح بما في صدره من ضغينة ليّ: لم يكن هناك عنده من الاستعداد لكي يقف بجانبي في تدعيمي. إنني أستحق هذه الترقية بعد هذه المعاناة الطويلة؛ لم يكن عنده من الاستعداد لكي يقف بجانبي مثل "بصاصينه"؛ ليس عنده استعداد، بل على استعداد بالتضيحة بي، في سبيل عدم تعرض كرسية للإزاحة. عليه أن يحافظ على كرسيه؛ ومن هذا الذي سوف يعكريومه؛ أنا لا أجرؤ علي تعكيرصفو يومه، حتى وان كنت أنا.

كان خروجي وقد أصابتني الدهشة والحزن والسخرية، كانت كلها مشاعر متناقضة تماما؛ لم أدرك كيف خرجت من مكتبه، أو النزول في المصعد أو ذهابي إلى المطعم الرئيسي، وأن أنظر في نظرات شاردة، والسؤال كيف يحدث هذا؟ كنت أكثر حرصا من الآخرين على التعامل مع الآخرين في كل الأمور التي تخص عملي وعمل الآخرين. ولكن كان الأمر يتوقف على أن أكون من البصاصين، وأن أهمس في أذنيه بين الحين والحين؛ لقد وجدت نفسي داخل المطعم الرئيسي ومديري المباشر، وهو يضع يده على كتف شخص! إنني أعرفه، إن هذا الشخص من مشرفي خدمات الغرف؛ وهو يعلن أنه قد تم نقله من خدمة الغرف إلى قسمنا؛ لقد تصارعت الأسئلة في رأسي على وجه السرعة ومن هذا؟ إنه لا يعلم عن هذا القسم شيئا؛ حتى لغته الأجنبية ليست على المستوى المطلوب؛ ما الذي فعله لكي ينتقل إلى هذا القسم؟ ربما كانت معلومة تساوي نقله إلى هذا القسم؛ بالتأكيد هذا ماحدث، لقد نقل معلومة ذات قيمة، ولذلك هو يستحق هذه الترقية؛ ومن المعروف عن هذا الشخص أنه مجامل فوق الوصف، أو كما يقال عنه (حلو اللسان) يعرف من أين تؤكل الكتف؛ كان الوجوم قد أصابني، وأنا أنظر إلى الشخص الذي أخذ مكاني بدون وجه حق؛ كان خروجي عن شعوري لايوصف، وأن أسب الجميع بأقذع السباب، وهم ينظرون بدهشة عارمة! كيف يصدر هذا السباب من هذا

الموظف المثالي على مدار الأشهر الماضية؟ لقد أصابني الغضب العارم، وأنا أفضح "مديري القادم في سباب علني قائلا:

"إنه الفساد بعينه، ما الذي تعرفه عن الطعام والشراب؟ عملك فقط كان يقتضي تغيير الشراشف (أغطية السرايرِ)، وإحضار مسحات الوجه ليس إلا. ما الذي فعلته لكي تنال هذا الشرف السامي؟".

لقد سكت فجأة بدون إبداء أسباب؛ لم أدرك مايحدث لي عندما بدأت في التخلي عن الملابس الرسمية، لم أعبأ بما يحدث، بل كان الغضب قد أصابني، وأنا أخرج من ملابسي، تاركا المكان خارجا من "الفندق الفخم" ألعن كل من أقابله.

لم تتغير الأمور كثيرا بعد تركي "للفندق الفخم" لقد ذهبت إلى شرم الشيخ "مدينة السلام" حيث الجو الرائع، والشمس المشرقة، والخضرة، اجتمع فيها الأمور الثلاثة "الماء والخضرة والوجه الحسن"، كان إحساسي بالصفاء يغلب عليّ حتى عند التمشية الطويلة على الشاطئ الممتد في وقت غروب الشمس، ونزول هذا القرص الدامي في عرض البحر، وهو يرسل بالأشعة الدافئة له، مع آخر رمق في النهار. إحساس رائع بالأمان، وهي بالفعل مدينة السلام الداخلي، والراحة الداخلية من غسيل الهموم المعلقة علي أكتافك في هدوء. بعيدا عن ضوضاء المدن، ولكن كان لزملائي رأي آخر في مدينة السلام. إنه بالنسبة لهم كانت تسمى مدينة "عواجيز الفرح" لابأس بهذا الاسم، والبعض يحلو له أن تسمى بهذا الاسم. لم يختلف الوضع كثيرا. الوضع لايوجد به الكفاية أو الاجتهاد! كله يتعلق بمقولة زميل غرفتي "كله بالحب" قائلا ليّ في ألم واضح:

"معيار الكفاية لا وجود له في معجم النزل الفخمة، ولكنه تأتي في مرتبة الجمائل، لايوجد معيار الكفاية هنا، بل يخضع الأمر كله إلى "تفتيح الدماغ". كان الأمر سيئا لقد كرهت الوضع، كنت أريد فقط حقي، ولكن متى كان هذا

هو الوضع، و أنت ترى أن المدينة أيضا قد تحولت فيه إلى مستعمرة مغلقة، عليه وعلى الحاشية؛ كأنها أصبحت من الإقطاعيات داخل الدولة! تقتصر فقط على أصحاب الحظوة وعِلية القوم والسائحين؛ كنت أريد أن أظل في هذا المكان، الذي لايقل عن روعة أي مكان في الدنيا؛ ولكنها أصبحت ثكنة عسكرية؛ بسبب وجوده الدائم في هذه المدينة؛ لقد ترك القاهرة واستقر تماما في "شرم الشيخ".

كان الأمر لايعنيني في شيء، كنت أريد أن أنظر إلى مستقبلي بشكل آخر: كانت تلميحات "نبيل" ليّ بعد اليأس أن أبحث عن نصف سمير الآخر، هناك واحدة من "عواجيز الفرح"؛ كانت ثورة عارمة من نوال، وهي تصيح في وجهه بهذا الاقتراح السخيف، لقد نظرت إليَّ عدة مرات قائلة له في حدة:

"اتركنا في حالنا يا "نبيل" لا نحتاج إلى نصائحك الغالية".

كنت أنظر إليها "ولو كل نساء العالم" كان هذا يثلج صدرها؛ كان الوضع مختلفاً، تكريس الوقت كله كان في استقبال الآلاف وتوديع الآلاف؛ كان العمل المضني لاينقطع بالمرة؛ كانت المدينة في أوج مجدها. كانت المدينة لاتهدأ بالمرة كانت لاتنام؛ الكل كان مستيقظاً؛ العيون المفتوحة ولا أخفى سرا، لقد انغمست في العديد من العلاقات بحكم عملي؛ لم يتوقف فقط على الإعجاب، بل الانغماس أكثر في علاقات لاتنتهي. وكانت دائما ما تنتهي بانتهاء الإقامة والزيارة؛ لقد تبادلت معهن أرقام التليفونات والعناوين، وكانت كلها مزيفة، إنني ليس في استطاعتي التخلي عن "نوال"، على الرغم من ارتكابي لهذه المعاصي التي لاتنتهي؛ كنت دائما حريصاً ألاتعلم بشيء عن علاقاتي السرية، وكنت دائما أتحاشى النظر إليها حتى لاتفضحني نفسي، بما أقوم به في السر. لقد كنت أحتقر نفسي إلى أقصى درجة؛ كانت كلها علاقات قائمة على عدم المصارحة، وهي كانت قائمة على الكذب دائما، لا يوجد بها أي نوع من الصدق.

كان الكل على هذه الحال، الكل يخدع الكل. إنهم يبحثون عن المتعة الحرام في وقت زيارتهم، والآخرون يبحثون عن مخرج لهم من هذه الساقية التي لاتنتهي. لقد انتهت بعض الزيجات بزواج أحدهم ممن هي أكبر منه بأضعاف عمره، ولكن كانت هي تذكرة سفره إلى خارج "مدينة السلام" كان الهدف واضحاً، والاستغلال صريحاً لايوجد به مواربة. كانت الأخبار مفزعة، على الرغم من بعد المسافة مابين شرم الشيخ والغردقة؛ إلا أن أخبار طعن السائحين في هذا الفندق القابع في الغردقة، قد ألغى عدة حجوزات في شرم الشيخ، على الرغم من أن هذه الحوادث تحدث في كثير من دول العالم؛ إلا أن مصر تختص بهذا الزخم، ويجعل من مصر كأنها قبلة للإرهابيين وأنها بمكان غير آمن.

كان الفزع كبيراً بين السائحين؛ كان الإفطار في غاية التوتر، و أنا أرى فزع السائحين في أعينهم؛ لقد ترتب على هذا الحادث الكثير من إلغاء الإجازات في "مدينة السلام" على الرغم من بعد هذه المدينة؛ كان صوت أمي فيه شيء من الرعب، وأن أتصل بها لكي تطمئن؛ كان صوتها يشوبه نوع من الفزع اللانهائي. كان إلحاحا واضحا منها قائلة لي في فزع: "فليذهب العمل والغربة إلى الجحيم؛ كيف تجعلك الغربة تغيب عن نظري؟".

كان هذا إعلاناً واضحاً منها، لماذا نتغرب داخل بلادنا من أجل ماذا؟ كنت أحاول أن أشرح لها أن "شرم الشيخ" ليست بالغربة؛ كانت تذكرني بأن من يخرج عن بيته لمسافة أكثر من ساعة فهو في غربة؛ لقد فشلت في الشرح لها؛ كان الإلحاح واضحاً أن أترك شرم الشيخ، مادام حلمي لم يتحقق. وقد كان لها ما أرادت بعد نقاش طويل. لم تتركني قبل أن أوعدها أن أترك شرم الشيخ، وأن أرجع إلى القاهرة، قبل أن تغضب عليّ. كان الوضع غريباً، ولكن لامفر بعد أن تم الاستغناء عن عدد من العاملين بمجرد وقوع الحادث في الغردقة.

سنة أولى نصب

(٢)

"اليأس هو معاناة منقوص منها المعنى" فيكتور فرانكل

أبريل ١٩٩٤م

"تعلن شركة الطائر عن فتح باب الهجرة إلى كندا وأستراليا ونيوزيلندا مع الممثل لهذه السفارات في القاهرة من الفترة ...... إلى...."

كان هذا الإعلان يثير الشهية والقراءة في صوت عالٍ عن بقية تفاصيل الإعلان في الجريدة الغراء، وهو يثير فيّ الأمل مرة أخرى، وأنا أتذكر في لمحات طويلة مملة، ذكريات مؤلمة، الصفعات تتوالي، وهي التي لم تتوان على وجهي، منذ أن أخذ شخص آخر مكاني، كنت طوال الأشهر الماضية في ركن واحد، تتوالى عليَّ الصفعات واللكمات بدون رحمة؛ كان مدير القسم لايتواني عن توقيع العقوبات عليَّ بسبب وبدون سبب. كانوا ينظرون إليَّ على أنني سبب الشقاء على هذا القسم؛ كان لايتورع عن توقيع أي عقوبات مالية بمجرد التفوه بكلمات لا تأتي على هوى بصاصينه؛ لقد اشتكيت كثيرا بسبب تعنت هذا النرجسي! ولكن لا أحد ينصت؛ حتى المدير العام للفندق، لاينصت لما أقوله، بل كان يتحاشى أن ينظر إلى وجهي؛ حتى الابتسامة قد اختفت عن وجهي، لم يعد لي مكان في هذا البلد مرة أخرى؛ كان عليّ البحث عن فرصة لي؛ لن تكون الدول العربية أحسن حالا؛ كل الأمور تتشابه مع بعضها البعض، النرجسية في كل مكان.

كان جرس الهاتف الرمادي يرن على الطرف الآخر، وصوت نسائي رقيق يخبرني أنه قد تحديد ميعاد مع الممثل القانوني للهجرة في هذا العنوان، وأن أحضر كل ما يخصني من أوراق وشهادات قائلة ليّ على الطرف الآخر في صوت ناعم:

"السيد "سمير" لقد تحدد ميعاد المقابلة مع الممثل القانوني في تمام الحادية عشرة، برجاء إحضار جميع أور اقك".

كان الأمر يثير في نفسي الأمل والمخاطرة، كنت على استعداد للمخاطرة بدون تردد. يكفي ما أعانيه من صلف وعناد، وعدم الردع فيما يفعلونه معي من إجراءات تعسفية بدون وجه حق. كان عليَّ البدء في التحرك حتى لا أصاب باليأس في إصلاح أمري، كان الأمر يتطلب الشجاعة، و أنا لم أرث الجبن من والدي، بل عليّ أن أستجمع جينات الكرامة والشجاعة التي ورثتها من أبي. المكتب مكتظ من شباب كثيرين في مثل عمري، ومن آخرين أكبر مني في العمر، و أيضا شابات. ما الذي يجبر هولاء على ترك هذه البلاد؟ إلا أنهم مثلي تماما، قد أصابهم الإحباط واليأس من الأوضاع المتردية. إنهم إن كانوا يعملون في هذه البلاد، فهم بالتأكيد لديهم في كل مكان شخص نرجسي، يعكر صفو الحياة. أو إنهم لا يستمتعون بحياتهم، مثل باقي البشر الطبيعيين. عليهم أن يهاجروا إلى بلاد أبعد؛ حتى يتم تقييمهم بشكل أفضل مما في بلادهم، وأن يحيوا حياة أفضل من هذه. كانت العبارات من كل هؤلاء لا تخلو من الأمل والرجاء. وكنت أستمع لهم، قال أحدهم في نبرة حزن وترقب:

"حاولت كثيراً مع السفارة الأسترالية؛ العائلة متواجدة هناك، وفي كل مرة يرفضون لماذا لا أعلم؟ ربما أجد الحل هنا".

وآخر يتحدث بصوت مبحوح أنه قد حاول الطرق على أبواب السفارات؛ حتى يحصل على فرصة للهجرة، ولكن لاجدوى على الرغم من أنه مهندس معماري، كانت نبرة أمل مع خوف قائلا:

"مهندس معماري لم أحظ بفرصة جيدة إلى الآن، واذا وجدت الفرصة فالمقابل غير مجزٍ، الهجرة كلها إلى بلاد الله".

كان الجلوس وسط كل هؤلاء يبعث على الاطمئنان، حتى كان موعد دخولي إلى هذا الممثل القانوني، خلف هذا المكتب الكبير، وبجواره سيدة يبدو أنها أجنبية، فهي تكتب باللغة الإنجليزية، وتعطيه بعض الأوراق وينظر إليها، ويكتب عليها، ثم ينظر إليّ مرحبا، ويدعوني إلى الجلوس على الكرسي المقابل من الجهة الأخرى من المكتب، قائلا بعد الترحيب والسلام عليّ:

"اتفضل يا مستر سمير".

يتحدث إليّ في كلمات قصيرة من اللغة العربية، ثم يغلب على الحوار جمل طويلة باللغة الإنجليزية، وهو ينظر إليّ من بين الحين والحين. لقد كتبت وملأت استمارات كثيرة، وهو ينظر إلى شهادة التخرج، وشهادات الخبرة، ثم عرض عليّ أن الفرصة المتاحة أمامه في الوقت الحالي هي أستراليا. لم أمانع، بل أخبرته أستراليا أو بلاد الواق الواق لاتفرق معي؛ بل عليّ أن أخرج من هذه البلاد سريعا اليوم قبل الغد. كان ينظر إليَّ مع ابتسامة تملأ وجهه. كان آخر تعليماته أن أحضر مبلغا من المال بالدولار، هو ليس بالكثير، ولكنه غير متاح أمامي، وأعطاني مهلة أسبوعين، حتى يبدأ في الإجراءات. كان كلامه مقنعاً ولايرقى إلى الشك. كان هناك من يستطيع أن يساعدني في هذا الأمر صديق الطفولة "حسام الطائر" إنه حاليا في القاهرة؛ إنه من أغنياء المعادي، وهذا المبلغ ليس في استطاعتي، بل يستطيع تدبير المبلغ لي بدون أدنى إرهاق له، وهو لن يمانع عن مساعدتي؛ لقد خرجت بنصف أمل، وأنا أذهب إلى بيته في المعادي؛ كان مرحبا بي في سرور بالغ، وهو يرى صديق طفولته أمامه، هذا الجسد النحيل وإن احتضنته أكاد أكسر ضلوعه؛ لقد حكينا الكثير عن أيام زمان، كأنها منذ زمن طويل؛ لقد أخبرته بمعضلتي في خوف من رفضه قائلا له:

"أنا محتاج ١٥٠٠ دولار يا "طيار"، وأنت الشخص الذي أستطيع أن ألجأ إليه".

أخبرني في منتهي الصراحة أن هذا المبلغ بالدولار لايمتلكه في الوقت الحالي، ولكن من الممكن أن يكون بالجنيه المصري، وعليّ أن أقوم بتغيره للدولار من أي بنك، أو أي كشك في السوق السوداء. كان حديثة صادقا عندما ذهب إلى درج مكتبه، وسحب كمية من النقود، وأعطاها إليَّ بدون شرح، قائلا لي في لحظة حزن:

"لا تؤاخذني "ياسمرة" من الممكن تغييرهم إلى دولارات".

كان الأمر يوجد به مخاطرة، وخاصة أن البنك يخسف بأي مبلغ الأرض، فعليَّ أن أدبر حالي مع أي من أكشاك السوق السوداء المنتشرة حول ميدان التحرير. كان الأمر جديراً بالمخاطرة؛ لقد بحثت طويلا عن أفضل الأسعار، حتى كان نصيبي في أحد الأكشاك الذي وعدني بأحسن سعر، وكان لي ما أردت. بمجرد تسلمي المبلغ وجدت من يضع يده على المبلغ:

"البيع خارج البنوك المعتمدة جريمة يعاقب عليها القانون".

كانت هذه جريمتي أن في يدي عملة أجنبية؛ كان الضابط قد اصطحبني إلى قسم قصر النيل؛ لعمل محضر بهذه الواقعة؛ لقد طلب مني صراحة التنازل عن المبلغ لصالح وزارة المالية، أو أن يكون مصيري قضية، ومن الجائز الحكم عليّ، كان الليل طويلاً عليّ، ولم أصدق نفسي إلا عندما آتى أخي الأكبر "علاء" بملابسه الميري؛ في ملابس الجيش، وهو يدخل على ضباط القسم لشرح الأمور لهم في روية، كان حديث "علاء" لهم في هدوء قائلا لهم:

"هذا أخي وهو جاهل بالقوانين، لايعلم أنها جريمة! اعتبرواً الأمر كله خطأ حتى لايضيع مستقبله".

كان تأثير لباسه الميري عليهم غريباً! في محاولة منهم أن يخبروه، أن مافعلته هي جريمة يعاقب عليها القانون، كان ضابط الشرطة أكثر هدوءاً وهو يقلب في بطاقة التعريف الخاصة بأخي قائلا له:

"هذه جريمة يا "باشا" يعاقب عليها القانون؛ ولكن مادام سوف يتنازل عن المال من الممكن التغاضي عن القضية كلها".

ولكن بما أنه سوف يتصالح في المبلغ، لن يكون هناك تحقيق أو قضية؛ كان الأمر في غاية الغرابة، أن يأخذوا أموالي مقابل عدم تحريك القضية! لا إني أريد أموالي، وعليكم أن تحركوا القضية، كنت لا أبالي بما سوف يفعلونه، كان صوتي في منتهى الانفعال عليهم قائلا لهم:

"أنا أريد مالي فقط، وما سوف تفعلونه بي لا يهمني في شيء، لايوجد مايهمني الآن".

لقد كان الرد عنيفاً من أخي الأكبر، وهو ينظر إليّ في نظرات الغضب، ألا أكون غبيا حتى إن كنت أبحث عن فرصة للهجرة، سوف تكون هناك سابقة مع القانون، وهناك صحيفة الحالة الجنائية أي "فيش وتشبيه" لمثل هذه الحالات. عليّ آلا أضيع نفسي في هذه الدوامة؛ كان التقريع عنيفاً ليّ، كان صوت أخي قد وصل إلى عنان القسم وهو يصيح فيّ قائلا:

"اصمت قليلا يا "سمير" إنك لاتعلم ما أنت متورط فيه، الأمور كلها أصبحت رأساً علي عقب، يكفينا هذا".

لقد أسكتتني كلماته، وهو يحاول إسداء النصح ليّ، بعدم الكلام. وأخيرا و افقت على التصالح؛ حتى لايتم تحريك الدعوة القضائية؛ كان علي تدبير مبلغ آخر.

وفي هذه المرة أعطاني"علاء" هذا المبلغ؛ حتى يساعدني في أموري، على الرغم من أنه غير متأكد من هذا الأمر، إنني أسعى إليه، بل كان يحب أن أتريث قليلا؛ حتى أتاكد من الأمر كله، ولكنه وجد أن هناك رغبة عارمة في صدري، لكي أنفذ ما أريده، كان هذا الأمر بالنسبة له يبعث على القلق، ولكن أمام رغباتي لم يجد مفرا من تلبية طلبي. أراد أن يذهب إلى هذا المكتب، وأن يتحري عنه، لم

أمنعه، ولكن هذا قد استغرق وقتاً طويلاً، بعد أن أعطيت الممثل القانوني مبلغ وقدره ألف وخمسمائة من العملة الخضراء، مع تقديم إيصال مختوم من المكتب عليّ. آمل أنهم سوف يقومون بالاتصال بي في أقرب وقت، خلال الأسبوعين القادمين، كان أمر يبعث على الأمل، و أنا أرى الجدية من أصحاب المكتب؛ حتي جاء أخي "علاء" في إحدى الأمسيات، وهو يحمل الجريدة الغراء نفسها، فاتحا إياها علي خبر "هروب نصاب بمبالغ مالية كبيرة بدعوة الهجرة..." تفاصيل الخبر تحمل الكثير من الأخبار المزعجة. إنه العنوان نفسه، الهيئة نفسها، الأشخاص أنفسهم؛ جاري البحث عنهم، الذين استولوا على مبالغ مالية كبيرة من السذج أمثالي؛ كنت أضحك و أبكي! كان هناك من يشق صدري بسكين صدئة، كنت أبكي بكاء مراً مع ضحكات مستفزة ناظرا إلى أعلى قائلا: "يكفي هذا يارب، لماذا تعاقبني؟ ما الذي فعلته؟ اتركني يارب..".

مرحبا بنكبات الدهر. أهلا ومرحبا بكل من يرمي إنساناً يائساً بحجر في وجهه؛ كان بكائي لايصدقه عقل، و أنا أرى أخي الأكبر ينظر إليّ نظرات شفقة، متحسرا علي الأموال التي أخذتها منه! كان ينظر إلى الأمر على أنه عبث، لم ينظر إليه على أنه طوق نجاة ليّ؛ لم ينظر إليّ على أنني اختنق في وسط بلادي التي جعلتني غريبا حتى داخل نفسي! أنا أصبحت غريبا داخل وطني؛ غربتي داخل نفسي جعلتني أكثر ارتباكا من الإمبراطور "كاراكلا" بذاته، إنني أعاني من انفصام في غربتي، إنها وطني وليس بلادي "التي أصبح خيرها لغيرها"، أصبحت غريبا في داري؛ الغربة قد تغللت في نفسي، وإذا كان الأمر كذلك، فليكن الخروج من هذه العباءة إلى الأبد، بدون أدني تأخير؛ لقد أصبح بكائي نحيباً، حتى كان احتضان أخي ليّ في حنان الأب، بدون تردد في حنان واضح قائلا لي:

"لقد جننت يا "سمير" إنك تكفر الآن، لا تقلق سوف تأتي الفرصة".

ولكن كان أيضا حسرة في نفسي، وهو يرى أخاه في هذه الدوامة التي لاتنتهي.

بداية الهجرة

(٣)

"لقد ازدهرت أرضنا؛ لأنها ارتوت من مصادر متعددة؛ لأنها تغذت من الكثير من الثقافات والتقاليد والشعوب"

أول رئيس أميريكي، جورج واشنطن.

أكتوبر ١٩٩٥

"أقسم بالله العظيم أن أحافظ مخلصا على النظام الأسري؛ وأن أحترم السلطة والمال؛ وأن أرعى مصالح الحاشية رعاية كاملة؛ وأن أحافظ على استقلال أسرتي وسلامة أموالي".

جعلت الكلمات المحرفة في قسم رئيس الجمهورية قلب "سمير" يستشيط غضبا من أقسم لفترة رئاسية ثالثة، وبعد مرور عامين من الست السنوات لم يحافظ على أي من الوعود التي قطعها علي نفسه! لقد حافظ علي نفسه فقط وحاشيتة المبتدعة. حان وقت الرحيل عن هذه البلاد، كان حديثه موجها إلى التلفاز، حيث كان قسمه أمام نواب مجلس الشعب وهو يحدثه قائلا:

"يكفي هذا، يكفي ما تفعله، لقد ضجت الناس! إن طعامهم أصبح يأتي من القمامة!".

"سمير" من أوائل الذين تقدموا إلى الهجرة العشوائية؛ دعا كثيرا في صلاته أن يوفقه في الحصول علي مبتغاه، وها هو اليوم قد تحقق له ما أراد. تم تحديد اليوم الموعود لإنهاء جميع الأوراق المتعلقة بهجرته إلى أصحاب النسر الأصلع، أصحاب النجوم الخمسين، أرض الأحلام، أرض الفرص؛ أرض المساواة، أرض الأحرار، أرض..... . في نفسه كلها أرض الله. الأحلام التي ترابض على مخيلته حان وقت الطيران؛ الأحلام لم تفارق رأسه، الذي تعلل كثيرا بأن

الفرص قد عدمت تماما بعد تخرجه من كلية السياحة والفنادق. لقد حاول كثيرا أن يجد لنفسه فرصة حتى يحقق طموحه المستعر في رأسه. الخطيبة المنتظرة، خريجة كلية الهندسة "نوال" التي انتظرته، وتركت له الخطوة الأولى، وقد فعلها في حفل كبير، بمباركة والدها الذي تكفل بإقامة الحفل في إحدى قاعات واحد من فنادق القاهرة في حضور الأصدقاء والأقارب، والحلقتان قد زينا الأصابع بمباركة أمه، التي أعطتها سلسلة ذهبية: هدية منها. وأخيه الأكبر"علاء" الذي تزوج قبله في حضور الأب الذي لم يره منذ حادثة "المنصة"، لقد قضي نحبه في هذا اليوم المشهود بأنه احتفال بنصر أكتوبر١٩٧٣م، لم يرجع والده إلى بيته في هذ اليوم كما هي عادته، عميد الحرس الجمهوري المتقاعد، المدعو من أصدقائه لحضور الاحتفال. لم يرجع للاطمئنان على أسرته في هذا اليوم، بل كان جثة هامدة علي أرض المنصة أربعة عشر عاما مضت.

تأنق في هذا اليوم: كان يسمع طوال الليل بكاء أمه: حاول طوال الليل أن يقنعها أن ما يفعله هو الصحيح، قائلا لها عدة مرات في نبرات الفرح والحزن معا:

"إن أبسط حق من حقوقي لا أستطيع أن أحصل عليه، لقد ضاقت هذه الأرض بي، أريد أن أحيا حياة كريمة، حتى وإن كانت في الكوكب الأحمر".

إنه لم يعد له مكان بعد أن ضاقت كل السبل في الحصول على حقوقه الدنيا في الحياة: لايستطيع الزواج: لايستطيع أن يوفر حياة كريمة لزوجين يبحثان عن الاستقرار: المجال أصبح أوسع لأصحاب الرقص: الرقص "بهز الوسط" أو رقص "الأقدام" ورقص جديد ظاهر على الساحة بأشكال فاضحة، وهو رقص "الألسنة": لايستطيع أن يدبر أمره، بعد أن يولد طفل له أو اثنان: الاقتصاد المتحول من اقتصاد حرب، إلى اقتصاد استهلاكي نفعي، لم

يتغير بل السلوكيات قد تحولت إلى قدر مقيت وقمئ من السفالة والبجاحة المستترة وراء سطوة المال، التي أتاحت لأصحاب المال فرض و اقع للسوق، وأصحاب المصالح العليا.

الزواج الأرثوذكسي بين المال والسلطة قد تعفن تماما، والرائحة تزكم الأنوف؛ لايستطيع مجاراة الو اقع المر؛ حاول كثيرا أن يقنع "عزة" بأن مايفعله هو الصح، لم تقتنع، بل أصابها السهد، ولم تستطع النوم، وألقت في طريقه "خطيبته السابقة"؛ لعله يتراجع، بل وجدت "سمير" لايلقي لها بالا؛ لكنه يحس بغضاضة الأمر في حلقه؛ لايستطيع البوح بما يجول في نفسه؛ القرار كان قاسيا على نفسه في حالة الانفصال. لم يتراجع عن قراره، بل أصر عليه قبل معرفته بأمره في هجرته المنتظرة، كان يضع الحلقة الفضية من أصبعه إلى يد "نوال" قائلا لها في حسرة مع ضحكة يأس فاضحة:

"لا أستطيع أن أكمل يا "نوال" المشوار أصبح ثقيلا! أنا حالة من الفشل المزمن".

لم يستطع أن يحلم في هذا الجو الملبد بغيوم لا أمل في انقشاعها؛ سوف تلتقي بمن يقدرها ويحتضنها. من تستطيع أن تغرق الدنيا برقة مشاعر وحنان ما بعدها مشاعر. أنا لا أستحقها. إنها تستحق الأفضل مني؛ لم يردعني ما كانت تخبئ لي من مفاجآت؛ أخبرته عن نفسها؛ ابني الأصغر سوف يهاجر بدون رجعة، وهي تعلم ذلك تماما. كم هي المعاناة التي تغلغلت إلى نفسه، لقد حاول بشتى الطرق والسبل النجاح في بلده. الأبواب كلها مفتوحة، لكن أغلالها تكبل الإنسان إلى الأرض بدون شفقة؛ تجعله في ساقية دوارة، ودوائر مفرغة مفزعة؛ من الذي سوف يقبل عزائي؟ سوف تكون بعيدا عني، ولن أستطيع أن ألقي النظرة الأخيرة عليك لكي أطمئن أنك بخير، واستطعت أن تحقق ما

تريده؟ أين سوف تكون من عزائي؟ سوف تكون بعيداً، كان هذا كلاما موجعا، وهي تحدثه والدموع تملا عينيها:

"من الذي سوف يقوم بحمل جثماني؟ وأخذ عزائي؟".

تحجرت الدموع في مقلتي، وجلس إلى جوارها، وهو يحتضن رأسها بين كفيه؛ يحاول أن يكفكف دموعها المنسدلة. يخبرها أنه ليس آخر المطاف، بل هي ربما هذه المقابلة نوع من الرفض لهجرته المزعومة؛ ابتسم ابتسامة رقيقة في وجهها لعلها تهدأ، وهو يعلم أنه يكذب عليها قائلا لها:

"من الممكن أن تكون مقابلة لرفضي، مثل بلدي التي رفضتني!"

المقابلة هذه لمنحه أوراق الهجرة، وأوراق تساعده علي التغلب على المشكلات الأولى التي سوف يواجهها أي مهاجر جديد في أرض "الأحرار".

حاول أن يطيب خاطرها؛ إنها هي سبب وجوده في الحياة، ولاغني عنها قائلا لها في حنان بالغ:

"يا أمي ليس إلا سواكِ وأخي علاء".

وهو يداعب خصلات شعرها المنسدلة من تحت غطاء الرأس، ويسألها وهو يضع رأسه في حجرها، وأولادي من سوف يقوم بتربيتهم؟ أليس أنت الجدة التي سوف تتحمل المسؤولية؟ سوف أترك الأولاد لديك، ولن أستطيع أن أقوم بالتربية معتمدا علي أمهم فقط. أنت لك الدور الأكبر. لم يشف صدرها إجابته قائلة له في لوم:

"إنك تستخف بعقلي، سوف تكون أجنبية، ولن أستطيع أن أتفوه معها بكلمة، سوف أصبح خرساء معها".

حاول أن يقنعها أن أمر زواجه ربما يأخذ سنين قبل الإقدام على هذه الخطوة التي تحتاج إلى أموال، وهذه الخطوة ليست بالأمر اليسير.

قائلا لها في تعجب واضح:

"هل أنت تعلمين الغيب والمجهول؟ أترينهم في صفوف الآن للزواج بي؟.

وهي تعلم تمام العلم، بل اليقين أن الذي سوف يربي أولاده أم أجنبية، بملامح بيضاء، وعيون زرقاء أو بيضاء، لا تهم التفاصيل الجسمانية والملامح الغربية، بل سوف تربي الأولاد أم أجنبية الطباع، لاتعرف صلاة أو صوما، هي تعلم أن هجرته أبدية، لن يرجع مرة أخرى حتى يحقق أحلامه التي رسمها لنفسه منذ أمد بعيد. لم يجبره والده "عميد الحرس الجمهوري" أن يدخل الكلية الحربية، حاول إقناعه؛ لم يفلح في مسعاه في محاولة إقناعه بالانضمام إلى الكلية الحربية قائلا له:

"الجيش هو المستقبل".

كان رده فيه شيء من الحقيقة، إنه بعيد عن الحياة العسكرية؛ لم يتخيل نفسه في مشية عسكرية، أو يلقي التحية منمقة ومنضبطة لرتبة أعلى منه. إنه ليس بالنرجسي. إنه يريد أن يبتعد عن القيود التي تكبله، حتى وإن كانت عسكرية، قائلا له في مرح واضح:

"أنا وأخي في الجيش سوف تكون جلبة واسعة".

والده لم يفلح إلا مع أخيه "علاء"، الأخ الأكبر، وهو يرى أن النجوم قد علت كتفه في حفل زفافه مع الموسيقى العسكرية.

أربعة عشر عاما مرت على وفاة الأب؛ لم يتغير الوضع منذ ذلك الحين، بل كل شيء برتابة؛ لا توجد ذرة من الأمل في الآفاق؛ لم يعد مثل أخيه "علاء" القانع بوجوده في دولاب (نظام) العمل الروتيني! لايوجد اهتمامات أخرى لأخيه، سوى حضور دورات تدربية هنا أو هناك، أو حضور دفعة لقادة الأركان، أو قضاء بعض الأيام القليلة في إجازة على إحدى شواطئ المحروسة.

إنه على موعد معه اليوم، بعد أن حاول إقناعه بألا يرهق نفسه في المجئ معه إلى السفارة، مشفق عليه قائلا له:

"أرجوك ياعلاء، ألا تترك أمي في هذه الظروف سوف تحتاج إليك بشدة".

لم يفلح بل زاد إصراراً على المجيء معه، وكان هذا الكلام بتوصية من أمه في محاولة إقناع "سمير" بالعدول عن فكرة الهجرة، قائلا له في مرح واضح:

"كيف يذهب أخي وحيدا إلى سفارة بلاد العم سام وليس له حماية".

وهي تحدث نفسها أن هذا من المستحيل أن يتراجع ابنها عن أحلامه، هي محاولة وإن كانت ضعيفة.

تنظر إليه بعد أن أخفقت كل الحيل في إقناعه؛ عليها الآن أن تلقي بآخر سهم من جعبتها؛ لعله يتراجع، وأن يتحسس أنه سوف يفقد الكثير في ابتعاده عنها؛ تتحسس الكلمات لا تتطوعها، بل هي كلمات قاسية لتزيد من ارتباكه؛ لكن في سبيل البعد عن المجهول سوف تفعل أي شيء حتى وإن كان قاسيا. وو اقع الأمر هو مرير على نفسها. الموت أرحم من رؤيتك و أنت بعيد عني، قائلة له في شجن واضح:

"الموت أهون من أن أراك بعيدا عن عيوني".

أسقط في قلبه، وهو يقف أمام المر ايا الطويلة، ويعدل رابطة العنق، وهو يسمع آخر محاولات أمه في ردعه، لم يتوقف ناظرا ناحيتها، وهو يعلم أنها تحاول أن تثنيه عن هجرته؛ اقترب منها مرة أخرى وهو يقبل يديها في قبلات سريعة، قائلا لها في حنان الابن:

"كيف تتفوهين بهذا الكلام يا أمي؟ ليس لي إلا سواك".

وجلس إلى جوارها، يحاول ألا يبدو عليه الضيق أو الامتعاض على وجهه حتى لاتصاب بالضيق من ردة فعله الباردة الجامدة، يعلم أنه ربما يبدو قويا، ولكن قلبه يتمزق، ما الذي يجبره على هجرة أمه، وهجرة الشارع وبلده الذي تربى

فيه، و أقرانه الذين طالما كان لهم صولات وجولات معه في المعادي، "نوال" أيام الشقاوة والزوغان (الهروب) من المدرسة، حتى يلتقي بها علي كورنيش المعادي؛ البحث عن مركب "صابر"، فسحة في النيل، ورسم الأحلام على صفحة الماء، لا يوجد ما يعوض هذه الأيام، لماذا تحاصرني ياأمي بكل هذه الادعاءات؟ وأنت تعلمين أن الأعمار بيد الله، حتى لو أحاط به أهله؛ لعل "علاء" أخاه أن يقنعه بالعدول عن الهجرة؛ هي الفرصة الأخيرة قبل العدول. إن أفكاره المجنونة هي المحاولة المستميتة قبل هجرته إلى بلاد صول الجيش الأمريكي "أونكل سام".

المقابلة الأخيرة

(٤)

"لاتيأس فعادة مايكون آخر مفتاح في مجموعة المفاتيح هو المناسب لفتح الباب" نورمان فنسنت بيل.

لم يمهل أخاه "علاء" أن يفيض بكلامه مع أمه للاطمئنان عليه، وعلى زوجته والأولاد، بل لم يترك له مجالاً للحديث، بل أخذ يدفع به إلى الأمام حتى يقتصر الكلام على السلامات، وهو يدفعه مرة أخرى بدون هوادة قائلا له:
"هيا بنا يا أخي، لا وقت لدينا إلى هذه الضيافة".
وتحاول أمه أن يترك لها المجال لكي تطمئن من ابنها البكر على أحواله؛ لم تسعفه الكلمات، وهي ترى ابنها الأصغر، وهو يدفع أمامه الابن الأكبر، وهي تحاول أن تلحق به في كلمات سريعة؛ حتى يتركه قليلا معها "حتى تشبع منه" على حد قولها، بل لم يترك له المجال حتى يأخذ فنجان القهوة قبل مغادرتهما إلى السفارة الأميريكية قائلة له في لهفة:
"سمير، اترك أخاك يتناول فنجان القهوة، من ثم إلى السفارة. إنها مازالت موجودة في مكانها على حد علمي".
"سمير" لم يترك لهما مجالا، بل تعلل أن الوقت والكورنيش في هذا الوقت سوف يكون مزدحما، وعليه أن يكون في السفارة قبل موعده، قبل أن تأخذ الإجراءات الأمنية المحيطة في محيط "جاردن سيتي" منه الوقت الكثير للتحقق من الشخصية، والغرض من دخوله السفارة، والكثير من الإجراءات المعقدة التي لم يسمع من قبل عنها، والتي أصبحت جحيما لسكان هذه المنطقة؛ لقد تركها البعض بدون رجعة، والبعض الآخر ينظر على أنه نقمة لابد من الصبر عليها؛ حتى تزول الغمة؛ الحي أصبح ثكنة عسكرية، ولكن ربما أخوه "علاء"

يكون له دور فعال في التغلب على هذه المشكلة قبل الدخول إلى محيط السفارة.

انصاع "علاء" لتعليماته، وغادر الفيلا التي تقبع في آخر شارع "روبير رولو" شارع تسعة، أشهر شوارع المعادي القديمة التي كانت تغرق في الخضرة والهدوء والسكينة؛ فهي في الصباح قطعة من الجنة، لاتسمع فيها إلا شقشقة الطيور والأشجار الباسقة التي تعانق السماء في أريحية شديدة، ور ائحة الزهور تزكم الأنوف بالرو ائح الزكية، كأنها تبعث برسائل الطمأنينة والاسترخاء اللذيذ، بعيدا عن توتر الأعصاب، فهي مكان يدعو إلى الاسترخاء والتأمل. وفي المساء لايختلف الوضع كثيرا، بل زيد عليه التسكع على الكورنيش، وخرير الماء القادم من النيل، وسريانه في هدوء، وربما تستمتع برؤية المراكب الشراعية والفلايك وهي تتبختر على صفحة النيل الهادئة، والنسيم الصاعد من الأزهار التي تحيط بكل الفيلات، وأيضا الشوارع. كان شيئا يدعو إلى السرحان والذهاب بعيدا عن ضوضاء الأفكار والصراعات اليومية، التي تقام في رأسك بدون رحمة، كانت دعوة إلى التأمل في هذا المحيط الفارغ الشاسع.

الحال تغيير كل شيء بعد ثورة الجيش والشعب، وبعد العدوان الثلاثي (١٩٥٦م) تغيرت المعادي كثيرا! أصبحت الشوارع أرقاما، واختفت الشوارع الرئيسة، شارع فؤاد الأول أو الأمير فاروق، أو شارع فوزية، كل شيء اختفى كما كان يحدث أيام الفراعنة تُمحي كل انتصارات الفرعون، وتكتب انتصارات الفرعون الآخر.

بات هناك من المعالم التي تغيرت على مر السنين الماضية؛ لم يعد الحي الهادئ؛ لقد غزا كل من يملك المال، أصبح الحي لايملك ما كان يملكه من شخصية "الكاريزما"! اختفت هذه الشخصية تحت أصحاب رايات المال الجديد؛ ما عدا أحد يتذكر من منطقة المعادي، التي كان يقطنها أغنياء اليهود

في ذلك الوقت الموصيري؛ شيكوريل حتى لم تفلت المعادي من الحرب الكبرى، عندما آتت الفرقة النيوزيلندية، وهي تبحث عن الهدوء، و أقامت في المعادي، بل إن البعض قرر الإقامة فيها بعد انتهاء الحرب. لم يصدق الضابط الكندي "ويلماسون" أن ضاحية المعادي سوف تكون قِبلة لكل من يبحث عن الهدوء؛ ولن يصدق الكندي نفسه الآن، إنه ما كان في الماضي أصبح أثراً بعد عين، وهو يرى الفيلات القديمة تهدر قيمتها، وتباع إلى أصحاب المال الجديد؛ لإقامة الحوائط الأسمنتية؛ الكورنيش ليس ببعيد عن هذه المجازر! والغابات الصامتة تنطق قبحا، والتي انتشرت وطغت علي الرقع الخضراء.

تتصارع أفكار "سمير" وهو يرى السيارة تنهب الكورنيش، وتستعرض في طريقها الأسمنت الصامت، وهو يعلو ويحجب منظر النيل؛ تتسارع أفكاره وتسابق سرعة سيارة أخيه المتهالكة؛ وهو ينظر إليه ليتحين الفرصة؛ لكي يثنيه عن المغامرة المحفوفة بالمخاطر؛ لم يعطه فرصة، بل أخذ يبحث عن أحد شرائط الكاسيت المتناثرة في سيارة أخيه، التي تجاوزت العمر الافتراضي بسنوات، ينظر إليه "سمير" وهو يعلم أن أخاه يتحين الفرصة، وهو يجزم في نفسه أن محاولاته سوف تبوء بالفشل الذريع. حاول أن يتكلم، و"سمير" يسحب شريط كاسيت اختفت معالمه تماما. لايعرف إذا كان لمطرب أو مطربة؟ لم يلق بالا؛ عليه أن يجد مايشغله حتى يصل إلى السفارة، وآلا يعطي أخاه فرصة، ولكنه لم يفلح، وبادره عن نيته فيما سوف تفعله "ياسمرة"؟ كان الاسم المفضل لأبيه عندما كان ينادي عليه وهو صغير؛ لقد وحشه (اشتاق) لهذا الاسم، بل أبيه قد وحشه أكثر عن ذي قبل، يحتاج إلى رأيه واستشارته فيما ينتويه. كم يحتاج إليه، فهو يحتاج إلى حكمته في هذا المنعطف الخطير من حياته، الذي سوف يتحدد عليه أشياء كثيرة؛ إنه الاختيار الأصعب، سوف يصبح الاختيار إجباريا لابد منه. كم اختار لا أحد أجبره على هذا الاختيار

الصعب؛ ولكنه لايستطيع الاستمرار في هذه الحلقة المفرغة التي لاخروج منها؛ لا أحد يريد الخروج ولا أن يترك؛ لكن الاختيار الإجباري قد فرض سطوته على بناء الكيان بعد ثماني سنوات من التخرج، لم تأت بحجر في بيت؛ المبالغ الزهيدة التي يتقاضاها لن تنفع ولو بعد ألف سنة؛ والسؤال ماذا عن الآخرين الذين هم في مثل حالاته؟ جاء الرد سريعا. إنهم يحاولون أن يستمروا في أوضاعهم الحالية، ويتحينون الفرصة للخروج إلى إحدى الدول النفطية؛ حتى يُحسنوا من أوضاعهم المالية، بعد أن يخسروا الكثير، ويفقدوا أحلامهم التي تتبخر مع وطأة الظروف؛ يفتقدون الطموح، ويقبلون بما هو مسموح، مع استمرار الدوامة في انقطاع ماله، نظير الصرخة المكتومة آتت بتنهيدة طويلة؛ لا لن يخضع لهذه الدوامة؛ والحال سوف يختلف كثيرا في بلاد "العم سام". على الأقل هناك التحدي؛ والتحدي له ثمن، ويجازي على تحديه، و أنه على استعداد أن يدفع الثمن؛ لكي يحقق ما يتمناه في وقت أقل، كل على حسب اجتهاده، ولذلك هو منفي إجباري، له من التحدي وعدم السقوط في بر اثن الخيبة.

لاحظ "علاء" أن أخاه الأصغر قد استغرق وقتا طويلا، وهو ينظر إلى شريط الكاسيت ويمعن فيه، قبل أن يدخله في "المسجل" هاهو ينطق شريط الكاسيت بالصوت الذي يعشقه، الذي طالما حرك مشاعر الحب والشجن في نفسه؛ الذي طالما صاحبه في رحلاته القصيرة في النزهات الليلة مع "نوال". كان يعشق صوتها، وهي تداعب الأمواج التي تتهادى على شاطئ النيل.

تنطلق "جارة القمر" كما كانت تسمى إلى الآن، لقد نقشت الذكريات في تجاويف رأسه، وهو يتذكر أيام خطوبته مع "نوال"، مركب خاص بهما فقط، لا أحد يشاركهم هذا الخرير الهادئ، وتمايل جو انب المركب وملامسة المياه، كان الهدوء هو الساري بينهما؛ حتى تشق المركب عباب المياه، وهو يطلب من

المراكبي "أيوب" الذي قد تجاوز الأربعين من عمره، أن يضع شريط الكاسيت "لجارة القمر" قائلا له في سعادة غامرة:

"شريط "الكاسيت" لا توجد نزهة في النيل بدون جارة القمر".

كان "أيوب" يسعد بهذه النزهة النيلية المتكررة في كل منتصف شهر؛ كانت الألحان والكلمات تداعب خصلات الشعر المنسابة من "نوال"، وهي تلامس المياه بأطراف أصابعها، وتسقط من أيديها حبات من مياه النيل في كف "سمير"، وهي تحلم بالبيت والاستقرار معه، كان هذا مايشغلها. كان النقيض في تصرفات "سمير" أنه حتى لايستطيع توفير غرفة وليس شقة! إنها معادلة صعبة، كان يحاول أن يتناسى هذا الوضع المأساوي، كان يضطرب أمامها عندما تسأله عن ميعاد التقدم إليها، وعندما تقدم إليها سألته مرة أخرى عن ميعاد الزفاف، كلها أسئلة لم يستطع في وقتها أن يجيب عليها، لقد انفعل هذه المرة في حدة بالغة قائلا لها:

"كلها أسئلة يانوال لا أعلم أجوبتها، لا أعلم متى؟"

كان عاجزا تماما عن الإجابة على الأسئلة! لقد طغت السخرية عليه هذه المرة قائلا لها: "عندما تهبط أسعار الحديد!".

ينظر علاء إليه في تمعن، وهو يحاول أن يقنعه بما أوصته به أمه، حديث تليفوني مطول معه؛ لم ينتهِ منه قبل أن يوعدها، بأنه سوف يحاول إقناعه و إثناءه عن السفر إلى "أرض الأحلام"، كانت محاولة يائسة بائسة منه في إقناع سمير، عندما بادره علاء في لحظة من الهدوء، وهو ينصت إلى جارة الوادي. إنه عليه أن يصبر قليلا على وضعه، وآلا يُلقي بالمنشفة للاستسلام، قائلا له:

"أنت مش أول واحد يفشل في تحقيق أحلامه، عليك بالصبر قليلا، سوف تتحسن الأمور".

لم ينتظر علاء الرد، بل فوجئ بعاصفة من الإحباط الذي كان يحتويه صدر سمير منذ وقت طويل، وهو ينظر إلى أخيه في غضب واضح . ليس منه . بل من الأوضاع قائلا له في عصبية واضحة:

"هل تعلم أن ثلاثين ألف فقط يتحكمون في مصائر خمسة وسبعين مليون، وأن عشرة فقط يتحكمون في بلد بالكامل؛ هل نظرت مرة في صورتك في البطاقة الورقية، أو رخصة سيارتك. لقد أصبت بالكآبة؛ لأن الذي قام بتصويرك كئيب مثلك!؛ أمر اعتقالك على بياض بدون اسم الضابط على أن يملأه، لو وجهك ابتسم قليلا؛ تحدثه أن الموظف راتبه لايكفيه، يخبرك أنه سوف يتصرف؛ لفافات جوهر الحشيش وحشائش الأبل أرخص من اللحوم الحمراء! تفتكر حيشتري إيه؟ مش عارف أبتاع لنفسي بنطلونا! ولو اشتريته عليك أن تنسى بقية هذا الشهر؛ للزواج من نوال عليك بالانتحار لمدة خمس سنوات؛ للحصول على أربع من الحوائط بدون سقف إذا وجدت أصلا ما تبحث عنه. أخبرني ياعلاء أليس أولادك يتعلمون في مدارس أجنبية؟ وتدفع لهم المصروفات بالعملة المستحيلة، لما سألت ابنك في قراءة الفاتحة قالك يعني إيه"open"؟ صح ياعلاء!!؛ لما العصافير يأخذوا ترقيتك أنت عايز تبقي إيه؟ لما مديرك ليس له علاقة بالفنادق وينصت فقط إلي غربانه ونعيقهم، أنه في اشد الأحتياج إلى جلسات نفسية وعقلية في مستشفي بهامان؛ وتريد ان تخبرني عن الصبر، وماذا بك؟ هذه البلد تحتاج إلي ضمير وليس لفتح الادراج؛ تعرف من هو اليتيم ياعلاء؟! ليس الذي فقد والديه، اليتيم يتيم الوطن؛ والفقر في الوطن غربة، وهذه الأرض تطردني، لا تريدني، أرجوك إياك تقول ماذا بك؟".

لم يكن علاء ينتظر هذا من أخيه؛ ينظر إليه على هذا الكم من الإحباطات التي أصابت أخاه في مقتل، لقد جعلته يسكت تماما؛ لأنه قد فشل تماما في مسعاه.

إنه يحن إلى لحظات الصفا، في لحظات التوتر التي تنتابه أحيانا؛ والآن هذه اللحظات تنتابه الآن، خوفا ورهبة، مما هو قادم، يحاول آلا تسيطر عليه أفكار سوداء، بل يحاول أن يسيطر على مشاعره المضطربة، منذ تم إعلامه عن طريق السفارة. وأيضا ما قاله لأخيه قبل هذا. كان يحاول أن يتذكر وهو واقف، وينصت في دهشة. تم اختياره في القرعة العشوائية الأولى؛ لم يصدق نفسه، وهو يسمع على الطرف الآخر مسؤولاً ما، يخبره أنه قد تحدد ميعاد لتكملة أوراقه، وإعطاء باقي الأوراق التي سوف تساعده على تخطي الخطوات الأولى في "أرض الأحلام"؛ حان الآن عدم سيطرة الخوف على نفسه، وآلا تسيطر أي أفكار للتراجع عن فكرته وأحلامه المجنونة.

اقتربت السيارة من محيط السفارة، من المدخل الذي يطل على كورنيش النيل، تم إيقاف السيارة من قبل رجال الأمن المنتشرين في محيط السفارة؛ وتدخل أخوه"علاء" في الحديث مع ضابط أمن الدولة، المشرف على الحراسات الخاصة بالسفارات، بعد أن أبرز له (البطاقة) الكارنية الخاص بالقوات المسلحة، وأبرز في الوقت نفسه الأوراق الخاصة بالسفارة، والميعاد الذي تحدد من قبل السفارة، قائلا في نبرة عسكرية صارمة:
"أخي له موعد في السفارة".

وتم بين الضابط المكلف وأعضاء أمن السفارة اتصالات، تم بموجبها فتح المتاريس حول السفارة، كان حديث الضابط المكلف بالحراسات واضحا بالسماح بدخول "سمير" ومنعه من الدخول لدواعي الأمن قائلا في صراحة:

"سوف نترك أخاك يدخل إلى السفارة، وسيادتك سوف تنتظره في الخارج".

ومنع "علاء" من العبور الذي فضل أن يأخذ سيارته بعيدا عن السفارة؛ طمعا في فنجان من القهوة الذي تم حرمانه منه منذ الصباح الباكر مع أمه، والتوجه إلى إحدى المقاهي المنتشرة في ميدان التحرير، على موعد مع "سمير" بعد الانتهاء من مقابلته في السفارة.

كان دخوله إلى العالم المسحور، ما هذه الحراسات المنتشرة في أرجاء المكان؛ كانت هذه هي المرة الثانية له، دخول هذا المكان وكأنها المرة الأولى، لم تتغير المعاملة، بل هي بالوجوه نفسها، وربما بنفس الوجوه المتجهمة من عبء المسؤولية أو الغضب لايعلم؛ أي أفكار التي انتابته في هذه اللحظة؟ أهي لحظات الحسد، إن أحد المصريين قد دخل البلورة المسحورة، أو المكان الحصين الذي هو قطعة من "أرض الأحلام" سفارة الولايات المتحدة الأميريكية؛ التي هي قطعة من أرض داخل أرضي! إحساس غريب؛ دخولي إلى الشباك الزجاجي، وهو يطل منه رأس شخص مسؤول آخر يتفحص الوجه جيدا، قائلا له في تجهم واضح:

"حضرتك عندك ميعاد؟"

لم أتكلم كثيرا بعد أن أؤمات برأسي، وأعطيته رقم الطلب الخاص بالطلب المقدم مني، مع عبارة تفيد بأنه يوجد ميعاد اليوم لاستلام جواز السفر الخاص بي، قائلا له في صوت واهن: "نعم هناك موعد بشأن تأشيرة دخولي".

بعد أن تفحص الأوراق الخاصة بي؛ قام بالضغط على الزر، الذي يفتح الباب الزجاجي الذي كان أمامي مباشرة. بعد أن تحرك الباب الزجاجي السميك المضاد للرصاص؛ لدخولي إلى المرحلة الأولى من التفتيش، والأبواب الأخرى مثل المتاريس التي يجب المرور من خلالها، حتى الوصول إلى الردهة

المؤدية إلى عدد من الشبابيك المضادة للرصاص، والصوت المسموع عن طريق السماعة الواصلة بين موظفي السفارة والمترددين.

الأشخاص القليلون في الردهة لم يتعدوا أصابع اليد الواحدة، والواقف بجانب الباب جندي من جنود المشاة البحرية الأميريكية "المارينز"، شاب أسمر حليق الرأس تماما، كل شيء يلمع من قمة رأسه إلى الحذاء الأسود الذي يلمع في انعكاس الضوء القادم من أعلى السقف، مع انتشار الكاميرات لمراقبة المترددين على السفارة.

حان دوري في المقابلة الأخيرة؛ جلوسي في مواجهة الموظفة التي تخطت العقد الرابع بقليل، قائلة لي مع ابتسامة باهتة لها في كلمات عربية ركيكة:

"التهاني القلبية لك ياسيد سمير".

وهي تنظر إلى تأنقي، وفي لغة إنجليزية مع خليط من الكلمات العربية الركيكة، ربما تكون مخلوطة بلهجة تميل إلى الجنوب الأميركي، وفي وضوح تام أخبرتني بأنني من أوائل الذين فازوا في القرعة العشوائية؛ ولذلك هي ترحب بي بأن أكون أول شخص سوف يحصل على تأشيرة الهجرة من القنصل العام للسفارة، وهاهي الأوراق التي سوف أحتاجها في أولى خطواتي إلى أمريكا. أما من ناحية جواز السفر سوف يتم تسليم الجواز عن طريق القنصل، قائلة لِيّ بعد أن فشلت في استكمال حديثها باللغة العربية:

"سوف تستلم وثيقة سفرك من القنصل العام، التهاني القلبية لك مرة أخرى".

وسوف يتم أخذ صورة تذكارية معه، حتى توضع في سجل السفارة أو إنجازات السفارة في مصر، هذا ما فهمته منه، وطلبت مني التوجه مع أحد أعضاء السفارة، الذي سوف يأخذني إلى مكتب القنصل في مبنى آخر بعيدا عن الردهة.

اصطحبني الموظف الذي يقربني في العمر تقريبا إلى مبنى آخر؛ لم ينبس بأي كلمة معي، أو أنا قد حاولت أن أجري أي نوع من الحوارات الجانبية معه، بل تركته يسبقني بعدة خطوات؛ لأنني قد أحسست بالارتباك من شخص آخر، على الرغم من أنني قد تعاملت من قبل مع بعض الجنسيات، ولكنني لم أكن في يوم من الأيام في عقر دارهم، أو بهذا القرب. ولقد تركت له المجال حتى دخولي إلى المصعد، وأن أرى الشاشة الملونة، وهي تشير إلى الدور السادس من هذا المبنى الأنيق، الذي اكتست جدرانه ببعض المعالم من الولايات المختلفة؛ و أيضا مبنى "الكابيتول" والبيت الأبيض، وبعض الرؤساء السابقين. وصورة الرئيس الحالي رقم اثنين وأربعين "بيل كلينتون" الرئيس الديمقراطي. لقد أشار إليَّ بمجرد خروجه من المصعد أن أنتظر في مكان خاص بالقرب من طاقم السكرتارية الخاصة بالقنصل العام، قائلا ليّ في صوت خفيض: "من فضلك انتظر هنا".

وبعد فترة فتح الباب على الشخص الذي اصطحبني، وسمح بدخولي إلى مكتب القنصل الذي يتسم بالبساطة، ولكن في الوقت نفسه الإحساس بالقوة في الألوان، و أيضا في قطع الأثاث المنتقاة بعناية فائقة، تليق بمسؤول لدولة كبيرة في دولة هي حليف قوي، وعلى مكتبه العلم ذو الخطوط البيضاء والحمراء والنجوم الخمسين الذهبية، ويبقي له نجمة واحدة مفقودة؟ القنصل شاب لم يتجاوز الأربعين، وهو يقف منتصبا ومبتسماً ابتسامة عريضة، وهو يرحب بي كأحد الفائزين والحاصلين علي فرصة العمر. قائلا مع ابتسامة عريضة لم تفارق وجهه:

"التهاني القلبية لك يا سيد "سمير"، إنها فرصة جيدة لبناء مستقبلك برجاء انتهازها جيدا".

وهو يحاول أن يشرح لي كيف أن هذا نوع من إعطاء فرصة لكل شعوب العالم؛ لكي ينعموا بالحرية في بلاد تتمتع بقدر من الديمقراطية؛ لاتنعم أي دولة في العالم بهذا القدر منها، وإعطاء فرصة حقيقية لتحقيق الذات، وهو ينظر إليّ كي أكون سفيراً لبلدي في أرض الأحلام، وفي هذا الوقت سمح للمصور. وهي سيدة. أن تلتقط لي صورة مع القنصل العام، وهو فاتح صفحة جواز سفري على تأشيرة الهجرة، وهو يشد على يدي، متمنيا لي هجرة وسفرا ميمونا، مملوءا بالإنجازات في بلاد العم سام.

لقاء الشلة

(٥)

"دمار العالم ولاخدش في أصبعي" ديفيد هيوم.

لم أنتظر "علاء" كما حصل الاتفاق بيننا، بل تركت السفارة على وجه السرعة، و أنا أحمل أور اقاً كثيرة، تنوعت في أحجامها، منها الكبير ومنها الصغير. ولكني لا أبالي، بل ما كان يهمني جواز السفر الذي أحمله في يدي، و أنا أنظر إلى تأشيرة الهجرة عدة مرات، و أنا أنظر إلى الجموع السيارة بجانبي، وهي تنظر إليّ باستغراب شديد. انظر إليهم و أنظر إلى جواز السفر، ليس جواز سفر عاديا، بل هي تذكرتي إلى الجنة، بعد أن تم استلامه من القنصل العام. ذهبت إلى أبعد من ميدان التحرير؛ بل أقف الآن أمام تمثال الحرية، والوقوف في حرم من أضاءت شعلة الحرية للقادمين من أنحاء العالم؛ تجاوزت هذا، وذهبت إلى شوارع برودواي ومشاهدة مسرحية "القطط"، والوقوف في ميدان التايمز.

الرجوع إلى الو اقع كان ليس بالأمر الهين، ارتفع صوت أبواق السيارات محذرة من أحلام اليقظة. و أنا أرى القنصل العام، وبعد أن أخذ الصور التذكارية التي أيضا شملت فائزاً آخر من القرعة العشو ائية، شاب آخر لم يتجاوز الر ابعة والعشرين من عمره. كان اللقاء سريعا لم يتجاوز الحديث سوى بضع كلمات مقتضبة، يشملها التوفيق في بلد النسر الأصلع، ورجاء أن نلتقي في يوم من الأيام في إحدى الولايات، وهو أمر أشك فيه، ولكن ما المانع من الأمنيات والتمني.

أسرعت الخطى في عبور خطوط المشاة تارة، "والمراجحة الهو ائية" تارة أخرى؛ لكي أتفادى السيل الهادر الذي حرمني لحظة الحلم، لم ينقطع السيل من السيارات القادمة من الجسر (الكوبري) الضيق ذي الأسدين الر ابضين

على مدخل ومخارج الكوبري؛ لم ألق بالاً بصوت الأبواق التي تصاعدت مرة أخرى من قلب ميدان التحرير، و أنا أعبر الشارع في بهجة ما بعدها بهجة، والساعة الآن لم تتجاوز الحادية عشرة صباحا، مازال هناك وقت ربما أقوم بحجز مقعد في الطائرة المسافرة إلى نيويورك يوم الخميس القادم، يبدو هذا الخميس بعيد المنال منذ الآن، ولكن عليّ أن أقوم بحجز أرخص مقعد في أرخص رحلات الطيران بدون عودة؛ كان صراخ يعلو في رأسي بدون عودة ياسمير؟ لماذا؟ لماذا بدون عودة؟ ما الذي يجبرك على هذا الموقف المتأزم الذي تخلقه لنفسك بدون داع؟ لم أدع الأسئلة تتصاعد في رأسي، بل كانت موضوعة في رأسي، لم تتحرك قيد أنملة، و أنا أتحرك في خفة الفهد الأرقط بين السيارات، مقتربا من المقهي الذي يتوسط الميدان، ناظرا إلى "علاء" ويرى البشر على وجهي. و أنا أقترب منه. محتضنا إياه، ودفعت برأسي إلى صدره كأنني أشتم رائحة والدي فيه عندما أنجح كان ينظر إليّ فرحا و أيضا بلمحات الحزن قائلا ليّ:

"لقد حصلت علي تأشيرة، التهاني لك، ولو أني....".

لقد أخرست بقية الكلمات، و أنا أدس رأسي، و أتحسس صدر أخي مرة أخرى، كأنني لن أراه مرة أخرى، إحساس بالمرارة تسلل إلى حلقي في هذه اللحظة. و أنا أنظر إليه وهو يضع يده على رأسي. متأكد بأنني قد اقتربت من حالة الفراق؛ لم أنطق بل كان الصمت أقوى دليل على نجاح المسعى. لم أستغرق في الشرح، بل كان أسرع مني، ونحن نغادر المقهي بعد أن طلب الحساب، ودفع إليه مبلغا من المال مع إكرامية "بقشيش" في هذا الصباح، وهو يخرج من ورائه ويلهج لسانه بالدعاء له، ونتحرك خارج المقهي.

قبل الذهاب إلى سيارته طلبت منه أن نعرج على شركة (TWA) وهي تقع على بعد خطوات من المقهى، كان الفرح يغلب عليّ، و أنا أطلب منه أن نذهب إلى شركة الطيران قائلا له:

"فلنذهب لكي نرى أسعارومواعيد السفر".

لم يحاول أن يناقش سر إصراري على التعجيل، بل ترك لي حرية الحركة، و اتخاذ القرار المناسب. لم يعد يستطيع أن ينفذ وصية أمه! لأول مرة في حياته يفشل في مهمة في حياته، إنه مقاتل صلد ليس بلين العريكة، بل صلد قوي عنيد لايقبل الهزيمة، ولكن هزيمته جاءت من أخيه الأصغر؛ دارت معارك كثيرة في رأسه ما الذي سوف يقوله؟ كيف سوف يكون رد فعلها؟ لقد وثقت فيه أن أخاه سوف ينصاع إليّ؛ لما لي من دلال عليه؛ عليه أن ينصت إلى صوت العقل؟ من أين العقل؟ وهو قد شرح لي من قبل أنه إلى الآن لايستطيع أن يلبي احتياجاته؛ لايستطيع أن يحصل على حقه المشروع؛ اقترب على تسعة وعشرين عاما، وإلى الآن لايستطيع أن يكمل المشوار مع "نوال"! لايستطيع أن يستأجر شقة بدون "خلو رجل" أو مقدم شقة حتى، وإن وجد مقدم الشقة، ماالذي سوف يفعله في أقساطها؟ لايعلم لقد عرضت عليه أن يأخذ معاشها من الوالد الراحل، ولكنه رفض بشدة كيف يجرؤ علي أخذ معاشها؟ لايستطيع أن يفعل هذا الأمر، إنها وصمة عار. لم يلجأ لي؛ لأنه يعلم تمام العلم أنني مازالت لدي أقساط عليّ أن أدفعها؛ أقساط مدارس اللغات؛ أقساط الشقة التي هي إسكان ضباط القوات المسلحة؛ بالإضافة إلى أنني إلى الآن لا أستطيع أن اشتري سيارة تليق بضابط في القوات المسلحة؛ تتصارع الأفكار، ونحن نقترب من شركة الطيران، وهو يدلف من الباب الأمامي، ويقترب من مسؤولة الحجز، ويدور حوارباسم فيما بينهما. بالكاد أسمع شيئا من حديثهما؛ جدول مواعيد الطيران من القاهرة إلى نيويورك، الأيام،

بالنسبة للأسعار سوف يكون السعر خاصا في هذا الوقت من السنة، ولكن الحجز في خلال أسبوع حتى يتمتع بالخصم المنشود، وأرقام التليفونات بالشركة، وما إلى ذلك. كمٌ من المعلومات أخبرها؟ على أكثر تقدير سوف يكون هناك حجز، سوف يتم عن طريق الهاتف (التليفون)، وطريقة الدفع سوف تكون نقدا؛ لقد علا الاستغراب عندما أخبرها أن التذكرة بدون عودة، قائلا لها في سرور واضح:

"بطاقة ذهاب بدون عودة والدفع نقدا".

ذهاب فقط لكي يقطع خط الرجعة على نفسه؛ حتى لا يصيبه الحنين والضعف أمام رغبات أمه؛ لقد علت الدهشة وجهها، وهي تتفحص تأشيرة الهجرة، وتنظر إليه لعلها تلمح أي نوع من الارتباط لم تجد، بل لم تحاول أن ترجعه عن قراره؛ تخبره أن تذاكر السفر ذهاب فقط، لاتتمتع بهذا الخصم قائلة له في دهشة:

"ذهاب فقط؟ لكن هذا النوع لايحمل أي نوع من الخصم؟

لم يبالِ، بل كان رده فيه شيء من اليأس، الذي لم أتعوده من قبل، بل كان نوعاً من اليأس المحفوف قائلا لها في شئ من اليأس:

"لايهم، أريد بطاقة سفر ذهاب فقط في أقرب وقت".

لم يخطر ببالي أن الذهاب فقط سوف يكون بمثابة قطع خط الرجعة عني، ليس بالضرورة أن أرجع. لا أريد الرجوع فقد كان هذا منفى اختياريا، وأصبحت الآن منفياً إجبارياً، وقد فرض عليّ ولا أبغي سواه.

تنظر إليه وهي تتفحص هذا الوجه، الذي لايريد الرجوع مرة أخرى؛ ربما الحال ينطبق على الأجانب الذين لهم مهام خاصة في مصر، أو بعد قضاء وقت طويل ربما في مهام رسمية، وحان وقت الرجوع إلى بلادهم؛ لم يدر في خلدها أن المنفى الإجباري له سوف يكون ضاغطا له في منفاه الجديد، لمجرد الإحساس

أنه لايملك قيمة تذكرة لرجوعه مرة أخرى، لم تدرك أنه يعاني من الاغتراب والعجز عن تحقيق ذاته على أرضه، بل يترك كل هذا وراءه، ويضع نفسه في مجال آخر للاختبار، ربما لاتكفي هذه الدو افع من وجهة نظرها، بل هي في و اقع الأمر تكفيه هو، ولايعني الأمر لها في شيء.

خرج "سمير" . وفي صحبة أخيه . الأكبر تاركا مسؤولة الحجز تنظر إليه في شيء من البلاهة؛ لم تتغير تعابير الوجه حتى بعد خروجهما من شركة الطيران؛ توجها إلى سيارة "علاء" التي في مواجهة شركة الطيران، يتخطي الاثنان الشارع المزدحم، وارتفاع الأبواق التي تصم الأذان في تحد صارخ للمشاة الذين يحاولون عدم انتظار إشارة المرور؛ هذا الارتباك الواضح في الشارع، وصراخ سائقي الأبيض والأسود، وتوجيه السباب بسبب وبدون سبب! أحد السائقين قال له في شتائم صارخة:

"فلتسلك أعلى الطريق، إنك تمشي في منتصف الطريق أيها الحيوان!"

جعل "سمير" يفقد أعصابه في مواجهة أحدهما الذي تطاول عليه بألفاظ جارحة جعلته يرد بالمثل قائلا له في حدة:

"و أين هذا؟ أعلي الطريق! لقد غطي بالكامل بالسيارات، ولايوجد طريق للمشاة أيها الحيوان الأعجم".

أخذ "علاء" يصيح في وجه "سمير" حتى يصمت، وآلا يرد بالمثل على سائق التاكسي، لولا تدخل عسكري المرور الو اقف؛ لكان تطور الأمر إلى التعارك والشد والجذب، بعد أن توقف السائق في منتصف الطريق، تاركا سيارته وارتفاع نفير السيارات التي تصم الآذان، في حث السائق على الرجوع إلى السيارة، وفتح الطريق الضيق لهم.

المساء قد حل ضاحية المعادي؛ كان لقاؤه بعد رجوعه إلى الفيلا مع أمه، التي مازالت على حالها، منذ أن تركها في الصباح لم تبرح مكانها، بل يخيل إليه

أنها قد تشبثت بمكانها منذ أن ترك الفيلا؛ كانت نظرات الحزن تكتسي وجهها بالرغم من محاولات إخفاء حزنها، إلا إنها مازالت ترى عن بعد مجاري الدموع قد حفرت طرقاً لها، مابين عينيها و وجنتيها. كانت تنظر إليه بعيون دامعة، وفي حزن بالغ قائلة له:

"لقد اقترب ميعاد رحيلك يا ابن عمري!".

كان السؤال قاسيا، وكان رد الفعل عنيفا عليه، لم يتعود هذا منها؛ لكنه كان يدرك كم تحملت من أجله. لم يعد له خيار إلا أن يتركها، كان يفضل أن يكون الحال أفضل من ذلك الوضع. إنه لايستطيع أن يرى أمه في هذه الحالة، وخوفا من تأثير دموعها عليه، وأن يتراجع عما خططه من قبل كان رده فيه شيء من الحنان قائلا لها:

"لقد طرقت كل السبل، لايوجد أمامي إلا هذا الطريق، يجب أن أسلكه لو كان هناك أمر آخر أقدر أن أفعله كنت لن أتأخر عن فعله".

كان يريد أن يختفي عن أنظارها، إنه يريد الهروب "أن تنشق الأرض وتبلعه" كان يبحث عن ملاذ له، بعيدا عن عينيها الدامعة، كان لايستطيع أن ينظر إليها أين هم عندما يحتاج إليهم؟ البحث عن أقر انه في هذه الحالة هي الملاذ الوحيد وطوق النجاة، وكأنه يدعو في نفسه أن يعجل الله بطوق النجاة، الذي أتى ردا فوريا على دعائه؛ أحد الأصوات المألوفة تناديه "بصافرة طويلة" الآذان لاتخطئ هذا الصوت، هذا "نبيل" من أصدقاء الطفولة، جمعهما صف دراسي واحد في مدارس "الليسيه" طوال سنوات الدراسة، هذا الشاب فارع الطول، الذي لاتفارقه ابتسامة، كان دائما الابتسامة بسبب وبدون سبب! حتي يظن الذين لايعرفونه أن قد أصابه العته، ولكنه كان يضع الابتسامة حتى على حد تعبيره، "حتجنن لو مضحكتش" كان يعد الضحك دواء له، حتى في أحلك اللحظات، التي يتطلب شيئا من الكياسة أو الحزن القليل؛ لايضع أي من هذه

الحدود، يطلق العنان لضحكاته التي لاتتوقف؛ ليس مثل أي شاب من شباب المحروسة، يملك كل شيء، تقريبا والده وفر كل مايمكن أن يحققه له، من شقة تمليك. بما أنه الابن المدلل الوحيد. وسيارة تضارع السيارات الأميريكية في الفخامة، كان صوتها يطغى على جميع السيارات في المنطقة، من صوت الموتور العالي ولما لا؟؛ الوالد لم يبخل على ابنه في شيء يتمناه، ولكن كان رغبة "نبيل" أن يترك المحروسة، ويذهب إلى القارة العجوز، "لكي يجرب حظه". وربما عروس بيضاء فارعة الطول مثله "لتحسين السلالة" كان يقهقه عند ذكر تحسين السلالة، إنه بالوسيم ولكن ملامحه توحي بأنه ليس من المحروسة، ربما من الأتراك أو من القوقاز، وهذا ما علمته، إنه خليط من هذا وذاك، وأيضا من الشركس، لخبطة مع خلطة من الفكاهة المصرية؛ تكررت الصافرة مرة ومرات حتى خروجي إلى الشرفة، لكي أرد عليه كان نبيل يضحك بمجرد خروجي إلى الشرفة قائلا لي:

"يابني، عليك أن تنزل في الحال، الأصدقاء في انتظارك".

كان يلوح بأن "الشلة" في انتظاري، وانتظار أخباري؛ لأنهم في شوق لكي يروني؛ أخذ يصيح بكلمات غير مفهومة. تبينت منها في الأخير أن لديه مفأجاة لي بالكاد أسمعه، وهو يقول لي:

"يوجد شخص يريد أن يراك بشدة".

إن هناك شخصاً عزيزاً أحبه سوف ألتقيه هذا المساء، وعليه أن يستعد بالإضافة إلى الضلع الرابع "ماجد" يالها من ليلة.

دخولي إلى النادي كان بعد أشهر من الانفصال عن"نوال"، انتابني شعور غامض بأنني مرصود من عيون رواد النادي؛ كانت ترصدني؛ متفحصة؛ ممتعضة تكاد تفترسني؛ لم أعلم أن ماحدث بيننا سراً سوف يصبح معلناً لكل هؤلاء؛ العيون تتفحصني، إما أنني مخطئ! أو أنني أتخيل أن مايحدث هو من

محض خيالي؛ كنت أتحاشي النظر إليهم، على الرغم من معرفتي بالكثير منهم، وأتبادل معهم التحية، ولكنهم كانوا يتحاشون النظر إليّ؛ لا أريد أن أنظر إليهم؛ حتى لايصلوا إلى أغواري، وتفصح عما أعانيه؛ ولكني لم أستطع؛ النظرات كانت تخترقني بدون هوادة؛ مافعلته لايغتفر؛ تكتسي الوجوه بالوجوم والكآبة، أم هي حالتي النفسية على الرغم من التماسك الذي أبدو عليه، وحالة الفرح إلا أن فرحي ممزوج بحالة الوجوم على وجوههم. حالة مرضية انتقلت بتلقائية إلى نفسي بدون سابق إنذار؛ تصاعدت الأسئلة في رأسي؛ من أنتم حتى تحكموا عليّ فيما أفعله؟ أو ما أريده؟ هل أصبحتم رقباء على تصرفاتي؟ زادت النظرات والعيون تتفحصني كلما تغولت أكثر في طرقات النادي؛ كان التأفف قد وصل إلى أعلاه. إلقاء التحية على أشخاص يعرفونني تماما، كان يلقي الصدود؛ ولسان حالهم أنت تعلم لماذا لانرد عليك التحية؟ ماهو الجرم المشهود الذي ارتكبته حتى تنفصل عنها؟ أزعجني السؤال، واخترق رأسي المشتعل بالأفكار التي تُطاردني، كأنها كلاب مسعورة تنبح على طريدة شاردة! الخطوات ثقيلة حتى كأن شبحاً و اقفاً. إنني أعرف هذا الشبح النحيل؛ الاقتراب كان نوعاً من الفرحة التي أبحث عنها، كانت مرت شهور طويلة منذ آخر مرة رأيته، عندما طلبت منه السلفة التي إلى الآن لم تسدد إليه، سوف يعذرني. أعلم تماما أنه سوف يلتمس لي الأعذار. أنا لا أخطأه، إنه "حسام الطائر" منذ آخر مرة ساعدني فيها. يالها من الأيام التي مرت سريعا، مازلت مديناً له، هو الضلع الثالث من أيام الطفولة؛ واللعب في النادي، بطل المراكب الشراعية؛ الشاب الأرستقراطي النحيل؛ العائلة العريقة المترسخة في المعادي من أيام الملكية البائدة؛ المعروفة في أنحاء المعادي بعائلة الوزراء؛ لاتخلو وزارة سيادية من أحد أبنائها؛ الشاب النحيل القصير القامة نوعاً ما، قد سلك طريقا آخر بعيدا عن المسار الذي رسمه له والده؛ لقد استشاط غضبا عند الانتهاء من

البكالوريا الفرنسية. إنه يريد أن يصبح طيارا مدنيا؛ لم يتخيل والده أن تغير المسارسوف يأتي من ابنه "حسام" الذي تمرد علي التقاليد المتوارثة في العائلة العريقة؛ السيدة "صفية" الأرستقراطية. حاولت كثيرا معه حتى تثنيه عن رغبته. كانت تحاول معه بالرفق أن يغير رأيه الخاص "بمعهد الطيران"، كانت تعتبرها سبة في جبين العائلة الأرستقراطية قائلة له في لين: "معهد ياحسام! وأنا كنت أريدك أن تكون رئيسا للوزراء في يوم من الأيام؛ أجدك اليوم تبحث على أن تكون طياراً ومعلقاً في بين السماء والأرض".

لكن الإصرارقد بلغ مداه من قبله؛ لايريد أن يلتصق بالأرض، يريد أن يُحلق، وكانت رغبته مستفزة، ووصلت إلى حد الهوس، كان يحاول أن يقنع السيدة الأرستقراطية، إن ما سوف يجنيه من عمله كطيار أعلى كثيراً من رئيس الوزارء، قائلا لها في حنان:

"أنا سوف أكون أفضل من رئيس الوزراء الخاص بك".

كانت تدرك مدى ولع "حسام" وشغفه بالطيران؛ فهو يقوم بتجميع الهياكل الخشبية للطائرات؛ ومعرفة الطرازات المختلفة؛ والتعرف على خطوط الطيران؛ كان نوعاً من الهوس الذي وصل إلى تعلق نماذج من الطائرات داخل غرفته، وهي متدلية من سقف حجرته. لم يردعه تهديد الأب، بأنه لن يصرف عليه؛ حتى يتخرج في معهد الطيران؛ كانت كلمة "معهد" الطيران تزعجه بشكل حاد! ولكن "حسام" كان يملك من المال الذي يجعله يتعلم الطيران في أمريكا، وليس في مصر؛ لقد رضخوا أخيراً إلى رغبته؛ بعد أن تبخر أمل الأب في رؤية ابنه ينضم إلى جحافل الوزراء الذين يقفون علي أبواب الوزارات كل في دوره، ولم لا؟ ومن يتحكم في لجنة السياسيات "طبال"سابقا، ونحن من يمتلك المفاتيح "الواسطة" هي سر من أسرار الدولة العميقة! هي حرز الأحراز، ومفاتيح طلاسم الدولة الفرعونية. لقد كسر الخط الصاعد لكي يكون رئيسا

للوزراء، أو على الأقل أن يكون وزيراً وتتبعه كلمة سابق! السيدة "صفية" الأرستقراطية قد قرأت القرآن كله في ليلة واحدة؛ حتى يتصل بها ويخبرها أنه بخيرمع أول رحلة طيران داخلية.

هذا الجسد النحيل، عما قريب سوف يصبح على أهم الخطوط الدولية، فتحت أحضاني له، وهو يلقي بجسده كله إليَّ؛ كنت في احتياج إلى هذا الإنسان النحيل، الذي لم يفارقني طوال سنوات الدراسة؛ لاتفارقه الابتسامة كانت النكات لاتنقطع؛ حديث الزميلات عنه دائما لاينقطع، هل هو بسبب ثرائه؟ أما هي خفة دمه المغلفة في بعض الأحيان بشكل من أشكال الوقاحة، لا أحد يعرف كانت تشتعل المبارزات بينه وبين "نبيل" في شيء من التحدي، وكنت أنا دائماً الحكم فيما بينهم، كان "حسام" ما يبدأ قائلا له في سؤال فيه سخرية واضحة:

"كيف لك أن تعرف هذا الجوال الممتلئ بالبطاطس، والتي تسمي "نيفين" هذا اسم على غيرالمسمي.

كان نبيل لايستطيع أن يتوقف عن الضحك، حتى في إجابته على "الطائر" كان دائما ما يبدأها قائلا:

"إنك لاتفقه شيئا عن النساء؛ اعترف أنها ممتلئة قليلا، ولكنها تحجب الشمس".

هذه المبارزات لم تنقطع، وكان رهاناً على من هو أكثروسامة من الآخر، وأكثر قدرة علي جذب أكثرهن جمالا؛ كان الصراع سجالا؛ لكن الغلبة "لحسام الطائر"، حتى وصل الأمر أن يطلق على نبيل "إن نفسه حلوة". "نبيل" كان لايهمه في الأمر الجمال أو الحجم؛ مادام أطلقوا عليها في شهادة الميلاد أن نوع المولود "أنثى"، كانت المبارزات تجعلني أضحك كثيرا. كان لقائي به نوعاً من التعزية لنفسي، أن أرى "حسام" مرة أخرى وهو في حالته المرحة، ولكن هناك

شيئاً من الحزن يغلفه هذه المرة، ليس علي سجيته. إنني أكاد أعلم هذه الأعراض، إنه يحب، ولكن من هي؟ التي غيرت هذه المعالم؛ من المؤكد أن هناك أمراً جللا قد حدث، لا أعلم ماهو؟ ولكن هذه النظرات الزائغة والأنفاس المتقطعة تخبرني أن زلزالاً يعتريه ولايريد البوح عنه؛ الجسم النحيل مازال كما هو لم يتغير البتة، ولكن هذه المرة هو مختلف تماما. يريد أن يتكلم، ولايريد. كانت هذه نوعاً من الحيرة والمعاناة، ولايريد أن يحكي عنها، سوف يأتي وقته، لكي يتحدث لأننا الأضلاع المكملة له.

انقطع الحديث لكي نرى هذه الجلبة الآتية من أقصى النادي، بجانب الصالة المغطاة. العشرات من رواد النادي يحيطون بشخص ما، ولكن يكاد يختفي، ويتحرك هذا الجمع في اتجاهنا. لا أخطئ هذا الصوت، وهو يوقع على ورقيات "الأتوجراف" للصغار والكبار. إنه الضلع الرابع "المهندس ماجد" الملاكم؛ كيف يقوم بالرسم، ثم تتحول هذه اليد إلى ارتداء القفازات. افترق الجمع بعد أخذ توقيعات منه، وهو يقترب منا؛ أحسسنا بأننا قد فوتنا إحدى النازلات المهمة اليوم. كانت بطولة النادي لم نفوتها من قبل؛ عدم حضورنا كان يصيبه بأزمة نفسية، ولكنه اليوم هو منتصر لامجال للعتاب أو التنغيص عليهم.

السِنة المكسورة الأمامية جعلت هذا الجسم القصير أكثر جمالا؛ انفراج فمه عن هذه الابتسامة العريضة، وهو يأخذنا نحن الثلاثة في حضنه، كان هذا نوعاً من تعويض الحرمان، كان يصيح مرحا بمجرد الاقتراب منا، صائحا قائلا في مرح صاخب:

"لا أصدق ما أرى، إنها العصابة القديمة، لقد أوحشتموني أيها "الغجر".

والأضلاع الأربعة قد اكتملت "ماجد" كان يملأ الدنيا صخباً؛ ومع هذا الجسم القصير الذي تحول إلى ملاكم؛ كان هناك الإحساس بكل الناس، كان

أكثر مايحزنه رؤية الألم على وجه أي إنسان. هذه التركيبة الغريبة من عنف ملاكم إلى إحساس الشاعر، كان قمة التناقض الذي يعطيه نوعاً من الشاعرية المفرطة؛ حتى عندما كان في إحدى المباريات، وكُسرت السِنة الأمامية؛ لم يغضب حتى ظن المشاهدون أنه سوف ينتقم من غريمه على فعلته! بل كان العكس تماما، كانت روحه الرياضية تغلف أفعاله. لاتستطيع أن تتنبأ بأفعاله التي هي في بعض الأحيان تبدو غريبة، ولكن عند التفكير فيه بإمعان، تصبح منطقية جدا؛ ربما من غير المألوف أن تراه يصطحب كلباً من الشارع إلى عيادة بيطرية، ولايعطي متسولاً مالا! كانت تصرفاته شيئاً من الغرابة، ولكنها كانت منطقية.

الصخب قد وصل إلى عنان السماء في هذا الجو البارد من شهر أكتوبر، ولكن الدفء ساري في الأجساد، بعد أن جلست الأضلاع الأربعة تتذكر الأيام الخوالي؛ الزوغان (الهروب) من المدرسة، والنط من فوق السور، وانتظار "مدام لميس" مع عمال المدرسة والفراشين، وإرسال خطابات الإنذار بالفصل إلى أولياء الأمور. كان حديث "نبيل" متذكرا مدام "لميس" مديرة المدرسة في ضحكة طويلة:

"أين هي الآن؟ لقد اختفت من على وجه البسيطة!".

كان رد "حسام" فيه شيء من التلقائية المعتادة، ولكن في مرح حاد قائلا: "لقد جننت بالتأكيد، مما قد شاهدته منا يجعلها في البيمارستان(المستشفى) بدون شك، لكن "ماجد" كان رده أوقع منهم؛ كأنه يعلم شيئا لا نعلمه نحن، عندما أخبرنا قد تركت التعليم بالكامل، قائلا في وقارلم نعهده من قبل منه:

"لقد تقاعدت منذ نحو خمس سنوات، وذهبت إلى ابنتها في فرنسا".

تذكرت على الفور ابنتها "ماريان"، كانت جميلة، وكانت زميلة لنا في مدرسة "الليسيه"؛ ومن منا لايتذكر "ماريان" عندما كانت تصرخ من "تواليت البنات"

بعد أن وضعنا اللاصق السائل على قواعد الحمامات، كانت تصرخ بشدة، لولا ستر ربنا لكانت قضية في المحكمة، و"الغجر" في غياهب السجون، تذكرت الآن، و أنا أضحك بشدة، بعد أن تذكرنا في الوقت نفسه الموقف الذي حدث قائلا في ضحكة عالية:

"هذا كان يوم أسود، عندما تركنا اللاصق الجبار على قواعد "التواليت" والتصقت به؛ وتم استدعاء سيارة الإسعاف، وتم إحاطتها من البنات، ولولا ستر ربنا لكان "الغجر" في السجن، يمضغون الخبز الجاف مع الحلاوة الطحينية.

"حسام" مكملا إنه لم يكن يقصد "ماريان" ابنة مديرة المدرسة، بل كان يقصد صديقته السابقة "نسرين"، التي اختلقت عليه كلاماً وأحاديث لم تحدث بينهما، بل في عدة مرات حذرها من هذا المسلك المريض، ولكنها لم تنصع، وكان هذا بداية العقاب لها، ولكنها فلتت منه قائلة في حزن:

"كانت المقصودة بهذا الأمر "نسرين"، وليس "ماريان"، لكن كان حظ ماريان سيئا للغاية".

لم نتوقف عند هذا الحد، ولكن تتداعى الذكريات مع الضحكات الطويلة، ونزهات المراكب على سطح مياه النيل، من مرسى "صابر" و أيوب المراكبي، وشرائط فيروز، وعمرو دياب، و أفلام الثالثة عصرا، وفيلم "المدمر"، ومشاهدة الفيلم أكثر من خمس عشرة مرة. غلق أبواب الحمامات؛ ووضع اللاصق السائل على مقاعد الحمامات؛ النكات الفجة قد تعالت، حتى بدأ الجالسون يهجرون المقاعد، و اقترب "عم محمد" نادل الكافتيريا والابتسامة ترتسم على شفتيه. معلنا أن الحكايات والنكات قد خرجت عن المألوف، وليس من المعقول أن أول لقاء لنا أن يكون بهذا الصخب؟ والانتباه إلى ماحدث قد أصابنا بالدهشة، عندما هجر المترددون أماكن جلوسهم وتركوا لنا الساحة.

الــوداع

(٦)

"لاتلعب بمشاعر الآخرين، لأنك قد تربح اللعبة، لكن الخطر أن تخسر هذا الشخص مدى الحياة"   ويليام شكسبير.

لقد أصابنا نوع من الخرس الجماعي؛ لم نحس بوجودها، بل أنا من جذبته الرائحة؛ رائحة "البرفان" التي تسللت إلى شهيق الهواء المتسلل إلى صدورنا، جعلتني في حالة من الاسترخاء العجيب. أنا لاأخطئ، من تقف خلفي؟ من قررت أنا الانفصال عنها، لايحتاج هذا "البرفان" إلى تفسير؛ في استدارتي بجسدي لمن أتى من ورائي، وتسمرت فيه العيون؛ الصمت المطبق جعلني أقف وجها لوجه في رؤية "نوال"؛ لم يصمت "نبيل" وهو يرى أنني قد هَربت مني الكلمات، بل جاء مسرعا بجانبي، لكي أنطق حتى علي سبيل كلمات الترحيب، ولكنها هربت مني الكلمات قائلا لي في همس واضح:

"لقد انخرست، تكلم يارجل، على الأقل قم بالترحيب بها؟!

لم أنطق بأي كلمات، بل قد أصابني الخرس! وهي تنظر إليّ في تمعن واضح ونظرات تحرقني من داخلي؛ عَجلّ "نبيل" بكلمات الترحيب، تاركا كرسيه لها حتى تجلس، قائلا لها في لغة ترحيب واضحة:

"تفضلي بالجلوس يا "نوال".

كانت أكثر حزنا، ولكنها كانت رابطة الجأش، وهي ترتدي هذا الفستان الأسود الذي زاد في بريقها ورونقها ولكنه حزين، وهذا المعطف الذي انسدل مفتوحا أمامي، والبيريه(القبعة) الذي غطى شعرها بالكامل. كانت تبحث عن كلمات تبدأ بها، ولكنها ذهبت إلى الكرسي، وهي تسلم على كل منهم في صمت مع التمتمة الضمنية بالترحيب بهم، وهم يبتسمون لها في استحياء.

كانت ابتسامة استحياء فيما فعله صديقهم فيها؛ كأنهم يعتذرون بالنيابة عني فيما فعلته، ولكنهم يعلمون تماما ما أمر به من معاناة بعد الانفصال، كان القرار بالهروب ليس منها؛ لأنها كانت واحة ليّ من الضغوط، وملجأ لي في ساعات الأزمة. و أيضا وجودها في حياتي يضفي على حياتي الرونق والبريق، بعيداً عن زيف الابتسامات المفتعلة. بل كان هروبي من كل الظروف والحياة التي أعيشها لا أستطيع أن أحقق لها الحد الأدني من الحياة، وهي بنت رجل الأعمال الثري. كان قرار الانفصال قد أصابه بالدهشة، لم يكن في حساباته أن تنتهي القصة قبل أن تبدأ؛ لم يفرض شروطه، كما كان متوقعاً منه عند مفاتحة ابنته له، بأن هناك من يريد أن يتزوجها قائلا ليّ في تودد واضح:

" نوال هي ابنتي الوحيدة؛ لن أحدثك عن مهر؟ و أين سوف تقيم؟ كل هذه المواضيع لا تعنيني في شيء مادمت سوف تصون ابنتي".

لقد كان رد والدتي سريعا، عندما قالت له في تودد واضح بعد احتضانها "لنوال":

"هي أيضا ابنتي والغالي لها رخيص".

لقد بدت ملامح الدهشة؛ لأنه بالتأكيد لم يفاتحه أحد في مسألة زواجها؛ لم يفاجئ عندما أخبرته أن "سمير" سوف يأتي مع والدته لكي يتقدم إليها، وعليه ألا يبدو متعسفا في طلباته مثل الكثير؛ لقد كان لينًا معه إلى أقصى حد ممكن؛ لم يطالبه بما يتجاوز إمكاناته؛ لم يتحدث معه في مكان شقته أو أين سوف يقيم؟ لم تعنيه كل هذه الأشياء، بل أبدى استعداده لكي يساعدهما، وهذا ما رفضه "سمير"! لقد عرضت عليه أمه أن يقيم معها، وهذا مارفضه أيضا. يريد أن يحس بالاستقلالية تماما عن مكان ولادته، وآلا تكون حجرة نومهما هي الحدود المفترض ألا يتجاوزها؛ لم يرض بأنصاف الحلول.

كان يبدو عليها أنها لم تذق طعم النوم منذ أيام بعيدة؛ بل ظهر عليها السهد أم الغضب لاأدري؟ لم تكن في حالتها الطبيعية، بعد أن تركنا الأصدقاء على أمل اللقاء مرة أخرى قبل سفري؛ كان سلام الأيدي والأحضان سريعا، وهم ينظرون إليها آلا تقسو عليّ؛ لأنهم يحزنهم ما آلت إليها الأمور؛ على الرغم من مظهرها الحزين، إلا إنها مازالت تحتفظ بهدوئها وجمالها المعهود؛ ومازالت العيون تمتلئ بالذكاء؛ ولقد خانها ذكاؤها مرة، عندما أدركت أنني قد قررت الانفصال عنها؛ لم تدرك مايحدث لها عندما أخبرتها أنني لا أستطيع الاستمرار، وإلى الآن لا تدرك ماهية الأسباب الحقيقية وراء الانفصال؟ هل هجرها هي السبب؟ أم هي أسباب أخر؟ ولأنه لم يفصح.

أصبح الأمر فيه شيء من الغموض؛ لقد جلست في الجهة المقابلة له، وهي تضع شنطة حمراء فيما بينهما؛ كانت الفاصل أو حائط الصد الذي وضعته حتى لا تطال يدي و أنا أحاول أن أمسك يديها كانت رغبة عارمة. كان الحائط المفتعل الذي وضعته؛ لقد نظرت إلى هذه الشنطة عدة مرات، خوفا ورعبا لقد حسبته مثل صندوق "بندورا"، متحديا أن يكون سببا في إيلامي على مافعلته وسببته لها من الآلام النفسية. لكنها لم تدرك دو افعي إلى الآن. لم يكن تركي لها لأنني اكتفيت منها كما أشيع في النادي؛ أو جلسات النميمة التي أصابتها في مقتل من عجائز الفرح! إنها تختلط بشباب النادي! ولايوجد لها رابط، وهم من يعرفونها جيدا؛ لأن سنوات طفولتها وشبابها كانت بينهم، ولم تكن بالشريدة في يوم من الأيام. كان هناك كلام كثير دار في النادي عقب انفصالي عنها، وفسخ الخطوبة:

"ماذا تريدين من امرأة طوال الوقت في النادي وبين الشباب!"

لم يكن هذا حقيقيا؛ عدم استمراري لم يكن معناه الهروب من المسؤولية، بقدر ماكان نوعاً من إعطائها الحرية في الارتباط بمن هو مناسب لها؛ قدرتي

على عدم الاستمرار لا أستطيع أن أوفر أقل متطالبتها، أو أقل من المستوى الاجتماعي الذي تعيشه، لا أستطيع أن أرى البيت يتداعى بسبب قلة المال، أو عدم الاستطاعة في توفير أقل الأشياء لها. كان بكاؤها مرا عندما قررت الانفصال عنها. كانت تريد أن تعرف ما الذي أخطأت فيه قائلة في حزن بالغ:

"عليك أن تبين لي ما الذي أخطأت فيه!".

كانت اللخبطة قد أصابت حياتي كلها، و أنا أرى الحيرة في عينيها. لم ترتكب أي خطأ في حقي، ربما أنا كنت من أخطأت في حقها بدون أن أشعر، قائلا لها في حزن:

"لايوجد لك جرم، إنني أنا السبب في هذا، أنا لا أستحق حبك ليّ! أنا إنسان محاط بالفشل؛ تستحقين من هو أفضل مني".

كان هذا واقعاً بالفعل، إنني لا أقدر على الزواج، كانت كلمات الصبر والمثابرة لاتشفي غليلي، عندما كانت تنظر إلى إحدى مرايا العرض "فترينة"، وترى ما يعجبها، و أبحث داخل الجيوب، ولا أجد سوى الخواء. كانت نظراتي فيها شيء من الانكسار؛ حتى بعد فترة وجيزة أرى عليها ماكان يعجبها، كان يصيبني نوع من الإحباط.

كانت التساؤلات تتصاعد داخل رأسها، حتى أفصح عن الأسباب الحقيقية، كانت تحثني على الإفصاح بعيون ساهمة؛ كانت تستحلفني بدون أن تفصح:

"لماذا فعلت بي هذا؟".

كنت أشرح لها، والوجوم يلف المكان في هذه الليلة الباردة، إنها ليست السبب. بل الظروف هي السبب، هي ما تجعل الافتراق والغربة سلوى لمن يحب؛ حبي لها لا مثيل له. أريدها أن تعيش مع من يقدرها، والأفضل في حالتي الابتعاد. ربما الأفضل لك الابتعاد، ولكنه ليس الأفضل لي. أنا أريدك أنت؛ سوف نتغلب على المشكلات التي تواجهنا ولكن لاداعي للفراق؛ سوف يصمد حبنا أمام كل

العقبات؛ صمود الحب ولا حائط من ورائه لكي يستند عليه. سوف ينهار سريعا بدون سابق إنذار، وخاصة أن لغة المال هي الراعي الرسمي للزواج الناجح للأسف. ليس الحب هو الركن الأساسي في هذه العلاقة؛ لقد فتحت الشنطة وهي تحاول أن تناولها لي، إنها تحتوي على رسائل لها في أوج العلاقة بيننا، وأيضا بعض الهدايا، وخاصة هدايا أعياد ميلادها. كانت أشياء يسيرة، ولكنها كانت عزيزة على نفسها، على الرغم من معدنها الرخيص، كانت تثمن هذه الهدايا بالإضافة إلى العلبة المخملية الحمراء، وهي تحمل هدية والدتي والحلقة الذهبية؛ لقد أرجعت كل شيء إليها، كنت أرجوها ألا تفعل بي هذا قائلا لها:

"لا يا "نوال" أنت أغلى من كل هذا، أرجوك أن تحتفظي بهم، إنها فقط الظروف".

كان هذا فعلا ما أعنيه، هي بالفعل أغلى عندي، من كل هذه الهدايا الرخيصة؛ لا أريد أن يكون هذا آخر عهدي بك؛ أريدك الاحتفاظ بها، ربما ليس من المألوف لدى البعض الاحتفاظ بهدايا الخطيب السابق طبقا للأعراف. ولكني لم أكن فقط خطيبا سابقا، بل أنا أكثر من ذلك، أنا حبيب؛ لكن ربما كلمة سابقا لا يعترف بها المحبون؛ لأنها لا توجد في مفردات الحب؛ لقد يئست من إصراري على عدم أخذي للهدايا، كان هناك إصرار، ولكنها رأت مني إصراري على تركهم لها قائلا لها:

"لهذه الدرجة تكرهي وجودي بجانبك، أرجوك أن تحتفظي بهم، أنا لا أستحقهم".

الكل ينظر إلينا في حالة من الدهشة. كيف هذان الخطيبان يتحولان إلى هذا الهدوء؟ الانفصال كان بدون صخب، بل كان هناك نوع من الهدوء؛ الكل كان ينتظر، العواصف القادمة ولكن لم يحدث؛ كان هناك نوع من الحزن

الذي يلف المكان. حتى نادل الكافتيريا، قد بدا عليه التأثر من حساسية الموقف. لم يجرؤ أن يسأل، أو أن يدخل بيننا، لكي يسأل عما نريد أن نتناوله، لقد ترك الساحة تماما، و انتظر في الخلف، ناظرا لما سوف يسفر عنه هذا اللقاء.

كنت أبحث عن فرصة لكي يطول اللقاء أكثر من ذلك. الفرصة سانحة من مر افقتها إلى فيلاتها في هذا الوقت المتأخر من هذا المساء. كان الصمت المطبق بيننا حتى خروجنا إلى الشارع. كانت الفرصة أنها لم تحضر سيارتها؛ لقد ذهبت إلى عنو اني، ووجدت والدتي في انتظارها التي لم تكف عن البكاء، وعلمت منها ماحدث في السفارة في هذا الصباح، وأن موعد سفري قد اقترب، قائلة لها في حزن بالغ:

"لا أقدر على تصديق مايحدث، سوف يسافر "سمير"، سوف يتركنا".

لقد أصابتها حالة من اليأس، عندما سمعت من أمي هذه الأخبار، ولذلك فضلت أن تذهب إلى النادي، ليس فقط لإرجاع الشنطة الحمراء، ولكن لكي تر اني، ربما لآخر مرة قبل سفري، كانت "نوال" تدرك ما تعانيه والدتي، وكانت الدموع تلمع في عيون "نوال" بدون شعور، قائلة لوالدتي في حزن:

"كما يريد يا أمي فليفعل ما يحلو له".

كانت "عزة" أن هذا التي تتفوه به "نوال" لا تعنيه بالمرة، بل تدرك المعاناة التي تمر بها، بعد أن تلقت من والدها تقريعاً على اختيارها لابنها، وتحاول أن تشرح لها في هدوء:

"إنه يحبك يانوال، ولايقدر على تركك، ولكن كل الظروف ضده يا ابنتي، لا يستطيع توفير أقل الأشياء لك!".

كانت "نوال" تعلم ذلك في قرارة نفسها، ولكنه لم يفصح بالمرة عن هذه المشاكل، لقد أصابته بالاكتئاب، لم يعد سمير كما كانت عادته معها، وهي

أيضا قد ارتكبت بعض الأخطاء بدون قصد أو تعمد، عندما كانت تشتري الأشياء التي لايستطيع شراءها لها؛ كانت هناك معارضة من والدها، كيف لها أن تذهب إليّ؟ وهي لم تفتعل أو تسبب ليّ المشاكل، ولكنه أمام إصرارها، و افق على مضض، لقد أخذ والدها يعنفها مع التقريع قائلا لها:

"كيف تفعلين هذا بنفسك؟ أن تذهبي إليه، تستعطفيه في عدم تركك، إنه لايساوي عندي كلمة تذكر".

كان رد "نوال" أكثر هدوءا من أبيها، وهي تحاول أن تخبره أن ذهابها إليه ليس للاستعطاف، بل هو لإرجاع هداياه، قائلة له في هدوء:

"من فضلك يا أبي أن تتركني، أريد فقط أفهم ماهو الخطأ الذي ارتكبته في حقه، حتى يتركني وهذا من حقي".

لها كل الحق في أن تفهم، لماذا فسخت خطوبتي عليها، كان هذا أكثر ما يزعجني، وهي عجزي عن تحقيق حلم الارتباط بها. كنت أضع في الحسبان أن الوقت سوف يطول قليلا، ولكنني وجدت نفسي أمام الباب الأمامي لفيلاتها. لقد طويت المسافات سريعا، بدون أن أدري؛ لا أريدك أن تكرهيني، بل على قدر تذكر اللحظات الجميلة، أن تجعلي لحظات رسمك للأحلام على الماء في النزهات في النيل من مرسي"صابر" هي الذكريات التي كلما ضاقت بك الدنيا أن تتذكريها، وهي التي مازلنا نحتفظ بها؛ أن تسامحيني وآلا تنتظريني، أن تبحثي عمن يسعدك، وتجعلي الذكريات طيفاً جميلاً، وآلا يعكر صفو حياتك؛ سوف يكون النسيان سريعا ربما لكِ؛ ولكنني لن أنسي ذكرياتي، أو أحلامي معك. ولن يكون هذا اللقاء الأخير بيننا، مهما طال الأمر، الرجوع أقرب من الخيال، لا تَكرهيني ولكن لا تنسيني.

الجزء الثالث

نهاية الكساد العظيم

(١)

"الشخص المهم في حياتك ليس الشخص الذي تشعر بوجوده؛ لكنه الشخص الذي تشعربغيابه" إبراهيم الفقي

أغسطس1939

لم يكن "أوجستين" سعيدا بالأموال التي يرسلها ابنه "ألكسندر"، الذي ترك نيويورك إلى الولايات الأخرى، تاركا "برونكس" في بداية الكساد الكبير، تاركا العائلة في حالة يرثى لها بعد أن تفاقمت الحالة الاقتصادية في المدن الكبرى، والتي أصابت نيويورك في مقتل بعد انهيار السوق المالي في "وول ستريت". الكل كان يظن أن الابن قد ترك والده والعائلة؛ حتى ينجو من المصير المحتوم. الطعام كان لايكفي، ومعظم الأبواب أغلقت أبوابها. المهاجرون أصبحوا بلا مأوى؛ انتشرت البيوت الكرتونية، والخيام القماشية في الشوارع. افترش الرجال والنساء والأطفال أجسادهم في الطرقات، وعلى درجات السلالم الرخامية. لقد أصاب الجميع الهزال من قلة الطعام، و أيضا من البرد الذي كان في أوج شدته منذ الشتاء الماضي إلى الآن. لم يمر يوم من الأيام إلا وهناك جثث قد ماتت جوعا. أو ماتت من شدة البرد والصقيع المتساقط في أنحاء الولايات. عمت المظاهرات في جميع أنحاء المدن الكبرى من الرجال والنساء، بعد أن فقدوا وظائفهم وأعمالهم حتى الشباب أخذ بالصراخ؛ من أجل إيجاد وظائف لهم، ومن شبح البطالة الذي أصاب الكل بدون استثناء، حتى الأطفال رفعوا لافتات تنادي بأعطائهم وظائف أخرى لآبائهم، بدلا من التي فقدت. كان الأمر الأكثر إيلاما هو البحث عن الطعام في أكوام القمامة والنبش فيها،

قبل الكلاب الضالة والقطط التي خرجت إلى الشوارع أيضا؛ بعد أن تخلى عنها مالكوها. كان الحال سيئا للغاية حتى أن "أوجستين" على وشك أن يغادر أمريكا رجوعا إلى موطنه الأصلي، كيف هذا؟ بوادر حرب عالمية اخري تلوح في الافاق في خالخين جول علي حدود منغوليا، وبالرغم من بعدها لكنها تدق بعنف على ابواب إيطاليا تحت حكم الدوتشي بعد تحلفها مع المانيا النازية تحت حكم هتلر! كان الألم يعتصره عندما أصبح الحال متكررا، كما كان الحال من قبل في إيطاليا لايستطيع إطعام عائلته؛ ولكنه كان يفكر ألف مرة قبل اتخاذ هذه الخطوة؛ لأنه مازالت هناك ديون لم تسدد للعائلات الخمس التي أصابها أيضا الكساد في مقتل، بعد أن كانت تعتمد على الديون التي لم تحصل، والاستثمار في البورصة على الأوراق المالية والأسهم التي أصابها "الثلاثاء الأسود"، و إفلاس أكثر من بنك بدون سابق إنذار، وتسريح عمال؛ كانت الشوارع مكتظة بكل أصناف البشر التي كانت تزاحم الحيوانات في منافسات لاتنتهي، واغتنام الفرص و انتهازها في الحصول على قطع من الخبز المندسة في القمامة، أو مغموسة في التراب؛ لم تتوقف الملاجئ عن تقديم قطع الخبز والحساء للمعوزين. المشهد يتكرر مرة أخرى، ولكن هذه المرة بإناس مختلفين، ومن كل الجنسيات والأعمار.

أتى نفير المعسكر يصم الآذان الذي تناثر بخيامه البيضاء على طول المعسكر الممتد من غرب السكك الحديدية، وشرق النهر الذي يشق السهول الوسطي في قلب الوسط الأميريكي؛ تحت هذه الخيام التي اختلطت ألوانها بلون أصفر كالح، تسبب في اصفرار آلاف من الشباب الذين قرصهم الجوع، وبطالة قد هزت الدولة الشابة؛ اصفرار الوجوه الملتحفة تحتها من البرد القادم من السهل المفتوح أمام السكك الحديدية الممتدة على امتداد البصر، وماوراء ذلك وهي تتلوى صعودا وهبوطا. كانت الأصوات القادمة من تحت هذه الخيام

أصوات قد أصابها النشاز الصاعد والهابط من الصدور الضامرة والمتعبة من طول ساعات العمل، مقابل وجبة ساخنة بعيدة عن النبش في أكوام القمامة، والالتحاف من برد السهول، بعيدا عن البيوت الكرتونية، كانت هي الملاذ بعيدا عن المصير المجهول. لقد غطا اثنان منا في نوم عميق بمجرد دخولهما الخيمة. أما الآخران كانا يلهثان من فرط الإجهاد والتعب، الذي تكبل فيهما، ولايريد أن يتركهما.

جاء "فرنسوا" هذا الفتي الذي لم يتجاوز العشرين من عمره، و انضم إلى مشاريع الطرق منذ نحو عامين. هذا الشاب ذو الجذور الفرنسية والمختلطة بجذور أخرى لا أعلمها، الذي أتى من لويزيانا، والذي يميل لون بشرته إلى السمار قليلا. كنت أتخيل دائما أنه ربما أمه كانت زنجية، ولكني أبدا لم أساله عن أصوله، أو من أين أتى. كان هذا لايعني ليّ شيئا على الإطلاق. على الرغم من حالة الإجهاد التي عليها، إلا أنه كان دمث الخلق، ولكنه ليس بلين العريكة. لقد دخل في مناوشات من قبل، مع القائمين على المعسكر الذي تحول إلى معسكر للجيش، ولقد تم احتجازه عدة مرات من قبل القائمين على المعسكر، كان ينظر إليّ في تمعن وهو يعدل من فراشه حتى ينام. كنت ألمح نظراته، ولكني كنت أتعمد تجاهله حتى لايسألني مجدداً عما يعتريني من أحزان دائما، ويكتنفني الغموض على حد قوله:

"بالتأكيد إنك هارب من العدالة".

لم يكن يعني لي تعليقاته؛ كنت أكتفي بالنظر إليه، و ابتسم ابتسامة خفيفة، ربما كان هذا أيضا يحفزه لكي يستفزني أكثر؛ كنت لا أعطيه هذه الفرصة، بل كنت أتعلل دائما بتعبي وإرهاقي، ولذلك كان الحل آلا أبقى أمامه، وأن أغط في نوم عميق؛ حتى لا تلحقني أسئلته المتكررة، ولكنه في هذه الليلة ترك فرشته

و اقترب مني، حتى لا ألتحف بالأغطية، وأذهب في نوم عميق قائلا لي في نبرة مرحة مغلفة بالتعب:

"ألكس إنك لا تحكي عن حياتك السابقة؟ هل لك عائلة؟ بالتأكيد لك عائلة".

كان يسأل الأسئلة، ويجيب عليها في الوقت نفسه، لم يعطيني فسحة من الوقت حتى أجيب! وما الذي تغير في هذه الليلة؟! لا أعلم. كان هناك رغبة تملكتني، أريد أن أحكي ما يعتريني من خوف أو قلق؛ كنت أبحث عن أحد، أي أحد؛ أريد أن أحكي أن ينصت أحد إليّ، كانت رغبة عارمة عندما وضع أمامي أكثر الأسئلة في الدنيا صعوبة للإجابة عليها قائلا:

"إنك هارب؟ أأنت هارب من حكم بالإعدام؟ أم أنك هارب من الحب؟".

هل يبدو عليّ أنني هارب من حكم بالإعدام، مافعلته هو أكثر من الإعدام، عندما يظن الناس و أقرب الناس إليك، أنك قد تخليت عنهم في أحلك الأوقات، ماذا سوف يكون حكمهم عليك سوى أنه يستحق الإعدام بدون رحمة، أو وضع أي اعتبارات للمغفرة. إنني لا أستحق هذا، و أيضا عائلتي لاتستحق هذا مني، ولكن هذا قد فرض عليّ. كيف تعرف أنني قد هربت من ابنة عمي، لم أرتكب خطيئة معها، ولكنها كانت تنظر إليّ على أنني منقذ هذه العائلة. كانت تنظر إليّ بتبجيل وإعجاب. الإنسان الذي لا يخطئ، كنت دائما أحاول أن أشرح لها أنني إنسان فقط، وليس بملاك، ولكن كانت نظراتها توقفني فلا أتكلم؛ ولكني أبدا لم أستغل هذا الأمر في صالحي، بل تركت الأمر كما تظن هي؛ كانت تعتيرني شهوة عميقة لها، ولكني لم أفصح عما يدور بداخلي، كانت ذكرى عمي "أبرتو" ماثلة أمامي، دائما كانت هي الرادع ليّ من عدم المساس والعبث بها، كان عمي هو الحارس لها. كانت دائما رغبات مكبوتة حتى ظننت أني سوف أجن. لم أكن أقدر على البوح بما يعتريني، كان عليّ الصمت

في ظل الظروف المتفاقمة التي تعيشها العائلة: اعترف و أقر بعد هذا العمر أنني تخليت عن أحلامي والرؤيا التي كنت أحلم بها؛ كنت أحترم هذه الأسرة التي أنتمي إليها حتى ولو أتيت على حسابي.

كان "فرنسوا" يهز بيدي، وهو ينظر إليّ يتفحصني آلا أكون قد نمت قبل أن أجيب علي أسئلته قائلا ليّ:

"ما بك يا أليكس؟ لم أعهدك مثل هذه الليلة؟".

كانت إجابتي فيها شيء من الهدوء قائلا له:

"لا شيء يافرنسوا؛ كنت أريد أن أرسل بعض الدولارات إلى أسرتي، ولكن لم يسعفني الوقت؛ لكني سوف أخذ هذا القنديل، وارتكن قليلا إلى شجرة السنديان العملاقة واكتب رسالة إليهم". كان فرنسوا ينظر إليه في إعجاب قائلا له:

"لم ألق مثيلا لك أبدا يا ألكس: إنك تقريبا ترسل كل أسبوعين بدولارات ورسائل، ولكني لم أجد منهم ردا للمعروف، على الأقل أن يسألوا عن صحتك".

كان كلام فرنسوا صحيحا إلى حد كبير، ولكن لم أرسل لهم عنو اني! كان عنو اني دائما مجهولا بالنسبة لهم. كان هذا تعمد مني لا أنكره، كنت لا أريد أن يحملوا همي أنا، بل أن يحملوا همهم فقط، وبهذه الأموال القليلة أن يتغلبوا على مشكلاتهم. لقد أرسل من قبل عدة رسائل، ولكنه كان يتحرق شوقا لكي يعرف أخبارهم. كان ينظر إلى الأمر على أنه في مهمة انتحارية، من أجل إنقاذ العائلة حتى وإن كان هو ضحية هذا الأمر؛ كان دائما ما يرتكن إلى هذه الشجرة العملاقة. كان يشعر بالدفء بمجرد الارتماء في أحضانها؛ كان يشعر دائما بالانتماء لها، ويحكي لها عن أوجاعه، لايشعر بالحرج عندما يبوح بأكثر الأسرار الدفينة التي لايجرؤ على البوح بها، كان يريد أن يحكي لها أنه يفتقد ابنة عمه

"فرانكي" وجلساتهم في أيام الصيف والحديث معها، ولن يخجل الآن على أن يحتضنها بدون خوف من عمه الحارس عليها.

لم يتخل "ألكسندر" عن العائلة؛ لم يترك والده يعاني، بل اتجه إلى أعمال رصف الطرق؛ الذي كان بديلا للحكومة الفيدرالية؛ لتشغيل الشباب. لم يصدق "أوجستين" أن ابنه قد تركه في هذه الظروف؛ لكي ينجو من المصير المحتوم ربما الموت؛ لكن كان هناك قناعة لديه أن ابنه لم يتعود على الهروب؛ كان هناك مع الأموال التي ترسل بعض الكلمات التي تطمئن "أوجستين" على ابنه قائلا له في إحدي خطاباته في نبرة حزن الفراق:

"أبي العظيم أعلم تمام العلم أنني لم أتخل عن العائلة؛ بل لقد خففت الحمل قليلا عنك، وأنا أبحث عن عمل في ظل هذه الظروف القاسية، وكان عليّ الاختياروالمكوث بجانبك أوأن أتركك، وأن أذهب بعيدا؛ للحصول علي العمل، ولقد فضلت الأخيرة أن أبحث عن عمل، ولقد وجدته في ظل البرامج الفيدرالية في شق الطرق، التي هي أنسب الطرائق الآن في الحصول على أموال الإعاشة؛ اعلم يا أبي أن ابنك "ألكسندر" لايستطع التخلي عن أسرته، بل أنا متمسك بها إلى آخر نفس في حياتي، كما علمتني يا أبي؛ مرفق مع هذه الرسالة بعض الدولارت التي سوف تساعد، ولو قليلا في تخفيف الحمل عنك. قبلاتي لكم جميعاً. ابنك المخلص ألكسندر".

لقد أخذ "أوجستين" يبكي وهو يقرأ هذا الخطاب القصير، الذي تبين منه أن ابنه قد أصبح رجلا راشداً يعتمد عليه، كان يصدق ابنه قائلا في نفسه:

"يالك من رجل يا "ألكسندر" لم أتخيل أن هذا سيكون تصرفك".

لقد كان "أوجستين" يبكي فرحا وخوفا؛ فرحا لأن ابنه قد عرف معنى المسؤولية، وخوفا آلا يرى ابنه مرة أخرى، كان هذا أكثر مايقلقه وهو يمسك بهذه الحفنة من الدولارت، وينظر إليها في تمعن، كما هو عاني في سبيل

الحصول علي هذه الورقيات القليلة في عددها، ولكنها الكبيرة في معناها بالنسبة له. إن ابنه أصبح له القدرة على كسب المال بدون وصية من أحد؛ لقد أراد أن يخفف عن والده فَماً آخر مفتوحاً، كان عليه التصرف، وهو يجد أن العائلة تتضور جوعا؛ كانت سهام التساؤلات تتصاعد من الجيران، ياله من جبان، من يترك عائلته في هذه الظروف؟ لقد أصابت هذه الأسهم "كارينا" وهم ينظرون إليها إنها لم تربِ ابنها على أهمية مساندة العائلة في وقت الشدة، كانت واحدة من جيرانها تلومها على عدم تربية "ألكسندر" جيدا قائلة لها في نبرة عتاب لها:

"لم تقومي بتربيته على الوجه الأكمل. إنه ولد عاق لايستحق الحياة".

لم تتهاون "كارينا" عن رد هذه الاتهامات الظالمة لابنها، فكانت ترد في حدة بالغة قائلة لها:

"ألكسندر رجل، وهو يستطيع أن يتحمل المسؤولية".

"كارينا" كانت توجه أشد عبارات النقد للجيران، وهي ترى من في مثل عمر ابنها "ألكسندر" لايقدرون على كسب المال، ولذلك كانت هناك من المشادات التي لاتخلو كل ليلة من هروب ابنها في هذه الظروف؛ كانت تدافع عن "ألكسندر" باستماتة بالغة؛ لأنها تعلم جيدا أن ابنها ليس بالجبان، كان الشك يساورها من وقت إلى آخر؛ لأنها لم تسمع من ابنها منذ أمد بعيد حتى ترسخ في ذهنها أن ابنها "ألكسندر" فعلا قد هرب من المسؤولية، ولم يعد يريد تحمل مسؤولية العائلة، ومن يقدر على لومه. كانت لاتخلو أي ليلة من بكاء مر، يأتي في صورة نحيب الذي ترك العائلة في هذا الظرف العصيب؛ كانت ترى ابنها الأصغر "أبرا" يأتي محتضنا أباه، كأنه يطمئنه، إنه لن يتركه مثل "ألكسندر"، كان والده يعنفه بشدة، مع صفعة قوية "لإبرا" قائلا له في حدة:

"أخوك رجل، و أنا لا أشك في رجولته".

كيف يجرؤ على التفوه بهذا الكلام السخيف، وهو يعلم جيدا أن أخاه ليس بالجبان الرعديد، كان يحدثه أن "ألكسندر" يرسل لهم بالمال، ومن العار أن تتفوه بهذا الكلام عن أخيك؛ وإن كان في مثل سنه سوف يفعل أكثر من ذلك؛ حتى لايتضور أحد من الجوع. كان هناك الفزع من الابن الأصغر، وهو يرى هذه القناعات لدى والده. لقد رأى هذه التعابير على وجه والده لأول مرة، وهو يراه يبكي بكاء مراً، عندما آتت أول حوالة على البريد بأموال من "ألكسندر" كانت بالنسبة لأبيه ليست الأموال هي المهمة؛ بل إنه أثبت أن ابنه كان على قدر المسؤولية، ولم يهرب. كان هذا أكبر عزاء له، كانت "كارينا" بقدر ماهي سعيدة على الأموال القليلة المرسلة، إلا إنها أصابها نوع من الحزن الشديد، كيف تشك للحظة واحدة أن ابنها أصبح جبانا. والآن هي تندم على هذه اللحظات؛ لقد اعتذر "إبرا" مرارا وتكرارا إلى أبيه، لكي يسامحه على سوء الظن بأخيه قائلا له في اعتذار:

"أبي أنا آسف لا أقصد أن تغضب مني ولكن--".

لم ينتظر "أوجستين" أن يكمل "إبرا" اعتذاره، كان يحتضنه في رقة شديدة، ويخبره أن من يستحق الاعتذار هو أخوه، وليس شخصه. وعندما يأتي الاعتذار، سوف يكون من كل العائلة.

كانت "فيولا" تنظر إلى ابنتها التي تجاوزت العشرين بقليل "فرانسيسكا"، قد أصبحت فتاة ممشوقة القوام؛ لكنها مازالت البنت الهادئة ذات العيون الأخاذة، لقد لقنت كل أنواع التحصينات من والدتها، كانت دائما تحذرها من الكلام المعسول، الذي ينتهي دائما إلى كوارث قائلة لها في حزم:

"لا تنصتي إليهم، إنهم يبحثون عن المتعة الرخيصة، لاتقعي في براثن معسول الكلام".

كانت "فرانسيسكا" تعي هذا الكلام جيدا، وترى كل يوم حجم المآسى التي تقع فيها بنات الحي في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة. و أيضا لم تتخلى عنها "كارينا" بأي نصيحة من أمالي ابنتها؛ كانت "كارينا" ترى أن ابنها "إبرا" عندما يتزوجها سوف ينتبه إلى "فرانسيسكا" ولن تغيب عن عينيه، مادامت أصبحت زوجته في الوقت نفسه حتى . أيضا. يبتعد عن العصابات المنظمة التي انخرط فيها مؤخرا. كان هناك شعور خفي أن ابنها الأكبر "ألكسندر" يستحق أفضل منها، كانت تبحث عن زيجة لابنها من ابنة العائلة الثرية؛ لأنه يستحق الأفضل؛ كانت "فرانسيسكا" مطمعا لكل شباب الحي، الذين كانوا يبحثون عن المتعة الحرام في هذه الظروف القاتلة؛ كانت توعد بالعيون، ولكن لايجرؤ أحد على الاقتراب منها؛ كانوا يعلمون تماما أن لا أحد يجرؤ على الوقوف في ساحة "إبرا"؛ كانت "فيولا" تريد أن تزوجها بأي شكل من الأشكال، كانت تريد "ألكسندر" أن يتزوج ابنتها؛ لأنها من وجهة نظرها أنه أقرب إلى أبيه في تقدير قيمة العائلة والحفاظ عليها، مهما كانت الظروف أكثر من "إبرا". إنه متهور بعض الشيء، و انضمامه إلى العائلات الخمس قد أصاب والده بالهلع؛ لقد حذره عدة مرات من الوقوع في براثن هؤلاء منزوعي الرحمة قائلا له ومحذرا:

"سوف تكون نهايتك المحتومة في الاقتراب منهم".

كم عدد المرات التي أتى فيها "إبرا" مصابا إلى البيت، كان نصيبه دائما بشكل أو بآخر مميتا؛ الدماء كانت تسيل في الطرقات من محاولاته في تحصيل الديون من المتوقفين عن سداد ديونهم لهؤلاء. ربما كان هذا السبب الذي جعل العائلات الخمس تغض الطرف عن "أوجستين" والعائلة في ديونهم المتوقفة عن السداد منذ سنوات.

"فرانسيسكا" بالرغم من هدوئها المصطنع، إلا إنها كانت تطمع أن يكون "ألكسندر" من نصيبها، أن يكون زوجها، كانت رغبة مشتعلة في جسدها البض المثير، كانت تبحث عنه في ليالي الصيف، بعد أن ينتهي العمل في المخبز، كان أكثر مايسعدها عندما يقف منتصبا، عندما يراها تصعد الدرج الخشبي يترك الكرسي لها، ويأتي بآخر ليجلس بجوارها، ناظرا إلى النجوم أو القمر المشع بنوره، فيلقي بظلاله على لمعان عينيه. كان يصيبها بالجنون، لم يحاول في مرة أن يقترب منها، كانت تريده بشدة. كان طيفه لايغادر مخيلتها أبدا. قائلة له في حنان واضح وتودد عميق يغلف كلامها:

"ألكسندر اقترب أكثر حتى أتأملك أكثر، تعلم أنني أشتاق إليك كثيرا".

"ألكسندر" كان لايجرؤ على مجاراتها، بل كان يحترم عدم وجود عمه، كان يشعر بوجوده على الرغم من مرور سنوات على وفاته، ولكنه كان دائما يشعر بوجوده في حضرتها، وكان هذا ما يردعه قائلا لها في تحفظ واضح:

"طبعا بالتأكيد، أنت أيضا افتقدك كثيرا، عندما أريد أن أتحدث إلى أحد قريب من قلبي ياابنة عمي، لكن المسافة التي بينا سوف تظل هكذا".

لم يعطيني ما أريده من إجابة، لقد حدد إطار هذه العلاقة من البداية، قائلا لي:

"ابنة عمي".

لم يقولها ليّ "حبيبتي" إنني أشتاق إليه. إنه قوي يستطيع أن يسيطر على مشاعره أمامها، على الرغم من أنها تعلم أنه قد يبادلها المشاعر نفسها، وحب الارتباط بها، كانت تحدثه عن أحلامها وبفارس أحلامها، وتحكي وهي تمعن النظر إلى عينيه وتقتحمها بقوة قائلة له:

"ألكس فارس أحلامي يجب أن يكون مثلك، بل أن تكون أنت".

كان أمام هذه الكلمات يطرق برأسه إلى الأرض، ولايستطيع أن يبادلها أحلامها، كان ينظر إلى الأمر على أن الحب ترف، لايملكه أمام هذه الظروف، التي تمر بها العائلة. كم من مرة تحدث إليها بأن أمر الحب الذي بينهما يجب أن يؤجل قائلا لها:

"يوجد من هو أفضل مني في هذا المضمار؛ ولكنني أريدك أن تعلمي أنك سوف تظلين بالنسبة لي "فرانكي" الصغيرة".

كنا صغاراً في أعمارنا، ولكنا كنا كباراً في مشاعرنا؛ كنت لا أخجل من مشاعري، بل لا أجد تحفظاً على ذلك، كان يسعدني، كنت أسعد بهذا الاسم بشكل غير عادي، وخاصة عندما يأتي من فم "ألكسندر" كنت أحس بدلال البنت الصغيرة أمامي، ولكنه لم يبح بما يكنه في نفسه، أو بكلمة حب، بل كان يتحاشي الأمر كلية. كان هذا أكثر إيلاما لي، لكني كنت أحترم هذا فيه؛ كان أكثر ما يؤرقها هو "أبرا" نفسه، عندما يأتي متطفلا، فتنقطع هذه اللحظات الثمينة، حتى يغادر مرة أخرى بعد أن يلقي نكاته الفجة.

إن "ألكسندر" رقيق المشاعر، يعرف كيف يتحدث، إنه مرهف الحس؛ يقرأ كثيرا، يراعي مشاعر الآخرين بطريق لايصدقه عقل. إنه أكثر حنانا من أخيه الأصغر. يعرف المسؤولية جيدا، ليس بالجبان. كما كانت البنات في مثل سنها عندما يتجمعون في الحديقة العامة القريبة من الحي يقولون لها كانت تدافع في ضراوة عنه، كان إصرارها، إنهم لايعرفونه جيدا، إنه رجل منذ أن كان طفلا في روما، كانت تظهر عليها علامات الحب والتفكير به، بمجرد ذكر اسمه أمامها قائلة لهم:

"إذا أردتم ان تعرفوا رجلا، فيجب أن يكون ألكسندر".

إنها تحبه بكل جوارحها، ولاشك في ذلك. الكل يدرك ذلك، وكم من المرات التي أفصحت فيها أنها لاتحب "إبرا"، فهي لاتحب الابن الأصغر؛ لأنه في نظرها

لايعرف الحب، ولايعرف كيف يدلل أنثى؛ كانت ترى أنه مجرم فظ، لايعرف الكلام الرقيق مثل "ألكسندر". كم مرة حاول أن ينال منها، كم من مرة ضُبط متلبسا من "كارينا"، وهو يتلصص عليها من فتحات الباب في تغيير ملابسها، كانت حادثة أصابت "إبرا" بصداع مزمن من قوة صفعة "كارينا" قائلة له في عنف:

"أنت خنزير قبيح؛ تتلصص على ابنة عمك من خلف الأبواب؛ إنك لاتستحق أن تكون تحت سقف هذا البيت".

لم تطمئن حتى قام "أوجستين" بوضع ألواح جديدة من الخشب على باب غرفة "فرانسيسكا".

كم من الوقت مر على "أوجستين"، لم يعد يتذكر، بل هي أكثر من ثمان سنوات، منذ أن ترك "ألكسندر" العائلة، وتركهم ولم يتوقف عن إرسال الأموال إليهم، حتى انقشعت ظلال الكساد الكبير الذي طال كل شيء. "الخطة الجديدة" التي أقرها "روزفلت" قد أتت بثمارها في وقت قليل.

كان "أوجستين" يريد أن يرى ابنه "ألكسندر"، كانت هناك أمنية لاتنقطع عنه، أنه يريد أن يرى ابنه يترك له القيادة لهذه العائلة. ولكن بعد مرور ثمان سنوات جعلت أمنيته تتبخر، كانت السنين تمر. أصبح لدى "أوجستين" قرار أن يزوج ابنه "إبرا" الذي تجاوز ستة وعشرين عاماً من "فرانسيسكا" التي قاربت علي العشرين. على الرغم من التقارب في السن، والاختلاف في السلوكيات والأخلاق المتباينة بينهما، والتنافر الواضح، إلا أنه كان يريد أن يحافظ على تماسك العائلة. ابنه الأكبر "ألكسندر" قد طالت غيبته، ولم يعد قادراً على رفض الطلب المتكرر من ابنه الأصغر بالزواج من "فرنسيسكا"، قائلا له في حب حتى ينال مراده كماهي عادته:

"زوجني فرانسيسكا، سوف تكون في رعايتي، سوف أكف عن أفعالي الطائشة، سوف أنتبه إليها".

كانت تماطل بكل الطرق، حتى يعود إليها "ألكسندر" كان لايعينها فارق السن، الذي لايتجاوز بضع سنين. لاتعنيها هذه التوافه من الأمور، مادامت قادرة على الاستمرار في حبها له قائلة إلى أمها مرات كثيرة في حنان وتوسل:

"أتريدون أن أكون لهذا الشخص الذي لايعرف شيئا سوى الخداع والغش ولايعرف الحب".

كانت تعني كل كلمة مما تقوله، الأحاديث الدائرة والأخبار المسربة بمدى انحطاط أخلاق "إبرا"، وانخراطه الإجرامي مع العائلات الخمس في الأعمال الخسيسة. لكن هناك الرغبة المستعرة من "أبرا"، إنه سوف يتزوجها مهما طال الوقت. كان يعلم أنها لاتحبه! ولكن كان هناك رهان بينه وبين قرناء السوء. إنها في الآخر سوف تخضع إلى رغبته المريضة، كان كلام الأخوة له يستفزه بشكل واضح قائلين له:

" لن تتزوج فرانسيسكا، إنها لاتحبك وتكرهك بشدة".

كان رد "إبرا" عنيفا لهم في كل مرة، قائلا لهم في غروروواضح:

"مهما طال الوقت سوف تخضع لما أريده".

كان هدف "إبرا" هو ليس الزواج بها والاستقرار، ولكنه كان يفكر فقط في إذلال نفسها والانتصار لكبرياءه، والغرور المتأصل فيه؛ كم كانت المواجهة حامية الوطيس بينها وبينه، وأفصحت عنها بأنها لاتحبه، وعند الزواج منها بدون رضائها سوف يكون هذا اغتصاباً شرعياً، وكرهاً دائماً له. كيف يقبل على نفسه هذا الوضع؟ لقد كررت هذه العبارات مرات ومرات؛ ولكنه أفصح بما هو أخطر أن أخاه لايحبها، بل هي تتوهم هذا قائلا لها في حدة:

"ألكسندر(القديس) لايحبك، ولن يعود، لقد مات".

كانت صدمة كبيرة لها، وهو يردد أمامها إن أخاه قد مات، ولكنها كانت تعلم أنه يكذب ولايعني هذا الكلام، وزاد الأمر صعوبة عندما صرخ في وجهها:
"أن أخاه يكون قد تزوج غيرها، ولايفكر فيها، إنها تتوهم وتعيش في خيال الحكايات، التي كانت تحكي في الماضي عن سندريلا".
كان اللقاء عاصفا، قائلا لها في سخرية واضحة:
"ربما لم يمت، بل بالتأكيد قد تزوج بأخرى وربما عنده أولاد".
كانت تتمني آلا يكون قد تزوج بأخرى، وآلا يكون له أولاد إلا منها، هي فقط كانت أنانية، ولكنها أنانية محببة إليها، كانت تنظر إلى "إبرا" على أنه شخص مريض، يحتاج إلى رعاية عقله، لقد اقترب من الجنون المحتوم قائلة له في حدة وسخرية:
"أنت بالتأكيد مريض؛ أنت يجب أن تدخل "فورست هافن" المصحة العقلية؛ انظر إلى نفسك، إنك تكره أخاك بشدة، إنك مريض، إنك مريض".
كانت لاتجد في نفسها القابلية لتصديق كل هذه الأكاذيب؛ لم يكن لها رغبة أن تجدد عدم تصديقها هذا الأمر، الذي كان يؤرقها بضراوة:
" ماذا لو تزوج فعلا؟ سوف أكون حبيبته في الظل وإذا لم يرض سوف أكون عشيقته".
لقد طالت غيبة "ألكسندر" حتى بعد رجوع الأمور إلى نصابها؛ وعمل المخبز الذي جدد بعد أن استطاع "أوجستين" الاقتراض من البنك لتجديده، و أيضا بدفع بعض الديون التي مازالت للعائلات الخمس التي عادت إلى ممارسة نشاطها بصورة أكثر ضراوة عن ذي قبل، بل زادت في الفوائد على القروض، بعيدا عن البنوك، وكم من جرائم قتل ارتكبت في "برونكس" بسبب الديون التي لم تدفع؛ كان لايمر يوم إلا وتجد الشرطة جثة شخص ممددة في قلب شارع. كانت الشرطة متواطئة مع العائلات الخمس، وكانت لهم مرتبات شهرية

من رؤساء المنظمات في التغطية على الجرائم التي ترتكب، كان "الفاعل مجهولا"، و"لاتعلم أسباب الانتحار" لعل السبب: "سكتة قلبية".

تعددت الأسباب؛ كان الإلحاح قد طال في عبارات قد تكررت عدة مرات طوال السنين الماضية إلى "أوجستين" من رغبة "إبرا" قائلا له في خبث تكرر دائما لقد لاحظه والده:

"زوجني فرانسيسكا يا أبي، وسوف أتخلى عن حماقاتي وطيشي. صدقني ياأبي".

كان يجب وضع حد لهذه المسألة العالقة. كان الحديث مملوءاً بالحنان بين "أوجستين" و"فرنسيسكا"، كان دخوله إلى غرفتها من المرات القليلة، لم يدخل غرفتها إلا بعد أن استأذن منها في الدخول، وهي تضع "الروب" الذي اشتراه "ألكسندر" في أحد أعياد الميلاد قبل تركه للأسرة، كانت هديته منه إليها. كانت تحتفظ به بعد هذه السنوات الطويلة، والتي جاء بعدها إليها بهدايا أخرى تشبه هذا "الروب"، ربما أجمل منه شكلا، ولكنها كانت تحس بلمسات "ألكسندر" على هذا "الروب"؛ كانت تحس بأنفاسه داخل هذا النسيج؛ هذا "الروب" الذي كانت الذكرى تثيرها بمجرد احتضانه قائلا لها في حنان:

"فرانسيسكا، ابنتي أريد أن أتحدث إليك قليلا".

بالتأكيد، إن أمرا جللا قد حدث، أن يأتي "أوجستين" إلى غرفتها، كان صوتها يوجد به الحيرة والتساؤلات، لماذا يأتي عمي إلى غرفتي في هذا الوقت، كانت لاتريد أن يرى عمه هذا "الروب، ولكنها لم تستطع أن تخبئه قائلة له في خوف وقلق:

"لحظة واحدة ياعمي، تفضل بالدخول".

كان دخول "أوجستين" في هدوء؛ حتى لايجعل قدومه إلى حجرتها فيه شيء من الإزعاج لها. حاولت أن تدس "الروب" بعيدا، ولكنها فشلت.

كانت لاتريد أن يرى عمها "روب" الذي ترتديه، ولكنها لم تفلح في مسعاها، لم تستطع أن تخبئه عن عيونه بمجرد دخوله إلى غرفتها.

لقد انتبه "أوجستين" إنها تحاول أن تخبئ "الروب"؛ حتى لايقع عينيه عليه، أو أن يفسر الأمر بشكل خاطئ، ولكنه تجاهله. وحاول أن يشرح لها أن "ألكسندر" قد طالت غيبته، وعليه آلا تنتظره أكثر من ذلك، وأن ابنه الأصغر "إبرا" سوف يحافظ عليها، بالرغم من تهوره، ولكنها بما لها من قدرة على احتوائه، سوف يكون من الأفضل الزواج به. قائلا لها في حب وود واضح:

"ابنتي تعرفين أنني أحبك كثيرا؛ لقد طالت غيبة ألكسندر، ولا أعلم متى يعود؛ أريد أن أطمئن عليكِ؛ أعرف أن "إبرا" لايحظى ببركة القديسين، وليس هو الرجل الذي تحلمين به كزوج؛ إنه يوجد به كل العيوب والخطايا. ولكن أعرف أنك تتمتعين بالذكاء الذي من الممكن أصلحه مع العِشرة والحب، سوف ينصلح حاله. أنا لا أرغمك على شيء ضد إرادتك، بل أريد أن تفكري قليلا قبل الرد بنعم أو لا".

كان "أوجستين" يعني كل كلمة يقولها، لقد أحجم شباب الحي عن الاقتراب منها، خوفا من بطش "إبرا" الذي أمعن في بطشه. قائلا لها في حزن داخل نفسه، ولايستطيع أن يظهره أمامها:

"لقد طرد كل شاب صالح في هذا الحي، بعيدا عن "فرانكا".

كان يعني كل كلمة قالها، لقد بث "إبرا" الرعب في شباب الحي، بمجرد أن يفكر أحد في أخذ "فرانسيسكا"، بل من أن يقترب منها قيد أنملة؛ لأنه لايوجد أحد في الحي يستطيع أن يتزوجها، وإلا سوف ترتكب مجازر. والحب مع طول العشرة سوف يأتي. عليها آلا تتسرع في الحكم على "إبرا"، إنه في النهاية إنسان، يبحث عمن يبادله الحب، كانت تحاول أن تخبره أن "إبرا" لايناسبها، ولكن الكلمات قد عقدت على لسانها، قائلة له في حزن واضح:

"يا أبي إني ....".

كان "أوجستين" يعلم تمام العلم ما الذي تريده "فرانسيسكا"، إن ما تقوله كان يشعر من كلماتها أنها لاتطيق ابنه الأصغر؛ على الرغم من بعض العيوب فيه إلا أنه في النهاية من عائلة "أليسندرو" التي تقدر وتحترم النساء والعائلة. كان "أوجستين" مكملا على كلامه، قائلا لها في حكمة رجل له تجارب الدنيا:

"أعلم يا ابنتي ما تحاولين أن تقوليه؛ أعلم تماما العلم أن ابني ليس بالقديس؛ لقد بث الرعب في شباب الحي، لكل من يجرؤ بمجرد التفكير فيكِ وليس بالزواج منك؛ ولكنه يظل من عائلة "أليسندرو" التي تقدر النساء وقيم العائلة، ويوجد شيء آخر أعلمه تماما أن الحب لايشترى، وأن ما بداخلك هو شيء يخصك أنت فقط، ولا حتى "إبرا"، ولكن أن تخفي هذا الآن، سوف يكون في صالح هذه العائلة. إنها ليست بخيانة، ولكن في بعض الأحيان الاختيارات تجبرنا على قبول أمور في حقيقية الأمر لا نقبلها".

كانت "فرانسيسكا" تحاول أن تشرح له أن "إبرا" ليس بالزوج، لكي تختاره لنفسها، إنها تريد "ألكسندر" ولكنه أين هو "ألكسندر"؟ لقد طالت غيبته محاولة أن تقول له، ولكن الكلمات قد عقدت علي لسانها:

"أبي أرجوك، اسمعني أن "إبرا" ليس ....".

لم تستطع أن تكمل عباراتها، لقد أخرسها "أوجستين" كان الكلام نابعاً من قلب أب، وليس من رجل يفرض آراءه؛ بعد الحديث ترك لها حرية الاختيار والقرار. ولكن بالنسبة لأنه رجل إيطالي، يريد أن تستقر الأمور في العائلة، حتى تستمر سلالة "أليسندرو" جيلاً من وراء جيل، لقد عاجلها بكلام آخر قائلا لها:

"اعلم يا ابنتي ما تحاولين أن تقوليه؛ لكن لا تتسرعي في حكمك. اجعلي لنفسك فرصة حتى تتخذي قراراً واضحاً".

"فرانسيسكا" كانت تبكي بحرقة على هذا المصير المجهول؛ كانت لاتستطيع أن تنكر دور عمه في الحفاظ على كيان هذه الأسرة؛ لاتستطيع أن تنكر أنها كانت في أشد الاحتياج إلى أب ووجدت "أوجستين" هذا الأب، الذي طالما أغرقها بحنانه، في أشد لحظات الاحتياج إليها. لم يفرق في المعاملة بينها وبين الولدين، بل كان يفضلها في كثير من الأوقات عليهما. كان إحساسه بالأبوة وخاصة لها وهو يطعمها، كان يشعره أن أخاه قد ترك له جوهرة ثمينة، يجب الحفاظ عليها. كانت تجلس في حجره، وهي ترفع شعره إلى أعلى تارة، وتارة أخرى على جوانب شعره في أشكال برؤوس مدببة. كانت تضحك بشدة، وهي تتذكر هذه الأيام الخوالي، عندما يصيح "أوجستين" ضاحكا في صوت عالٍ قائلا لها:

"يكفي هذا أيها العفريتة الصغيرة، لقد حولتيني إلى شيخ المهرجين".

كانت "فيولا" تشعر بالسعادة، عندما ترى في هذه اللحظات الفارقة في عمر طفلة يتيمة كان "أوجستين" أكثر من عم لها، بل كان أباً بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، لم يقصر معها، بل كان في بعض الأحيان يفضلها عن أبنائه؛ كان يشم فيها رائحة أخيه الذي انتحر. كان هذا العطف يجعل قلب "كارينا" تدب فيه الغيرة، كم وقفت أمام نفسها وتسأل نفسها عدة مرات:

"أتغارين من هذه الطفلة؟ أتغارين على زوجك منها، إنك مريضة يا كارينا".

لقد اقتربت عدة مرات من زوجها في دلال وخبث الأنثى، حتى ترى ردة فعله قائلة له: "إنها تأخذ من وقتك أكثر مما أخذه أنا".

لقد حاول "أوجستين" أن يشرح لها إنها في أشد الاحتياج إلى العطف، بعد انتحاروالدها ولم يتبق لها إلا هذه العائلة، قائلا لها في حنان ولؤم بالغ:

"أتغارين من ابنتك ياامرأة، إنها يتيمة الأب، وتحتاج إلى حنانك قبل حنان (فيولا)".

إن "أوجستين" لم يكن في يوم من الأيام عمه، بل كان أبوها الذي لم تره؛ كانت كلماته تؤسرها، ولكن كيف تطيعه في عصيان قلبها؟ كيف تستطيع أن تنسى "ألكسندر"؟ كيف تستطيع أن تخونه؟ لا تستطيع! ولكنها العائلة! لقد تحولت الاختيارات إلى مصير، لم تكن تتخيل أن هذا الخنزير لن يجرؤ على الاقتراب منها، وأن تصبح زوجته في يوم من الأيام! فهو بعيد حتى عن فتى أحلامي؛ الذي هو "ألكسندر"، هو القريب من قلبها، لكن لا أحد سأله مرة واحدة هل أنت تحب "فرانكا"؟ ربما جاء الجواب بلا. أو ربما كان أخفى مشاعره بعيدا عن أعين المتلصصين.

كانت لحظة فارقة في زواج "فرانسيسكا" و"إبرا" في الكنيسة القريبة من الحي التي ساهم في بنائها كل سكان الحي، وكان افتتاحها وبداية الصلوات فيها بداية بزواج الاثنين فيها، كانت المناسبة مناسبتين، افتتاح الكنيسة والزواج. كانت لحظة فارقة. لقد سد الشارع في هذا اليوم، ومنعت منه السيارات، وتزين الشارع بالأنوار الملونة، ونصبت طاولات كبيرة بطول الشارع لإقامة احتفال كبير، رصت عليه أصناف كثيرة من الطعام. وكانت هناك مشاركة من العائلات بأصناف كثيرة من أرض الوطن، تفنن فيها النساء. تم دعوة رؤساء العائلات الخمس، كانت مرحلة من الهدنة بينهم، كان الجلوس بترتيب الأكبر سنا واحتراما له كان يتصدر المشهد. كان الكل يظهر احترامه وتبجيله لبعض الشخصيات التي لها تأثير في "برونكس"، كان شم ظهر اليد نوع آخر من التبيجيل. وانتشر أيضا بعض رجال الشرطة حول الشارع؛ لتأمين المكان.

انتشر بعض الرجال المدججين بالسلاح من العائلات الخمس فوق أسطح المنازل؛ كانت سمعة "أوجستين" بأنه رجل لايهاب أحدا، وكان له من الهيبة التي تجبر أي واحد على احترامه؛ ولكن أيضا وجود "إبرا" كان له مفعول السحر في التأكيد على هذه المنزلة.

كان الاحتفال كبيرا، ولم يقطعه إلا صوت رصاصة اخترقت الموسيقي الصادحة، التي توقفت فجأة والكل هرع في فزع إلي المكان الصادر منه الرصاصة التي شقت جو الاحتفال! كانت الجثة مصابة بطلق ناري من الظهر لم يظهر وجه القتيل، إلا بعد أن أدار أحدهم الجثة على الوجه الآخر! لقد أصابهم الفزع! إنه "ألكسندر" الذي كان يتوق للعودة ولكن الوقت لم يسعفه حتي يري عائلته مرة اخري؛ كان جثة هامدة في رجوعه بعد أكثر من عشر سنوات، كان غارقاً في دمه مع صرخة مفزعة من "فرانسيسكا" وهي تحتضنه، وتلتطخ الفستان الأبيض بدمائه، قائلة في صراخ وحزن يمزق نياط القلب:

"لا... لا.. لايمكن أن تموت! لماذا لا أكون أنا؟!!؛ كيف تموت الآن؟!! كيف تتركني الآن؟!

منزل جونزاليس

(٢)

"الرجولة معناها أن تكون مسؤولا أولا وأخيراً عن أفعالك"

مصطفي محمود

ديسمبر١٩٩٥

أسابيع قليلة مرت على وجودي في أمريكا، لقد قربت أعياد الميلاد على الاقتراب ومازلت أبحث عن عمل آخر يشغل ساعات النهار، حتى أستطيع أن أدفع إيجار الغرفة وما أحتاجه؛ كانت الاتصالات التليفونية إلى أمي أكثر إيلاما في المرة الأولى؛ لكي أطمئنها أني قد وصلت سالماً، كدت لا أفهم شيئاً من هذا الاتصال التليفوني الذي جعلني أبكي؛ كانت تحثني أنه في حالة عدم توفيقي آلا أنتظر حتى تسوء الحالة، أن أنزل فورا بدون تردد إلى مصر. كانت المكالمة يوجد بها كثير من الخوف، وكثير من الاحباط؛ آلا أقلق في حالة عدم وجود أموال معي، آلا أتردد في طلب أي مبالغ مالية، وهذه هي الحقيقة! كانت لقد قاربت الأموال التي كانت في حوزتي، والمبلغ المالي الذي أصرت أمي أن آخذه قبل سفري، قائلة لي في حزن، ولكن في إصرار:

"احتفظ بهذا المبلغ من المال، سوف تحتاجه".

كنت أحاول إقناع أمي أن المبالغ التي معي تكفيني قائلا لها:

"يكفي المال الذي معي، سوف أجد عملا بمجرد وصولي إلى هناك".

لم تقتنع بهذه المبررات، كانت تعلم على الرغم من تعليمها المتوسط أن العمل ليس بالسهل والهين في مثل ظروفي أنا، قائلة لي في إصرار:

"انصت إليّ ولو مرة واحدة في حياتك، لن يكون لك عمل بمجرد خروجك من باب الطائرة.

قائلة لي في حزن وإصرار:

"احتفظ بهذا المال، ولاتجعلني اغضب منك".

لقد حاولت أن أقنعها أن المبالغ التي معي تكفي، ولكن ردها كان عنيفاً ليّ، وفي إصرارقائلة لي:

"انصت ولو مرة واحدة في حياتك لما أقوله".

أمام إصرارها لم أجد مفراً من قبول هذا المبلغ من المال؛ لا أنكركان المبلغ الذي أخذته من والدتي كبيراً، وكان قد قرب على الانتهاء، ليس من تبذير! ولكن من غلاء المسكن والتنقلات، وليس من الملابس أو الطعام! لقد أصابني اليأس من قبل، ولم أتنازل عن أحلامي بل زادت مني صلابة. يذكرني أخي "علاء" بأنني ابن محارب صلد شجاع، ولايستطيع أن يراني أهزم مع أول جولة. كانت كلماته تحفزني إلى أقصي حدود؛ لقد نصحني بعض الذين تعرفت عليهم في المركزالإسلامي بعد أداء صلاة الجماعة. وهذا ما وصتني به أمي:

"أن أحافظ على الصلاة".

بعد أن انتهيت من الصلاة خلف الإمام من بنجلاديش، الذي كانت خطبته باللغة البنغالية ماعدا دعائه الذي ختمه بالصلاة على النبي. الجلوس قليلا في المركز جعلني مركز انتباه لباقي المصلين، هذه أول مرة يجدون شخصاً غريباً يحافظ علي صلاة الجماعة على التوالي. الاقتراب مني كان فيه نوع من الحذر. وكان هذا مقبولاً في هذه الظروف، فهو مجتمع يشوبه الحذر والحيطة. وتم التعرف بيني وبين المصلين الذين لم يندهشوا من وجود مصري بينهم لأداء الصلاة. وكانت النصيحة أن أتقدم بطلبات العمل إلى الفنادق وخاصة. إن فترة الأعياد قد قاربت و اكتساب بعض المهارات الأخرى؛ وهذا ما فعلته في الأيام الماضية، تقدمت إلى عدة فنادق في نيويورك ومانهاتن؛ طمعا في وظيفة. ربما بدوام جزئي. وإن حالفني الحظ ربما بدوام كامل كان للأوراق التي أحضرتها من

السفارة الأميريكية عامل مهم للمساعدة منها، استطعت استخراج رقم الضمان الاجتماعي، الذي هو حجر الزاوية في إقامتي في البلاد، وفي انتظار الخروج من هذا المأزق ربما يأتي من مكالمة تليفونية.

رجوعي إلى حجرتي بعد يوم شاق في محطة انتهاء الوردية المسائية، أشعة الشمس علي استحياء تلسع العيون بأشعتها، على الرغم من ضعفها ولسعات البرد قد وصلت إلى وجنتي وجعلتهما قد أصابهما بالتيبس؛ كان الشارع قد ازدحم قليلا بسبب من خرجوا من منازلهم إلى أعمالهم، سواء عن طريق الحافلات أو الحافلات المفصلية، أو إذا كان من مترو الأنفاق (SUB WAY). كنت علي وشك الإغماء من فرط التعب والإرهاق؛ محطة البترول لست بعيدة عن منزل"جونزاليس". البحث عن عمل كان الهم الأول لي بعد أن وصلت إلى مطار (J.F.K)؛ لقد سألني السائق قبل ركوبي سيارة الأجرة (السيارات الصفراء) إلي أين؟ لقد نظر سائق السيارة طويلا إليّ قائلا لي في ارتباك:

"أين سوف تنزل ياسيدي؟ أما إنك تبحث عن فندق؟".

لم أعرف أي شيء؛ قلت له لا أعلم؟ كان ردي عليه أيضا في منتهى الارتباك قائلا له:

"لا أعلم".

لقد أصابه أيضا ردي بالارتباك، قبل أن يهدأ قليلا. كان رجلا قد تجاوز الخمسين من عمره من (السيخ)؛ وهي طائفة من الطوائف الدينية الهندية أسمر اللون قليلا، طويل القامة كأنه أصابه الهزال، ويضع علي رأسه عمامة بيضاء، تبدو لي أنها طويلة جدا (التربويون)، وهي عمامة من القماش خاصة لتغطية شعورهم فهي لهم منبع قوتهم؛ ويرتدي نظارة بيضاء طبية وسوار معدني حول رسغه؛ لم يناقش، بل انطلق في الطريق بعد أن عرف أنني من

مصر الأهرامات والجمال ونهر النيل، حاولت معه إنها ليست فقط أهرامات وجمال ونهر النيل قائلا في ابتهاج واضح:

"مصر النيل والأهرامات والجمال يالها من بلد مملوء بالرمال، بلد جميل".

كنت أحاول أن أشرح له أن مصر ليست فقط هذه الأشياء، و أيضا ليست مملوءه بالرمال كما يتصور كل الناس في أميريكا، ولكنها أكثر من ذلك. ولكنه كان لاينصت أبدا، بل أخذ في الثرثرة التي لم تنقطع، إلا عندما أخبرته أنني أبحث عن سكن قريب من نيويورك قائلا له:

"إنني أبحث عن سكن ليّ قريب من نيويورك".

كنت في أمس الحاجة إلى الراحة؛ أريد فقط الراحة بعد معاناة السفر لمدة تزيد عن ثلاث عشرة ساعة من القاهرة إلى نيويورك. وكان السؤال قد أصابه في فمه الذي لم يتوقف عن الثرثرة التي لم تنته، أخذ برهة للتفكير، كان رده أنه من الممكن الإقامة في أحد الفنادق الرخيصة نوعا ما قائلا لي في هدوء:

"فلكن إقامتك في فندق صغير. أليس كذلك؟"

كنت لا أريد أي من الفنادق، بل كنت أريد شقة صغيرة، أو غرفة على أقل تقدير، قائلا له في إصرار:

"لا أريد فنادق، بل أريد شقة صغيرة أو غرفة في بيت".

كان وجهه ينطق بالامتعاض؛ لأني قد حرمته من العمولة التي سوف يأخذها من الفندق؛ لكن ردي لم يكن مقنعا له؛ إنني سوف أقيم لفترة لست بالقليلة، إنني مهاجر جديد، ولذلك أبحث عن سكن دائم ومستقل، قائلا له في شبه غيبوبة:

"أنا و افد جديد، أبحث عن الاستقرار"

كأنه لم يتنبه إلى كلماتي، ربما من كثرة قيامة بتوصيل عدد ليس بالقليل من هؤلاء المهاجرين، الذين يأتون من كل أنحاء العالم! لقد ألف هذه الكلمات جيدا، ولم تعد تهزه كما كانت من قبل! لقد أصبحت مثل الإسطوانة المشطورة وليست المشروخة؛ لم تهزه الكلمات لقد سمعها مرات عديدة، لقد غلب عليه الصمت. كأنه كان يفكر في أمر ما؛ وبعد برهة أخذ يضحك في شدة كأنه يتذكر أمراً عجيبا صائحا "يوريكا" مثل أرشميدس لايوجد غيره، من ينقذنا من هذه الورطة "جنرال جونزاليس" قائلا في فرح شديد:

"لا يوجد غيره من ينقذنا من هذه الورطة؟ إنه الجنرال".

لم أعِ جيدا مايقوله؟ ولكن فتحت عيني في سرعة، وأن أسمع كلمة "جنرال" أهي رتبة عسكرية؟ أو أنه لقب مثلما يطلق عندنا في مصر، وهي أسماء ليست على مسمياتها كما يقولون! لقد فتحت فمي على مصراعيه أول لقاء لي في أمريكا يكون مع جنرال؟؛ لم يجب مرة أخرى، بل انطلق بأقصي سرعة قطعا المسافات مثل البرق؛ كان كل شيء في هذه الساعة من الليل هادئا على الطريق؛ الطرق الدائرية شئ عجيب، كل شيء منظم، والسيارات بجانبي أيضا مثل البرق؛ لا تتوقف؛ كل شيء منظم. وتحدثني نفسي أنني لن أتعب في هذه البلاد الجديدة عليّ.

كانت السيارة تنهب الطريق الحر في سرعة بالغة، لا أكاد أرى أو ألمح شيئاً من المدينة ولم تظهر(التفاحة الكبيرة) أو منهاتن التي بعد فترة قد ظهرت ناطحات السحاب والأنوار التي تتلألأ، ولكن بعيدا عنهما؛ أكاد أحس بدرجة البرودة، التي ربما قد وصلت إلى أطرافي في هذا الوقت المتأخر من الليل، كنت أتدثر بمعطف صوف، قد اشتريته قبل سفري. حالة الانتباه بالرغم من إرهاقي والإعياء الذي أصابني: كانت على أشدها، لا أريد أن أغفو أو أن يفوتني شيء، كنت شديد الانتباه إلى هذا "السيخي" وبهذه العمامة التي تكاد تصل إلى سقف السيارة.

كنت أسمع الكثير عن حالات النصب التي يتعرض لها المسافرون من سائقي "التاكسيات الصفراء"، ولكني كنت في انتباه تام لما يحدث؛ لكني بعد فترة قد أصابني الاطمئنان أنه لايرجع إلي نقطة البداية مرة أخرى، أو يدور حول مبني! ولكن كان مايقلقني هذا العداد الذي لايتو اني عن تغيير أرقامه في سرعة رهيبة لاتنقطع، لقد اقترب الرقم من ثلاثين دولاراً.

كان من وقت إلى آخر يخبرني أين نحن من "برونكس"؛ لقد سلك طريقاً طويلا المتجه من المطار إلي مكان ما، ربما كما وعدني إلى حي "برونكس"؛ وها هو يقترب من كوينز واحد من أحياء نيويورك العريقة، التي لاتقل عن حي برونكس وهو في الاتجاه إلى نقطة الكلية، ومنها سوف يسلك الطريق الآخر حتى يصل إلى "برونكس". لن يستغرق الطريق أكثر من نصف ساعة، كان يحاول أن يبعث الطمأنينة إلى قلبي، الذي قد غرق في النظر إلى العداد الذي لايتوقف؛ كانت السيارة لاتتوقف إلا في إشارة المرور، ولايظهر أي شرطي في الطريق كان منظر هؤلاء في شوارع القاهرة يصيبني بالإحباط؛ لأنهم كانوا من المجندين؛ كان وقوفهم لعدد ساعات طويلة، مقابل انتهاء الخدمة العسكرية. وكان يحز في نفسي وجودهم في أيام الشمس الحارقة في أيام الصيف الحار في شوارع القاهرة، ومع عوادم السيارات التي ترفع درجات الحرارة بدون سابق إنذار، مع الإهانة إلى هؤلاء تحت شعار:

"أنت مش عارف أنت بتكلم مين؟".

شعار لاينتهي؛ أو وضع رقعة معدنية badge إشارة لأصحاب المناصب العليا: هيئة سياسية؛ قضايا الدولة؛ النيابة؛ لم يسلم الأمر من أعضاء المجلس سيد قراره، أو حتي قبعة ميري(كاب) في الزجاج الخلفي! نوع من الإرهاب الفكري؛ حتى لايفكر في مخالفة له؛ وكم من المنكرات ارتكبت بسبب الزجاج الغامق؟

ومن يجرؤ على اقتحام هذه الخصوصية؛ لايوجد من يزعجني: "أنت مش عارف أنت بتكلم مين؟".

لا أريد أن أعرف هؤلاء مرة أخرى! لقد أصابني الإحباط بمجرد التفكير في هؤلاء؛ كم من المنغصات التي تسببوا فيها إلى شخصي، الذي كان يحاول الحصول على أقل حقوقه كمواطن! لا يطلب الكثير، بل القليل من الكرامة والمعاملة كبني آدم؛ أريد أن أحيا مثل باقي البشر. لا أريد الإهانة. أريد أن يكون لي أربعة من الحوائط، وسقف على الرؤوس. أن أجد حافلة تحترم آدميتي. أريد أن تكون المعاملة باحترام، تقديري كبني آدم، يأتي قبل المستوى الاجتماعي. آلا أسئل في الشارع إلي أين؟؛ آلا أقف مذعورا أمام نجوم أو سيوف؛ لأن شكلي لم يعجبه؛ آلا يكون أمر اعتقالي فقط للاشتباه. أن أنسى في السجون بدعوة الاشتباه! أريد أن أكون إنسانا فقط! الصراع داخل رأسي على أشده، لقد بلغ مني التعب مبلغه، وأكاد أسقط على المقاعد الخلفية حتى كانت الصيحة من "سنج بهادر" هذا اسمه، بأنه قد وصلنا إلى بيت "الجنرال جونزاليس" كان في أشد الفرح أكثر مني قائلا ليّ:

"لقد وصلنا إلى قلعة القائد".

كان "سنج بهادر" يبالغ إلى حد ما أن هذه البناية تذكرني بالمباني القديمة في حي "جاردن سيتي"، ولكنه أكثر نظافة، وخاصة الشارع الذي كان استوائه يزعجني، لم أتعود أن أرى شارعاً بهذا الاستواء، خاليا من الحفر والمطبات الصناعية أو الطبيعية، بحكم عوامل التعرية أو الحفر المستمر، بسبب أو بدون سبب؛ لا أكاد أتبين الشارع من الأضواء المتناثرة وهي ترسل بالإشعاع المنبعث منها، ولم أنتبه إلى قطرات المطر الضعيفة في نزولها ببطء على وجهي والتي كست الشوارع. لقد لاحت ألوان الشفق وهي تكسر قطرات المطر، فتنعكس ألوان قوس المطر (قزح) من القطرات المتناثرة. كانت البرك الصغيرة

من الماء قد تناثرت على الرصيف المقابل للمبنى، وهو يقف شامخا. ورسمت على جدرانه الكثيرمن الألوان المتداخلة(الجر افيتي) في عنف شديد، والألوان قد غلب عليها اللون الأحمر والأسود، وتناثرت الألوان بعلامات السلام العالمية. لقد تداخلت الألوان مثل مايعتمل في نفسي من مشاعر متضاربة؛ كنت بالأمس في القاهرة أصارع من أجل معركة البقاء وتحقيق الأحلام! واليوم الانتقال إلى صراع آخر جديد من نوعه، الصراع في بيئة غير بيئتي، وأصناف جديدة من البشر، يغلب عليها التنافس وليس التكامل. إحساس قد بلغ مني منذ نزولي من الطائرة والأبواب الكثيرة، وهي تنضح بالآف البشر، خرجوا في سيل هادر من بطون الطائرات لطرق أبواب أرض الأحلام. كانت الألسن تختلط في لغات ولهجات مختلفة من أقصى اليمين و أقصى اليسار، الكل ينتظر دوره في فتح الأبواب، والكل ينظر إلى الأزياء لتحديد من أين أتوا؟ بالأزياء الزاهية ربما شرق آسيا؛ ومن يقفون كل على حدة، إنهم بالضرورة من العرب، ومن يقفون في جماعات وهم بالعيون الضيقة صينيون، ليس بنظرة عنصرية، لكن هذا مايميزهم، ربما كانوا كوريين لا أعلم؟!!؛ كانت نظرات الأمل تتضح في عيونهم، و أيضا نظرات الترقب تفضح ما بداخلهم من خوف من المجهول. هي التضحية بكل ما كان يملكونه في بلادهم، إلي بلاد لايملكون فيها إلا الأمل.

كان سيل هادر لايتوقف، وكانت أحلام لا تتوقف؛ لقد أصابني الصمم حتى وصلت إلى رجل الجوازات الذي أشار إليَّ وهو يقبع خلف مكتبه الأعلى مني بقليل، وهو ينظر إليَّ متفحصا جواز سفري؛ ويتفحص وجهي، والأوراق المرفقة معي من السفارة التي فيها أنني من أوائل الفائزين بالقرعة العشوائية. ولم ينتظر حتى أعطاني ختم الدخول إلى "أرض الأحلام"؛ تركته و انطلقت في طريقي حتى فتح الباب الزجاجي أمامي، وهي تمطر قليلا، والتحدي والأمل في انتظاري.

استفقت علي قبضة (سنج بهادر) وهو يحاول إفاقتي من السرحان الذي أصابني؛ بعد أن أنزل حقيبتي، وهو يتجه إلى الباب الأمامي، فاتحا إياه والردهة قصيرة نوعا ما. حتى وصلنا إلى مكتب صغير قريبا من المصاعد، كنت أتوق إلى الصعود بشكل عميق إلى أي من الغرف حتى أستطيع النوم؛ أقرع الجرس الصغير المتواجد على المكتب جعل رأسي يدور من فرط الصداع الذي أصابني؛ كان متكرر حتى ظهر من شقة مجاورة جسد لرجل ممسك بعصا يتوكأ عليها، و يرتدي روبا على منامته، لقد خرج على عجل؛ وقبل أن يتحرك "الجنرال" من أمام شقته بادره (سنج) بالاعتذار عن إزعاجه، لكن الأمر ملح، ولايستطيع الانتظار حتى طلوع الشمس قائلا له في أدب جم معتذرا؛ لأنه آتى في هذا الوقت المتأخر:

"أعتذر يا جنرال، ولكن الأمركان لايحتمل الانتظار إلى الصباح".

لقد أشار إليه "الجنرال" بأنه لا داعي للأسف قائلا له:

"لا عليك؛ لقد أصابني الارق قليلا، ومازالت مستيقظا".

لم تتضح معالم الرجل حتى اقترب من الضوء الخافت القادم من السقف. الرجل تجاوز الستين بقليل؛ له لحية تشبة لحية "كاسترو"، واختلط بها الشيب من خيوط الأبيض والأسود ويتكأ على عصا من الأبنوس الأسود، وهو يعرج قليلا. لا أعلم إذا كان من مرض شلل الأطفال؟ أما هي إصابة قديمة؟ وسحب نظارة قديمة من الجيب العلوي للروب؛ لقد تفحص من كان ينادي عليه؛ لقد أدرك أن من ينادي عليه يعرفه معرفة تامه به. لقد اقترب منه كثيرا؛ حتى أخبره(سنج) بمن هو قائلا له في ضحكة صغيرة:

"آلا تذكرني؟ أنا سنج، لقد كنت أسكن عندك منذ خمسة وعشرين عاما".

لقد تعجب الرجل بعد هذه السنوات يأتي إليه هذا الشخص، كان قد استقبله منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً، لم يصدق وهو يحتضنه لماذا بعد هذه السنوات الكثيرة يأتي وجه من الماضي! لقد ضحك الجنرال طويلا، وهو يتفحص ملامح هذا الشخص قائلا له في مرح واضح:

"يا إلهي مرت خمسة وعشرين عاماً مازلنا صغاراً؛ يبدو كأنه كان بالأمس".

العلاقات لاتبدو بهذه الحميمية، ولكنها ربما من ندرتها ربما تكون شيئا لايصدق، عندما يلتقي اثنان لا توجد بينهما أي شبه اجتماعي، أو خلفية ثقافية، ولكن ماجمعتهم هي الغربة والوطن الجديد؛ كان لقاء فيه ندرة ليس فقط ندرة اللقاء، ولكن ندرة التقاء الأعراق؛ لقد وقفوا طويلا قبل أن ينتبه إلى حضوري! أخبره (سنج) بما أريده، أنني مهاجر جديد يبحث عن غرفة، أخبره في جدية قائلا له:

"إن هذا الشاب يبحث عن غرفة للايجار؛ واعتقد أن لديك غرفة خالية، أليس كذلك؟

هذه هي الساعات الأولى ليّ في أمريكا؛ وبما أنه لايعرف أحداً في حي (برونكس):

"أيها الجنرال عليك أن تساعد هذا الشاب حتى تستقيم الأمور، بالإضافة إلى أنه مصري".

أتذكر تعابير وجهه عندما أتى ذكر مصر، كأنها مفعول السحر لهذا الرجل، ذاكرا كليوباترا (اليزابث تايلور)، والرئيس الأسبق عندما زار أمريكا في السبعينات؛ كانت كلمة مصر هي المفتاح، قائلا ليّ في مرح زائد وهو يضحك بعنف:

"سيدة الجميلات كليوباترا، والأهرامات يالها من بلد عجيب! هل أتيت على ظهر جمل أم ماشيا؟".

كانت نكته توضح مدى جهله! أو أنه يتصنع هذا الجهل، ولكني لم أعره الاهتمام، ولكني رددت عليه في لهجة السخرية نفسهل قائلا له:

"بل أتيت سباحة".

لقد انتبه الرجل إلى هذه النكتة السخيفة ، لقد اعتذر ليّ على الفور؛ معللا أنه لم يقصد الإهانة قائلا لي في نبرة الاعتذار:

"لا أقصد الإهانة، إنها مزحة".

لقد أدرك أن الذي أمامه ليس بالهازل، و أنني أستحق معاملة أفضل من تلك التي أظهرها، لقد كان يعني الاعتذار، ولقد قبلت اعتذاره على الفور قائلا له في نبرة ثابتة:

"لا عليك، لم يحدث شئ على الإطلاق".

لقد استوقفتني نظرات الرجل المتفحصة، هل هو "جنرال" بالفعل؟ أما هو لقب أطلق عليه فقط لأنه يتسم بالحزم؟ كانت تظراته فاحصة، كان خبرة السنين تجمعت في هاتين العينين؛ كان يتفحصني وهو ينظر إلى جواز سفري قبل أن يرجعه إليَّ، ويطلب إيجار الغرفة لمدة أسبوع مقدما، وهو ينظر إلى (سنج) بعد أن طلب أجرته من المطار إلى (برونكس) لقد نقدته المبلغ قبل أن يودعني متمنيا ليّ إقامة سعيدة في وطني الجديد، قائلا لي في لهجة محفزة ليَّ:

"أتمني لك التوفيق، وماتحتاجه الآن هو الصبر وقليلا من الحظ".

لقد كان سلاما بالأيدي بينهما، وسنج يقول له في اهتمام واضح:

"سعيد برؤياك ياجنرال، أرجو أن تعتني بالو افد الجديد، إلى اللقاء".

كان هذه هي آخر مرة أرى فيها "سنج بهادر" إنها قارة كبيرة، ومع انصر افه اصطحبني إلى المصعد الذي يقع بجوار المكتب الصغير؛ لقد فتح باب المصعد،

وأنا ممسك بحقيبتي، داخلا قبله، ثم أغلق باب المصعد ضغطا على واحد من أزرار المصعد، إلى أن أشار إلى الدور الرابع وهو يحدثني عن مزايا الغرفة، إنها في آخر الممر. بعيدا عن الضوضاء، ولكني أحتاج إلى بعض الاشياء لكي تكتمل الغرفة، وهي أشياء يمكن شراؤها من سوق يوم الأحد، قائلا لي في لغة حازمة:

"تستطيع أن تكمل ليلتك على هذا الوضع؛ ولكن في سوق الأحد من الممكن أن تشتري بعض الاحتياجات لهذه الغرفة له، وهي أشياء رخيصة الثمن بعيدا عن المحلات الكبرى".

لقد تداعى إلى الذاكرة أن هذا السوق الشعبي في كل أنحاء العالم، وقفز إلى الذاكرة "سوق الإمام"؛ لكنه سوف يساعدني بالقليل المتوفر لديه؛ حتى تستقيم الأمور.

من بعد خروجنا من المصعد، تقدمني في الردهة، وهي غرف بجانب بعضها البعض، وتقبع غرفتي في آخر الممر، بجوار غرفة عليها شريط أصفر، تحذير من الشرطة بعدم الدخول؛ لم يعلق "الجنرال" على ما رأيته، بل تجاهل تماما الأمر. كأنه شيء عادي أن ترى هذه الشرائط الصفراء! ومن الممكن أن ترى الكثير منها في أماكن مختلفة، لاتنزعج من هذا. فهذا من سمات المدن الكبيرة والصغيرة الغنية والفقيرة! كان بالنسبة لي هو فيلم من أفلام هوليوود التي رأيت منها الكثير في حياتي، وخاصة في سينما وسط البلد. لكن في حقيقة الأمر أصبح واقعاً وليس فيلماً.

لقد أدار المفتاح في باب الغرفة، وفتح باب الغرفة، ومد يده في جيبه لبضع القطع المعدنية، واضعا إياها في عداد الكهرباء، قالها في جدية واضحة:

"هذا العداد يعمل بالقطع المعدنية؛ وهذه القطع هي هدية مني إليك في أول ليلة لك في "أرض الأحلام".

الإضاءة قد أنارت الغرفة علي الفور، والتي اندفع منها هواء بارد، قد لفحني في وجهي من داخل الغرفة، إنها غرفة صغيرة مزودة بمطبخ صغير وحمام أصغر، فيها سرير ليس بالكبير لايتسع لجسدي! وعليه مرتبه من الأسفنج .قذرة تماما .تحتاج إلى تغير فوري.

أشار "الجنرال" إلى التدفئة بجانب السرير، وهي تشبه "ردياتير" السيارة، وهذا هو السبيل الوحيد إلى التدفئة. أوضح ليّ أنها تدفئة مركزية؛ كان ما يقلقني أن الغرفة لاتستحق هذا المبلغ الذي تم دفعه فيها؛ وكأن "الجنرال" يقرأ أفكاري، إن هذه الغرف هي أرخص من نيويورك ومانهاتن التي تعاني من أزمة السكن ليس فقط للسكان الأصليين، بل بين المهاجرين. كان في كلامه شيء من الصفعة، وأنا من سوف يبحث عن عمل في نيويورك أو مانهاتن؛ كان عليَّ القبول بالأمر الو اقع!

وقبل أن يتركني أخبرني عن بعض القواعد لهذا المنزل؛ ولكن أهم قاعدة: "أن الحرية أفعال ولست أقوالا، من الممكن أن تفعل كل شيء، بدون أن تضر نفسك أو تضر الآخرين، أو أن تقع تحت طائلة القانون. عندها سوف تفقد حريتك؛ لأن الحرية لاتقدر بثمن؛ لا تفرض آراءك أو أفكارك على الآخرين؛ وتعلم قبل أن تعمل" كانت كلمات نافذة؛ وقبل أن يعطيني المفتاح أمام باب الغرفة، ضحك وهو ينصحني محذرا:

"احذر من النرويجي".

اللقاء الأول

(٣)

"لقد تمددت في اللقاء الأحلام" إبراهيم عبد المجيد.

الطبقات الرقيقة الطرية البيضاء: قد انتشرت على طول الشوارع؛ البرودة التي تناقصت على مدار الأيام الماضية؛ اللون الأبيض قد طغى على أشكال البيوت، والأسطح قد اكتست في تموجات الهضاب والتلال الصغيرة. تراكمت الهضاب الصغيرة المتقطعة في أشكال الوديان صعودا وهبوطا أسفل الرصيف، وهي تتحاشى دهس إطارات السيارات التي كانت الإضاءة الأمامية هي الطاغية، والتي تتعمق داخل الأكوام الصغيرة، فتتضح فيها الحفر الواسعة التي اخترقتها أثناء ذوبانها؛ الكرات المستديرة وهي تقطر الماء المنفلت من القطع الصغيرة. بعض من قطراتها كانت تطيح من بين أيدي الصغار وهي تلهو، وهي تسبح في الهواء لترتطم في الأجسام الصغيرة، التي اتخذت من المعاطف البلاستيكية وأغطية الرأس والأحذية الطويلة، فتنزلق الكرات بعد اصطدامها، وتتفاعل الكرات الثلجية مع حرارة الأجساد التي انتشرت في تجمعات صغيرة؛ كانت تسمع قرقعة الطبقات الهشة، وهي تتهشم تحت الأرجل الكثيفة؛ لم تتوقف الحركة ولا الحياة. كانت المحلات المنتشرة على طول الطريق، وزينة أعياد الميلاد قد تواصلت فيما بينها، والارتباط الوثيق بينها في تواصل لاينقطع. كانت تعج بألوان البشر التي ارتسمت على الوجوه، على الرغم من اختلاف اللهجات واللكنات والأديان، إلا أنه كان هناك نوع من الراحة النفسية التي تتسلل إليها، لبعث البهجة من منغصات الحياة التي لاتنقطع، هي فرصة للبحث عن السعادة.

وشجرة عيد الميلاد التي انتصبت بالقرب من الحديقة التي تتوسط الميدان؛ قد أضاءت آخر الضوء الهارب من نهار قصير؛ كانت الزينة وهي تزين شجرة عيد الميلاد؛ تتلألأ تحت آخر ضوء منسحب من النهار القصير، والإضاءة القادمة من الأعمدة الطويلة؛ تلقي بظلالها على النجمة الذهبية في أعلى الشجرة، فتنعكس الأضواء بأضواء النجمة التي تشير بهداية المجوس الثلاث إلى بيت لحم، لرؤية ميلاد المسيح. مازال الشرق يتمتع بهداية العالم، على الرغم مايقال عنه؛ مازالت أرض هداية العالم في الشرق باقية في نفوس من يبحث عن الحقيقة، تنوعت وتفاوتت الكرات الثلجية بين أيدي الأطفال، والكرات البلاستيكية والشرائط الحمراء التي كست الشجرة ترسل بالأشعة الملونة إلى جميع أنحاء الشارع. كانت تبعث الدفء في الأوصال المتصلبة التي تتحرك تحت وطأة الملابس الثقيلة التي نصحني بها "الجنرال".

الردهة الطويلة المؤدية إلى غرفتي الباردة التي في الغالب هي باردة ومغلقة النوافذ في وجود هذا الصقيع، الذي يتسلل من كل مكان في الغرفة! لا أعلم من أين يأتي على الرغم من تحصين الغرفة من ألوان التدفئة، ولكن مازال الصقيع يضرب الغرفة، وعلى الرغم من ذلك؛ التدفئة الصناعية القادمة من "الردياتير" الذي تتصاعد منه الأصوات التي تقلقني أثناء استغراقي في النوم، والتي تستدعني في شكل ملح؛ حتى يتم شحن العداد الكهربائي الذكي الذي يطعم بالنقود الفضية؛ حتى لايتوقف عن بث الدفء في أقدامي التي تدثرت بالجوارب القطنية الطويلة، والخارجة من حاجز السرير المعدني، الذي لايتسع لهذا الجسد الطويل؛ كان الخروج من تحت الأغطية، وخاصة اللحاف "الفايبر" كان نوعا من المعاناة، بقدر ما كان من متعة عند استقبالي له محتضنا إياه.

لم أنسَ البطانية الصوف عندما تلحقني بها أمي، وتزيد في الأغطية، وهي ترى هذا الجسد الفارع الطويل، يتأفف من درجات الحرارة المتدنية، ولكن دفء أمي لايعوض، كان الاستغناء عن التدفئة الصناعية من الدفايات. كانت تتجاهل الإحساس بالبرد، وهي تجلس في مكانها نفسه، الذي لايتغير صيفا أو شتاء! كان الضحك مع أمي يسرى بالدفء في كل أرجاء البيت، ويزيد هذا الدفء عندما يتردد إلى أسماعها اسم "تيتة... تيتة" من أحفادها وأولاد "علاء". وكان أكثر مايقلقها وهي ترى في التلفاز النشرة الجوية، عندما تتدنى درجات البرودة، وليست درجات الحرارة التي اختفت، وتنتشر مياه المطر في أنحاء الشوارع، تاركة بركاً من الطين بعد انقطاع الأمطار؛ كم من المآسي التي ارتكبت باسم مياه الأمطار، فكانت سيارات الشفط تسحب المياه المتراكمة، وقد اخترعت في هذه الظروف الحلول الكثيرة، منها قطع الأحجار التي تنتشر وتتراص في شكل من الطابور الطويل لقطع الطريق، ومنها السقالات الخشبية بين برك الوحل والأرصفة الموحلة أيضا.

فتحت باب الغرفة، بعد أن رفعت السيخ الحديدي الذي يصل بين الأرض والمزلاج، ووضعته خلف الباب، وأغلقت الباب من ور ائي. تاركا الصقيع يرتع فيها، ويضرب بأجنحته في أركانها؛ اتركها مثل قطعة الحديد التي تركت في طبقات الجو العليا؛ ربما يأتي "النرويجي" من أحد الأركان المختبئ فيها. هذا الفار الذي يشبه القطط السمان؛ لقد رأيته مرة واحدة أو ربما أحد يشبهه بهذه الشوارب الرفيعة، التي نبتت فوق أنفه المبلل من برد الشتاء؛ لقد حاولت اللحاق به عدة مرات! لكن محاولاتي باءت في كل مرة بالفشل. لقد تكررت زيارته كثيرا في هذه الأيام، ربما كان يبحث عن بعض الطعام الذي هو حاليا أفتقر إليه، ليس من بخل. لكن بما أن معظم وقتي أقضيه في محطة تموين السيارات في الليل؛ لذلك الطعام لم يكن له أهمية عندي، إلا في هذه الأيام

التي أتضور فيها جوعا، وخاصة في الليل؛ ربما يأتي ليبحث عن الطعام بعد أن أهجر غرفتي التي أصبح هناك ضيفان لايفترقان عنها؛ الصقيع والنرويجي. كانت هناك أسنانه التي غرزت في أطراف الطاولة الخشبية العتيقة. الردهة خالية من أي مظاهر الاحتفال، السكون يلف المكان، لايسمع إلا الأصوات الصادرة من خلف الأبواب المغلقة.

من في الجوار هي عائلة "وانج"؛ مكونة من خمسة أفراد، أشهرهم "مين وانج" لا أعرف الباقي، هذا الطفل الصغير الذي هو ربما المترجم الوحيد للعائلة؛ هو الوحيد ربما الذي يذهب إلى المدرسة؛ كان الجزء الأكبر من نشاطه هو تعليم العائلة اللغة الإنجليزية؛ الكل يعمل في المطعم المملوك في نهاية الشارع للعائلة. الملاحظ أن هناك انضباطا عسكريا في العائلة، لاتكاد تسمع أصواتهم، كان الشيء المميز لهم؛ أنهم طوال الوقت صامتون بشكل دائم، لقد قابلت العائلة عدة مرات. كان حديثا صامتا دائما، ليس إلا التحية الصينية مع ابتسامة صغيرة؛ لقد تحدثت إلى "مين" عدة مرات. الإنجليزية يكسوها لكنة صينية طاغية من لغة "المندريان"، كنت أجد صعوبة بالغة في فهم الكلمات والجمل التي ينطقها، ومع الوقت تعودت وألفت لهجته المندريية- برونكسية.

كانت هجرة العائلة محفوفة بالمخاطر، وخاصة عبورها من المحيط الباسيفيكي إلى سواحل الشاطئ الغربي، ومنها إلى نيويورك قائلا لي في أسى واضح:

"كنا محشورين مثل السردين المملح، في قاع المركب مع آخرين؛ لقد ضاقت سبل الحياة على والدي، الذي كان يعمل في ترميم الأحذية البالية في بكين، تحت حكم الحزب الواحد والشيوعية؛ لم يستطع أن يطعم الجدين ولا العائلة. لقد وقف والدي مع الطلبة في مظاهرات الميدان السماوي. كانت أمي حاملا فيّ. إنني لم أتعد السادسة من عمري؛ لقد باع أبي كل مايملك في الصين

بثمن بخس، بعد ما وجد الاضطهاد من قوات الأمن الوطني. كان الطريق صعباً ووعراً جدا، وبالرغم من فرض الأحكام العرفية، إلا أن أبي قد وجد طريقة للخروج من الصين، عن طريق تجار البشر. لقد منحهم كل مايملك تقريبا، واحتفظ بالقليل حتى يبدأ حياته الجديدة. لقد حاول كثيرا أن يتعلم الإنجليزية، ولكنه فشل، ولذلك كان دوري في تعليم العائلة، إخواني الذين هم أكبر مني يجيدون الإنجليزية، ولكنهم تركوا العائلة، وقاموا بتأسيس أعمالهم الخاصة في سان فرانسيسكو، ولذلك تجدني أنا من يقوم بتعليم الوالدين والجدين، وهم يعملون في المطعم في آخر الشارع.

الذي يجاور هذه العائلة؛ هي الغرفة التي مازالت مغلفة بالشرائط الصفراء؛ من كان فيها قد قضى نحبه بعد الاختلاف في مبالغ "المسحوق الأبيض"؛ الذي تخلف عن دفعه! فكان الذبح من نصيبه مثل الشاة، لم يتورعوا باسم الإنسانية، بل كان فعل الجزارين.

"مارلين" إنها تعيش في الشقة التالية القريبة من المصعد، صغيرة في السن، لقد عانت الأمرين . وهي تروي عن القواد "مورجان" . وهي تنظر إليك بعيون زائغة؛ كانت كثيرا ما تلتفت إلى الوراء، إنها كانت في أسرة كبيرة، تضم الأب والأم والأجداد والإخوة والأخوات، كانوا يعيشون في أمان قائلة ليّ في ألم ويعتصرها الحزن البالغ:

"النعرات الطائفية والحروب تقتل أي شعب في الدنيا؛ كنا نعيش في أمان الكل كان يحيا لافرق بين مسلم ومسيحي وصربي وقومي".

كان حديثها يقطر دما، وهي تنظر إليّ بعيون حائرة، قائلة لي وضحكة سخرية مريعة:

"لم نكن نعرف كوسوفو أو الجبل الأسود، لم نكن نعرف هذه المسميات! لقد ذهب أهلي بدون رجعة بقنبلة من القنابل الذكية، كنت وحيدة وصغيرة لا أعرف شيئا".

كان كلامها وحديثها تكتوي به، وهي تحدثني عما حدث لها من قلة الخبرة بالحياة، ووقوعها في براثن الأشرار دائما قائلة لي:

"كان ذهابي إلى الجنوب نقمة عليّ: أن تذهب إلى ألبانيا، وتقع في براثن تجار الرقيق الأبيض، إنك في القرن العشرين، ومازالت أقدم مهنة في التاريخ تمارس!".

إنها مازالت تحدثك بأمور يقشعر لها الجلد، ويشيب منها الولدان، ماهذا الذي يحدث؟ إنها ذكريات أليمة، لا أحد يستطيع أن يصدق ما تحكيه لك. إنها مازالت تنظر إليك بعيون زائغة. إنها لاتكذب، إنها تقول الصدق الذي يفسر لك العذابات التي تظهر على هذه الملامح البريئة، ولكنها قد تقدمت في العمر بدون تفسير، وهي تقص عليك قائلة ليّ:

"إخضاعك يجب أن يكون عن طريق حقن الماكس؛ حتى لا تستغني عن الجرعات والاعتداء عليكِ بكل وحشية كل ليلة! إنه كان الإذلال بعينه؛ لقد نجوت من هذا بعد أن أقنعت القوادين أنني سوف أنفذ مايقولونه بدون هذه الجرعات. لقد ذهبت إلى فرنسا لممارسة الدعارة، تحت إشراف عصابات من الصرب. كان هناك جواز سفر باسمى. نعم ليس باسمي الحقيقي، ولكنه كان جواز سفر؛ لقد احتلت على هذا القواد العالمي؛ حتى أخذت جواز السفر منه، واتجهت إلى "كالية" ومنها إلى "أرض الأحلام" ولكن للأسف وقعت في قواد آخر لايقل عن الصرب، أو عن سابقيه في شيء، إنه ألعن منهم.

كان الحديث يقطر دما، وأنا أرى أنها تلتفت كثيرا إلى الباب؛ حتى لايخرج "مورجان"، ويجدها أنها تتحدث إلى غريب، وليس إلى عميل ينوي شراء المتعة الحرام، إنه في الجوار، ولا تنفك ليلة من الليالي، إلا وتسمع أصوات المشاجرة بينه وبين مارلين. إنها الآن تعمل في أحد نوادي التعرية في مانهاتن، والقواد مورجان الذي يقوم بترتيب مواعيدها، والاستيلاء على أموالها التي تحاول أن تخفيها عنه؛ حتى تستطيع الهرب منه، ولكن في كل مرة تفشل وترى كدمة زرقاء في إحدى العينين، أو كلتاهما، وتحاول إخفاءهما بمساحيق التبرج، ولكن لافائدة. كان بعد الرجوع يجلس داخل البيت؛ لاحتساء الجعة(البيرة)، ويتدلي هذا الكرش المنفلت من فوق الحزام الذي يكاد يخنقه؛ كانت صرخاتها تخترق جدران حجرتي؛ حتى خرجت إليَّ، واتجهت إلى شقتها، طارقا الباب في طرقات سريعة، حتى خرج مورجان القواد، الذي وقف حائلا بيني وبينها، وعينيه تنطق بالاستغراب، ويتسأل في برود واضح قائلا لي في دم بارد:

"ماذا تريد؟"

أخبرته في كلمات سريعة:

"أن مايفعله لايمت بالرجولة في شيء!"

كنت أرى "مارلين" وهي تصرخ في حدة من الألم، وتحتضن وجهها المتورم، وهو لم يتحرك قيد أنملة، عندما حاولت أن أقتحم الشقة، لقد وقف سداً منيعا بالرغم من سكره الواضح، إلا أنه كان قويا، قائلا له في تحدي واضح:

"إن ضرب النساء لايمت للرجولة في شيء، اتركها إلى حال سبيلها".

لقد كان أكثر وقاحة عن قبل، عندما ظهر تحديه لي في كلمات غاضبة، متوعدا أنني إذا لم أترك باب الشقة، وأذهب إلى غرفتي: سوف يستدعي رجال

الشرطة، وسوف يتم القبض عليَّ بتهمة التعدي على أملاكه، قائلا لي في سخرية واضحة:

"اذهب إلى غرفتك في الحال، وإلا وسوف يكون السجن مصيرك إلا إذا.....؟

كنت أريد أن أعرف ماذا يعني بكلماته، التي تفوه بها "إلا إذا...." ماذا يعني بهذه الكلمات ربما يبحث عن حلول أخرى لهذه المعضلة؛ لأنني لن أترك باب الشقة؛ حتى أجد حلا لهذه المشكلة قائلا له في دهشة:

"إلا إذا.... ماذا تعني بهذا؟"

كان ما قاله لم أصدقه في بادئ الأمر؛ حتى تأكدت أن هذا الو اقف أمامي لا يمت للرجولة بشيء، وهذا ليس بالمستغرب عن هذا الشخص المريض، قائلا لي وهو في حالة من السكر البين و أيضا في برودة أعصابه:

"إلا إذا تريد أن تقضي ساعة سعيدة وجميلة مع مارلين، ولن تكلفك الكثير، سوف تتمتع بخصم محترم؛ لأنك جاري. والمكان غير مهم عندي أو عندك، لكن الدفع مقدما".

لم أصدق ما قاله؛ هذا الرجل الساقط من كل معايير الرجولة والنخوة، ولكن هذا يبدو عاديا؛ لم أصدق ماكان يدور في عقله، ولكن ماذا تتوقع من قواد لا يتورع عن عمل أي شيء من أجل المال! هي أقدم مهنة في التاريخ للجنسين، فلا تستغرب من هذا الأمر، طالما مازلت على قيد الحياة؛ لقد حاولت التدخل لآخر مرة لإنقاذها، ولكن "الجنرال" وقف حائلا بيننا؛ حتى لا تتفاقم الأمور وتسوء.

إن ما كنت أفعله في مصر من شهامة؛ لا تصلح في أمريكا؛ لأنها لو أرادت أن تخرج من عباءته لفعلت. عليها فقط أن تبلغ السلطات بذلك؛ ولكنها تستمتع

بهذا الإيذاء الجسدي! ياله من أمر غريب أن تكون ساديا، وتستمتع أنت بتعذيبك، يالها من نفس بشرية لا تنفع الشهامة في أمريكا.

آخر الرواق تجد لويز التي تعمل نادلة في إحدى المطاعم القريبة من المنزل، هذه السيدة البيضاء التي تعدت الثلاثين. إنها "السيدة العزباء" ياله من لقب! وأولادها "توماس" و"وكيفين" كان تعريفهم لي بأن توماس من أب، وكيفين من أب آخر، الأول أبيض، والأب الآخر ليس أبيض: إنها تتكلم كثيرا عن مشاكل الوالدين، وكيف هي المعايرة بينهما، على ألوانهما، كانت دائما تحاول أن تشرح لهما أنهما من أم واحدة؛ كيف أستمع لها؟ وكيف هي المعاملة لهما في المدرسة، والفرق بينهما بضع سنين؛ كانت معاملتي لهما فيها نوع من الشفقة على هذا الوضع الشاذ والمحير، لهما كانت الأسئلة، بينهما لاتنقطع في وجود لويز. كانت الإجابات أكثر حيرة، كيف يكون التآلف بينهما، ولكن كانت محاولاتي تعلو على هذا الوضع الشاذ، والمجحف لهما في الوقت نفسه، قائلا لهما في إحدى المرات، موجها كلامي إلى كيفين، الذي كان يعاني من أقر انه في المدرسة:

"ليست الأخوة في لون بشرتك ياكيفين".

كان "كيفين" ينظر إليّ كأنه لايفهم ما أقوله؛ كان ينظر إلى أخيه "توماس" ويخبرني في كلمات يسيرة عما يعانية قائلا:

"(توماس) ليس بأخي هو أبيض، و أنا أسود!".

كانت كلماته موجعة لي؛ إنه ليست البشرة فقط، بل هو الانفصام الذي أصاب الكل، كان تأكيدي له بأنهم إخوة، ولكن رد كيفين دائما ما يؤرق أفكاري قائلا لي:

"إنهم يكرهونني في المدرسة، وأن أمي عاهرة؛ أنا لا أطيق هذه الكلمة، ولا أفهم ماذا تعني؟ ولكنها يبدو أنها كلمة قبيحة! إنني أحب أمي بالرغم أنها بيضاء؛ ولا أعرف أبي الذي هو بالتأكيد أسود اللون".

كانت الكلمات تقف في صدري، ولا أستطيع أن أتفوه بها أمام أمه، التي كانت تبكي بمجرد أن يذكر "كيفين" أنه يحبها، وكنت أسأل توماس عن دوره في هذا الأمر، الذي كان يبكي عندما يتحرشون بأخيه قائلا والدموع تنساب من عينيه:

"أنا لا أرى هؤلاء السفلة، إنهم لايتورعون عن قول أي شيء؛ إن كيفين أخي، ولكني لا أستطيع حمايته طول الوقت. يجب أن يقف ضدهم، ولا يدعهم يتحرشون به".

كانت الكلمات تقف حجر عثرة أمامي؛ كل شيء أصبح بدون معالم، كان هناك نوع من الارتباك الذي لا أستطيع أن أفض الاشتباك فيه، كانت لخبطة أخرى قد ارتكبها الإنسان في لحظات المتعة الحرام؛ كنت أقف عاجزا عن أن أشرح أو أن أفهم، و أنا أرى كل يوم أن هذه الهوة تزداد اتساعا بينهما.

كان "الجنرال" يشاهد هذه المحادثات الطويلة بيني وبينهما كثيرا، أن يعلو صوت الأُخوة على صوت الألوان، كنت كثيرا ما أنجح في مهمتي، وفي أحيان أخرى أفشل فشلا ذريعاً عندما أرى التعارك بينهما قد وصل إلى تشابك الأيدي. كان هناك عدم اقتناع بصلتهم ببعضهما البعض! كان هناك شرخ عميق بينهما؛ كل هذه المو اقف هي التي جعلت "الجنرال" ينظر إليَّ بنظرة مختلفة عن باقي سكان البناية، هذا ما جعل هناك تقاربا من نوع ما بيننا؛ لأن "الجنرال" وجد نوعاً آخر من الرجولة.

كان نزولي في المصعد الذي لايقل برودة عن باقي البناية؛ قد أصابني قبل الخروج منه بتيبس الأطراف التي تدثرت بكل أنواع الحماية، وغلق كل منافذ تسلل الصقيع وتغطية رأسي الذي كنت أتباهي بهذا الشعر الأسود المنسدل على الجبهة، غطيت هذه الرأس بغطاء الرأس الذي غطي الأذنين اللتين ربما يسقطان من تجمد الغضاريف الواصلة إليهما؛ من قلة وصول الدم إليهما؛ الذي ربما تتجمد أيضا الدماء في العروق؛ لقد نظرت إلى المكتب الصغير،

ووجدته جالسا على كرسية الصغير فاتحا الجريدة. كان يضع القبعة التي تشبة قبعات رعاة الماشية وهذه اللحية التي تشبة لحية "فيدل"، ولكنها كانت أكثرتهذيبا، فبدت متساوية مع اختلاط الشيب الذي تسلل إليها، هذه الخيوط البيضاء والسوداء في تناغم متراصة الواحدة جنب الأخرى والنظارة الطبية التي تدلت على أرنبة الأنف، والعصا الأبنوس بجانب الكرسي، وهو يقرأ في تركيز شديد مع السحابات الصغيرة المتصاعدة في حلقات من (الغليون) الأسود التي انتشرت، ولكنه كان مدركاً لما يحدث.

لقد أزاح الجريدة قليلا، وهو ينظر للقادم إلى مكتبه الصغير؛ لقد ظهرت الأسنان الأمامية القليلة والصبغة الصفراء من آثار التبغ من (الغليون) قد ظهرت بين الثنايا، وعلى أصابعه وعلى الأجزاء الأمامية من شاربه . تحت أنفه مباشرة . كانت ابتسامة صغيرة، وقف مستندا بيده على المكتب الفاصل بيننا، واضعا الغليون من يده، وهو ينظر إلىَّ مستبشرا قائلا لي في بشر واضح:

"لقد اتصلت إحدى السيدات بي اليوم، وطلبت مني أن أخبرك أن هناك مقابلة لك غدا في الرابعة عصراً، لقد كتبت كل التفاصيل في هذا القصاصة.

لم أصدق ما قاله "الجنرال"، و أنا أنظر إليه ضاحكا، لقد قاربت أزمتي على الحل: ما كنت أنتظره قد حدث. أحد الفنادق الكبرى في مانهاتن قد حاول الاتصال بي، ولكنني كنت نائما، ولذلك لقد كتب كل التفاصيل في هذه القصاصة الصغيرة، من اسم المدير المباشر وأرقام التليفونات على أن أكون في الفندق غداً في تمام الرابعة عصراً؛ حتى أتسلم العمل.

لا أكاد أصدق أنه بعد هذه الأسابيع القليلة سوف يتغير مسار حياتي مرة أخرى، تاركا محطة تموين السيارات لكي أحقق ماأريده، كنت لا أصدق: هذا "الجنرال" العجوز الهارب من عصابات "الكارتيلات" المخدرات من كولومبيا،

الذي كان يتعامل بريبة وحذر في "بوجوتا" في وضعه وسط العصابات الكبرى التي تسيطر على المسحوق الأبيض من كولومبيا إلى الحديقة الأمامية أمريكا؛ وما تحققه من مكاسب وثروات، تنافس ميزانيات الدول الكبرى، بل ربما تتفوق عليها من حيث العتاد والعدة؛ لحماية هذه التجارة العالمية.

وقوع هذا "الجنرال" في براثن هذه العصابات؛ لما يملكه من دهاء وحنكة. كان هذا مايملكه، واستطاع أن يمرر الكثير من التجارة المحرمة إلى قلب شوارع نيويورك، لكن ماحدث من "البوب" هو زعيم أكثر العصابات دموية في العالم، كان عليه أن يختار، أن ينجو بحياته، أو أن يكون رقما في إحدى القضايا، وأن يكون رقماً في إحدى المدافن القريبة من العاصمة.

كان عليه أن يقرر هل يستمر في هذه التجارة والاستمرار مع "البوب"، أو أن يرحل تحت اسم جديد بهوية جديدة، خارجا من مستنفع الموت، هاربا بأهله من الجحيم المستعر في بوجوتا، كان في يقينه دائما أن أمره سوف ينتهي بإحدى الرصاصات الطائشة من "البوب"، أو من واشٍ يريد أن يأخذ مكانه، وفي كلتا الحالتين سوف ينتهي به الأمر في إحدى الصناديق الخشبية، من صناديق الموز غير مأسوف عليه! ومصير العائلة سوف يكون في يده يفعل بهم مايحلو له. الخيارات كانت كلها مرة، وعليه أن يختار، ولقد اختار الأصعب؛ ليس له خيار آخر، كانت المسافة طويلة بين كولومبيا والمكسيك: التسلل إلى إحدى طائرات "البوب"، بعد أن دفع مبلغاً كبيراً للطيار؛ حتى يتسلل إلى قلب الطائرة، التي سوف تقل شحنة، كانت الأكبر على الإطلاق. كانت الأكياس متراصة في الكراتين البنية، والرائحة المتصاعدة من قلبها؛ هي الشحنة التي سوف تصل إلى المكسيك، ومنها إلى أمريكا.

كان الطريق شائكاً خوفا من وشية الطيار، ولكن الأمر كان على مايرام وهو يرى الطائرة تطير مقتربة من الأرض بشكل مخيف، ولكن خبرة الطيار العتيقة

في هذا المضمار، يجعله يطير بأعين مغمضة، وتحط بعد فترة تاركة بوجوتا نزولا إلى إحدى المطارات المهجورة، بعيدا عن أعين الرادارات، وأعين حرس الحدود من الجانب الأمريكي؛ لأنه لا فائدة من وجود الحراس من الجانب المكسيكي، الذين كانوا يغضون الطرف كثيرا، أو تورطوا في عمليات الهجرة غير الشرعية للمواطنين المكسيكيين، الذين كانوا يتسللون تحت جنح الليل، والطرف الآخر كان أكثر بشاعة، عند استغلال هؤلاء القرويين في الأعمال الدنيئة، وخاصة دخولهم إلى فلوريدا تحت سمع وبصر السلطات الأميريكية التي هي أيضا متورطة في هذه الأعمال المخجلة، لتجارة الرقيق مرة أخرى في هؤلاء البشر؛ حتى يحققوا المكاسب الخيالية من وراء سوق النخاسة مرة أخرى.

كان عليه الانتظار حتى تنتهي الدورية العابرة من المرور، ونزول مع الدليل المكسيكي إلى باطن الأرض، والعبور في النفق الأرضي الذي يفصل مابين الحدود.

كانت كل هذه الحركات محسوبة تماما. ولقد قام الدليل المكسيكي بكل هذا، واستأجر سيارة داخل الحدود الأميريكية؛ حتى يستطيع "الجنرال" أن يتسلل إلى داخل الأراضي الأميريكية؛ كان مافعله "الجنرال" لايخطر على بال أحد، لقد ذهب إلى هيئة مكافحة المخدرات، ومكتب المباحث الفيدرالية، وطلب الحماية منهم في برنامج حماية الشهود، حتى يتسنى له أن يشهد ضد "البوب" في جرائمه. وكان معه من الشهادات التي توثق هذه الجرائم، والتي استعانت بها السلطات الأميريكية مع السلطات الكولومبية؛ ولكنه لم يقف على منصة الشهود؛ لأن النهاية كانت دموية.

"البوب" قد تم تصفيته جسديا أمام جمع من أنصاره في احتفالات أعياد الميلاد؛ منح "الجنرال" حق الإقامة والمكوث في الولايات المتحدة إلى يومنا هذا؛

هاهو يقف أمامي بهذه القامة والعرج القليل في قدمه، من إحدى رصاصات "البوب" التي كانت هي على سبيل المزاح معه في إحدى المزاحات القليلة التي كانت في الو اقع من الممكن أن تبتر قدمه، ولن يستطيع أن يقف اليوم أمامي متحدثا، ويبشرني بهذه الأخبار.

لم يعد الأمر سرا، بعد مرور هذه السنوات؛ لقد انتهي هذا الزمن، لم يعد يعرف أحد في كولومبيا أين هو؟ لقد قطع صلاته بهم منذ زمن بعيد، ولكنه كان على استعداد دائما ليبدي النصائح. الجانب الآخر ظهر في معدن هذا الإنسان الذي طالما أراد أن يذهب إلى كولومبيا حتى يستمتع بآخر أيامه هناك، في "سيوداد بلانكا" المدينة البيضاء، أو أن يظهر في "فيلا دي ليفا" كان يريد أن يرقص هناك. أو أن يصلي في كنيسة "دي ارميتا" حتى تسترخي أعصابه من الإثارة التي لحقت به طوال الثلاثين عاماً الماضية. ولكن لامفر من هذا الآن. أصبح الجنرال أسيرا لهذا المكان الذي كتب عليه مهاجر مرغم على ترك بلده مرة أخرى، من أجل أسباب لا دخل له فيها، ماذا سوف يحدث لو لم يكن هناك "البوب"؟ هل الأمر سوف يختلف؟ العكس هو الصحيح، سوف يظهر مرة أخرى ألف بوب.

كان عليَّ الخروج من البناية؛ حتى يتسنى ليَّ الذهاب إلى محطة البترول، وإعطاء نفسي الفرصة حتى أرى مظاهر الاحتفالات في هذا الجو الجليدي الأبيض، الذي طغى على الأجواء، ناظرا إلى السماء، التي لم ينقطع منها تساقط الثلوج طوال الأيام الثلاثة قبل قدوم أعياد الميلاد.

كان الأمر جديدا، ولكنه كان يستحق المشاهدة التي سوف تتكرر مرات عديدة في السنوات القادمة. كان التفاؤل يملأ قلبي بأن القادم أحسن، وسوف أستمتع بعيد ميلاد أبيض كما يقولون في "برونكس":

"لقد اشتاقوا إلى اللون الأبيض، الذي يدل على الصفاء والنقاء، وتكتمل به صور الأعياد".

لقد هدأت الحركة في الشوارع؛ ولم يتبق إلا الرجوع إلى الأوكار، و انتظار يوم جديد يبعث على الأمل والتفاؤل؛ وليس للباقين إلا الذهاب إلى أعمالهم الليلية؛ لقد قرب الصخب على الانتهاء في هذه الليلة الحافلة بمظاهر الاحتفال بقدوم أعياد الميلاد.

ألمح على الجهة المقابلة إصرار "ارنست نوندا" على ما يبعث بمباعث الفرح في المارة المغادرين المجمع التجاري، الذي قرب على إغلاق أبو ابه، وهو يرتدي الملابس الحمراء المزينة أطر افها بالزغب الأبيض، وفوق رأسه غطاء الرأس أيضا باللون الأحمر والنظارة الطبية.

لقد حاولوا مرارا أن يشرحوا له أن "سانت كلوز" ليس إلا رجل أبيض، يأتي من القطب الشمالي؛ ليحقق أحلام الصغار في أعياد الميلاد؛ كان إصراره واضحاً، ولماذا يصبح من يبعث السعادة في قلوب الأطفال شخص أبيض، ولماذا لايكون أسود اللون؟ وهل السعادة أيضا تعرف العنصرية مابين أبيض وأسود؟ لا أعتقد. كان هذا جو ابه الذي حاول كثيرا إقناع الآخرين بهذا المبدأ، ولكن لا أحد ينصت؟ لماذا لا نتعامل على أننا فقط أحياء من الإنسانية؟ ليس لنا ألوان، بل فقط من نسل أب واحد، وأم واحدة؛ لماذا الإصرار على أن السعادة قاصرة فقط على الجنس الأبيض، أو أي جنس من الأجناس الأخرى؟ لماذا الإصرار على التفرقة؟ نحن أيضا لنا القدرة على بث السعادة في الآخرين؛ كان إحساسه بالظلم لايطاق في بلده التى أتي منها. كم عانى من الحرب الأهلية؟ كم من المجازر ارتكبت باسم الديمقراطية! لقد دفع ثمنه غالياً؛ هي أسرته التي أبيدت بالكامل، تحت غاز الخردل في خلال المئة اليوم الأولى. ثمانية آلاف من الأقلية التي اضطهدت؛ ما أكثر الليالي المؤرقة؟ غاب عنه النوم، وأصابته

الكوابيس المفزعة. الجسد الغارق في عرق غزير، والصراخ القادم من صور تقشعر لها الأبدان.

من يريد الحرية عليه أن يدفع ثمناً باهظاً؛ لكي تتحقق. كان أكثر سعادة، ويحرك الجرس الأصفر بين يديه، ويطلق صيحات "سانت كلوز" (نويل) هووووووووووه كان ماينقصه الزلاجة والأيائل وكيس الهدايا، لم يكن إلا "أرنست كلوز".

الوصول إلى محطة تموين السيارات، لم يكن بالصعوبة لقد خفت الأرجل، ولم يعد إلا القليل من السيارات، بعيدا عن الميدان الرئيس. لقد انصرف من كان في المحطة، وخاصة في ورش إصلاح السيارات أو الغسيل. لقد هاجر معظمهم أماكنهم، تاركين للعامل الليلي الذي سوف يتولى الساعات القادمة من خلف الزجاج، بعد أن أغلق الباب عليه من الداخل، وله مفتاح يستخدم فقط في الحالات الضرورية والقصوى جدا.

لم تنصرم ليلة من الليالي إلا وهناك أصوات سيارات الشرطة، التي لاتفرغ من حادثة حتى تبحث عن آخر، ويبقي هكذا الوضع حتى ينقضي وقت الليل، كانت تؤنس الوحدة القاتلة. و أنا أرى الشوارع فارغة تماما من الحياة حول الميدان، الذي تبدأ فيه الحركة من بعد الحادية عشرة مساء. تبعث الحياة مرة أخرى إلى الميدان والملهي الليلي لايتوقف حتى تباشير الصباح؛ لا تتوقف الحركة مع الزخم القادم من صغار لايتعدون السابعة عشر، أو ربما أكبر سنا من ذلك، ويأتي الغرباء بسيارات يقفون في الشوارع الجانبية والأزقة؛ لتوزيع بضاعتهم. كم سمعت من المشاجرات على ثمن ما يبيعونه، ودوي الرصاصات النحاسية تتصاعد من هذه الجهة أو تلك، وتزيد دوريات الشرطة ذهابا وعودة؛ أملا في القبض على الرؤوس الكبار.

استلمت من القائم على المحطة، بعد انصرافه، وإغلاق الباب الزجاجي المحصن، قائلا ليّ في تعليمات أكثر صرامة عن ذي قبل:

"لا تذهب إلى البنك الليلي للإيداع؛ بل عليك أن تترك الأموال في الخزينة التي تحت المكتب حتى الصباح".

كانت تعليمات واضحة وصريحة منه، ولا يوجد له رأى آخر؛ سوف تأتي شركة لتجميع الأموال من المحطات المحيطة بالحي؛ لأنه قد وقع سطو تحت تهديد السلاح بالأمس لأحد زملائهم، وأصيب بجرح نافذ في بطنه؛ ولذلك أصبح الحذر واجباً.

ترك المحطة وانصرف، كم أشتاق إلى إحدى جلسات الأصدقاء في هذا الوقت، على الرغم من أن عملي كان يفرض العمل خلال أعياد الميلاد في مصر، ولكنه كان له رونق في صحبة أصدقائي.

كانت فرصة أن نذهب إلى "جاكس" في أحد الفنادق الكبرى، ونقضي رأس السنة هناك مع العد التنازلي؛ لاستقبال عام جديد أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد. ونبدأ في سنة جديدة، ندعو فيها أن تكون أفضل من قبلها، لم يحدث طوال الثماني سنوات الماضية، بل كانت تزيد سوءاً.

لقد تجاوزت الثالثة، لقد قارب الفجر على البزوغ؛ لم يتوقف الدخول والخروج من الملهى الليلي؛ لقد غلقت الأبواب من كثرة الواقفين خارجه. كانت الموسيقى عالية، ولكني من وراء هذه المتاريس بالكاد أسمعها. ولكن الصخب خارج الأبواب قد وصل إلى مداه.

لم تتوقف السيارات ومن فيها عن تصريف السموم البيضاء بأنواعها، وتوزيع حبوب الهلوسة، وأيضا لم تتوقف سيارات الشرطة عن الذهاب والمجئ؛ للحيلولة دون وقوع المشاحنات وفض المشاجرات المفتعلة بحكم ما يتناولوه.

الحركة هادئة، لم يقترب أحد من المحطة؛ حتى ولو لشراء السجائر؛ كان كل شيء هادئا والجو يبعث على النوم، وفيها وضعت رأسي مابين ذراعي، ولو لغفوة صغيرة مادام كل شيء هادئاً، والباب مغلقاً. ما الذي يمكن أن يحدث؛ كانت إفاقة سريعة مع طرق عنيف على الزجاج الأمامي، مازلت أفرك بظهر اليد حتى أفيق من هذه السِنة من النوم. لم أعرف أني قد غطيت في نوم عميق، وأن أرى أنثى مبعثرة الشعر، تقف مترنحة أمام الزجاج السميك، وهي تصرخ في وجهي حتى أفتح الباب الأمامي. كانت تصرخ بشدة، و أنا أرى من ورائها أخرى تقف على بعد خطوات، وهي تصرخ أيضا في فزع في استنجاد مفزع، يخلع القلوب قائلة لي في صوت مفزع:

"افتح الباب، افتح سوف نقتل، افتح بسرعة".

لم أتردد لو لحظة، حتى فتحت الباب الزجاجي. لقد شاهدت الكثير من الأفلام الأميريكية ربما يكون كميناً؛ حتى يستولوا على الأموال الموجودة في المحطة، ولكن لاتوجد هذه المبالغ الكبيرة. وترددت أيضا الأسئلة المدمنون لايتورعون، ولا يتوقفون. سواء هي مبالغ صغيرة أو كبيرة لا يعنيهم. هذا ولكن من يقفوا أمامي، لايبدو أنهم من هنا، بل هم غرباء عن هذا المكان وما يرتدونه، لايدل علي أنهم من "برونكس"، بل ربما من يسكنون بالقرب من هنا، ربما من "جامايكا"؛ ولكن لا هن بيضاوات، وهل يمنع أن يكن بيضاوات أو صفراوت. لكن هذه الملابس لاتدل على فقر، بل على حال ميسور. لقد اندفعن وهن يصرخن في وجهي؛ حتى أغلق الباب حتى إحداهن قد تقدمت في خطوات سريعة، وهي تدفع الباب الثقيل نوعا ما، و أنا أنظر إليها في تعجب واضح. من أين أتت بهذه القوة؟ كانت تنظر إليَّ حتى ادفع الباب معها؛ لكي يغلق وهي فزعة قائلة لي:

"لاتقف هكذا، اغلق الباب معي، سوف يأتون إلى هنا لقتلنا".

كنت أنظر إليها في استغراب، و أنا أرى أنهن قد لبسن ثوب الشجاعة والقوة المفرطة، الصادرة من أنثى؛ لكني أعلم أنه في ساعات الخوف الشديد أو الخطر يأتي الجسد بأفعال لايصدقها العقل، وكان غلق الباب، و أنا أنظر إليها؛ لم تتجاوز الخامسة والثلاثين، ربما أقل من هذا، أو أكثر لا أعلم؟ فيها شقاوة كثيرة على الرغم من هذا العمر، ربما يبعث هذا على الهدوء والسكينة، ولكن لا هذه مختلفة، عيناها فيهما غموض أو سحر؛ ربما حكاية لم ترو؛ الشعر المقصوع يميل إلى الاحمرار. إنها خمرية، ولكنها تحمل ملامح الشرق الأوسط. الوجه محمل بحمرة خفيفة تبعث على الدفء. الرقبة طويلة على الرغم من إخفائها تحت ملابسها الشتوية، لكني آلاحظ امتداد العنق، ابتداء من الكتفين، فهي بالنسبة لي "بعيدة مهوى القرط" لقد غلب عليَّ السرحان والذهول، و أنا أقف ساهما أمامها، وهي تنظر إليَّ في تعجب. إنك لم تلتقِ في حياتك بامرأة! قائلة ليّ في استغراب ودهشة من موقفي المتجمد أمامها:

"أيها الغريب هل تسمعني؟ يبدو أنك لم تلتقِ بامرأة من قبل؟"

لم أنطق ماكان يقال عني في الماضي. قد سقط هذا الشاب الوسيم الذي له صولات وجولات في أنحاء المعادي، لم يعد له وجود بل تلاشى تماما؛ لم أنبس بكلمة أمامها، مازلت ساهما، ولا أسمع شيئا مما يقال؛ حتى لقد نسيت من كانت تصرخ من ور ائي، وهي تشير إلى جماعة من الأوغاد، الذين جاءوا سريعا من الملهى الليلي، وهم يحاولون الفتك بها، كانت تحثني على غلق الباب في سرعة قائلة ليّ، ويبدو عليها علامات الرعب:

"ساعدني كي نغلق هذا الباب بسرعة".

ولكنهم وجدوا أن صفارات سيارات الشرطة قد اقتربت، وأن الباب الزجاجي المصفح قد أغلق تماما، و أنه لايوجد أمل في اقتحام المحطة والفتك بهن، فكان الفرار هو القرار الوحيد أمامهم من غير تلكؤ.

لقد تصاعدت وتيرة الخوف عدة مرات في أعينهن، وهن ينظرن إليّ في توجس من هذا الغريب، الذي فتح الباب لهن؟ هل سوف يكون أرحم من هؤلاء الأوغاد الذين كانوا يسعون وراءهن؟ ولكنه وحيد، ونحن اثنتان لن يقدر علينا، ولكن صديقتي لاتقدرعلى الوقوف، سوف أصرخ في وجهه، وربما ندخل في عراك، ولكنه أطول مني، و أيضا وسيم، سوف يتحكم فيَّ سريعا، ولن أقدر على الفكاك منه. يالها من ورطة: مازلت ساهما، وأن أرى صديقتها قد هوت على الأرض، فاقدة الوعي! يالها من مصيبة! لو فقدت حياتها سوف أصبح في وضع لا أحسد عليه: لأن التعليمات شديدة الوضوح ممنوع منعا باتا فتح الباب الزجاجي: لأي مخلوق كان. ولكن هذا أمر طارئ لا أستطيع أن أقف مكتوف الأيدي.

لا أستطيع أن أرى إنساناً ولا أمد يدي إليه، حتى لو كانت جميلة مثل هذه التي تقف أمامي! كانت تتفحصني أنني غريب بالتأكيد مثل ملايين المهاجرين. هذا واضح وهي أيضا ربما من المهاجرين لا أعلم: كان علينا الإسراع إلى صديقتها التي فقدت الوعي تماما، لقد أخرجت من حقيبتها قنينة من العطر، تبدو غالية الثمن، لم أرها من قبل في أي من المحلات أو المجمعات التجارية الكبرى: لقد بدأت تنثر العطر بكثافة على وجهها، وتصفعها صفعات صغيرة على وجهها حتى تفيق: الثملة قد تملكتها بالإضافة إلى الرعب الذي ارتسم على وجهها في هذه الليلة، جعلها تفقد الوعي سريعا، إنها أيضا لم تتجاوز الثلاثين من عمرها، ويبدو عليها علامات الغنى أيضا، ولكنها أقل منها بقليل، ما الذي أتي بهن إلى هنا؟ كان السؤال قد تصاعد، و أنا أحضر ماءً مخلوطاً بثلج، كانت المياه باردة جدا، لقد أغرقتها بها تماما، وهي تشهق في رادات فعل سريعة، تمسح وجهها بأكمامها التي خرجت من تحت السترة الجلدية، وهي تسبني بأقذع السباب، و أنا أنظر إليها في غضب واضح، وصديقتها تضحك في هستيرية

من الماء، الذي أغرقها تماما. لم تتوقف عن الضحك، حتي بدأنا نضحك ثلاثتنا في هستريا واضحة.

هدأت هستريا الضحك، حتى بدأنا الرجوع إلى حواسنا، وإدراك لما جرى من أحداث في هذه الليلة الغريبة في أحداثها؛ لم أبدا بالحديث، ولكن صديقتها قد بدأت بالحديث، وهي مازالت تحت تأثير المسكر الذي خف من تأثيره عليها بعد الماء المثلج. إنها من دواعي الحظ السيء أن يأتوا إلى هذا المكان الحقير، وهذه كانت رغبة الو اقفة بجواري قائلة في كلمات مرتعشة من برودة الماء:

"كل هذا بسببك أنتِ؛ انت ورغباتك المجنونة! أي ماض تبحثين عنه؟".

كانت تريد أن تحس بالحنين إلى الماضي، وفقر الماضي؛ ولذلك رجعت لهذا المكان المشؤوم؛ كنت أنظر إلى الو اقفة بجواري. هذه كانت في فقر، لكن لايبدو عليها أنها قد ذاقت الفقر من قبل. إنها رغبة في الإحساس بالماضي، واللحاق به، يالها من أمنيات حقيرة، كانت تكمل ما بدأته قائلة:

"إنها دائما تبحث عن المتاعب، وللأسف من غبائي دائما أنساق ورائها".

كنت أنظر إليها، وصديقتها تحكي عما صادفته في هذه الليلة، ولكنها لم تكمل! لقد هوت على الأرض في هدوء، مع آخر كلماتها، هل هي قد أغمي عليها، أم إنها نامت من المغامرة؟ بل لقد نامت تماما، وهي تحكي. لقد حاولت أن تحملها من على الأرض، بل لم تستطع وهي تنظر إليَّ حتى أستطيع أن أساعدها قائلة ليّ في كلمات من الاستعطاف:

"إن الفكرة في المجئ إلى هنا كانت فكرة غبية، وفيها قدر كبير من الحماقة والغباء".

كانت تقول إنها غلطة، ولن تكررها. كانت تبحث عن الماضي والحنين إليه في هذا المكان. كان هذا المكان أرقص فيه في الماضي، وقضيت أجمل أيام العمر

فيه، قبل أن أنتقل إلى مانهاتن. كان مكان يسوده الاحترام، ولكني وجدت نفسي في غير المكان. لقد تغير كل شيء، قائلة ليّ في أسى واضح:

"من الغباء العودة للماضي، أو البحث عنه، بالتأكيد سوف يصيبك بالصدمة؛ لقد حاولوا أن يبعيوا لنا الكوكايين، ولكننا رفضنا؛ لكنهما أصروا بما أننا فتيات بيضاوات فنحن مدمنات؛ لم أصبر على صلفه، بل صفعته، عندما تطاول عليّ، وكانت هذه الشرارة لما حدث، فأصابته في كبريائه، فجمع عصابته، و ابتدأت المطاردة المحمومة كما رأيت، وها هي صديقتي قد نامت مني".

كانت ترجو مني أن أحمل صديقتها، لقد رفعتها من على الأرض، وهي مبللة تماما، وأخبرتها أن تحضر سيارتها أمام المحطة، حتى لا أترك المحطة. و أيضا أن تكون السيارة قريبة من الباب حتى أستطيع أن أضعها في الكرسي الخلفي، قائلا لها في لغة الأمر:

"أحضري السيارة أمام الباب، و افتحي الباب الخلفي للسيارة، سوف أضعها في الخلف وعليكِ الانطلاق بأقصي سرعة بعد ذلك".

لقد ذهبت مسرعة، وهي تركض ركضا محموماً إلى أحد الأزقة المحيطة بالملهى الليلي، وأحضرت سيارتها، ولقد فتحت الأبواب الخلفية، ووضعنا صديقتها وأغلقنا الأبواب وهي تقف عند باب السائق وهي تشكرني؛ في صياغة شكر غريب أنه فعل الغرباء؛ الرجال فقط هم من يفعلون هذا. أما أشباه الرجال سوف يهربون. بالمناسبة اسمي "إنجلينا أليسندرو" قائلا في كلمات شاكرة ليّ على صنيعي:

"لايوجد الكثير مثلك، من ينجدون سيدة في ورطة، أشكرك على معروفك أنا اسمي إنجلينا أليسندرو ماهو اسمك أيها الغريب؟".

إنه بالفعل اسم ملائكي، والوجه ملائكي. لقد انتظرت حتى السؤال عن اسمي؛ لقد توقفت عن الرد لم أعرف اسمي؟ كان الرد بهزة منها: أيها الغريب ما اسمك؟ لقد أجبتن، و أنا تتملكني الدهشة في صوت هامس:

"اسمي سمير جلال".

كانت تنطق الاسم بشيء من الموسيقى قائلة ليّ:

-"سمير".

"سمير" لم أكمل، بل ظهر في اسمي نوع من الموسيقى الخفية، لم أدركها إلا الآن فقط، اسمي أصبح له سحر فقط من بين شفتيها، كان آخر شيء قبل انصرافها:

"سوف نلتقي قريبا، وهذا وعد"، كانت أسعد ليلة في حياتي.

فراق الأحبة

(٤)

"اللقاء ليس إلا بداية الفراق"   قول ياباني

يوليو ١٩٦١م.

لماذا تطرق الآلام بقوة على ذكرياتنا؟ كم مضت من سنوات العمر المنصرم؟ وما الذي تبقى منها؟ نتناسى فيه الآلام، ولا ننس أو نحاول أن ننسى الذكريات؛ لأنها جزء قد كبر فينا على مر السنوات الماضية، بل نحاول أن ننسي ما يعكر صفوها، ونضحك فيها على القليل منها، عندما تطرق بقوة على قلوبنا حتى لا ننسى. لقد نخرت فيّ سنوات العمر. تقسو من غير شفقة من غير أن تبدي أياً من لحظات الندم على ما فعلته بيننا طوال السنوات الماضية. لا تعبأ بأحزاننا، لاتعبأ بأوجاعنا، بل تزيد فيها، وتمضي فينا مثل القاطع من الحديد الصدئ في لحم نيء. الدموع التي لاتجف، والأحزان التي لاتنقطع من منزل "أوجستين" يحلو لها آلا تفارق هذا البيت، تريد أن تمكث فيه قدر ما تستطيع. لقد أطفأت أنواره؛ شموع كثيرة اختفت على مدار السنوات القليلة الماضية. أول هذه الشموع كان "ألكسندر"، الشيب قد غلب على رأسه التي انحسر عنها الشعر، وهو يجلس على كرسيه الهزاز في الشرفة المطلة على الشارع، ينظر في وجوه المارة، غير عابئ بما يدور.

ينظر في الفضاء الفارغ في أحد أشهر الصيف القائظ؛ كم مرت من سنوات، وتتداعى الذكريات. إنه صامت تعتصره آلام الغربة والألم في فراق الأحبة. لم تصبه لوثة عقلية، بل كان يحدث نفسه. كان الصمود من فرار دموعه في وضح النهار، الكل ينظر إليه في شفقة المعزين؛ كيف تحمل هذا؟ لا يقدر عليه أحد كائنا من كان. إنه حمل تنوء به الجبال. إنه مطبق الشفاة، لايريد أن يتحدث "اغتيال" هذا ما كان يطلقه على موته. إنه لم يمت، إنه حي في داخله؟ كان هذا

الشيء الوحيد الجميل في مأساته؛ هذا الشيء الذي يجعله يتحمل، ولكن ليس بعد الآن؛ الوحيد الذي كان يضئ حياته من غير شروط.

كان الألم يعتصره منذ "اغتياله" من الذي اغتال هذا الحلم الجميل؟ من أغتال هذه الرجولة المبكرة؟ من الذي أعطي أمراً بالقتل؟ لا أعرف لقد سألها إلى "إبرا" أطبق الفم لم يعد ينطق؛ تكرار السؤال أأنت فعلتها؟! أأنت أعطيت أمراً بالقتل؟

"لا، لا مستحيل أن يفعل "إبرا" هذا في أخيه؛ حاول أن يفيق من صدمات الأسئلة التي لاتنتهي قائلاً له في حزن بالغ:

"هل أعطيت أمراً بالقتل؟ هل قتل أخاك كان بدون قصد؟ أم أنت كنت تقصد قتله بدم بارد؟ لماذا لاترد على أسئلتي؟".

لقد اتشحت الكنيسة عدة مرات باللون الأسود؛ قوائم الأفراس الأربعة السوداء، قد حملت من النعوش من هذا المنزل مالا تحمله أفراس أخرى، والطوابير الطويلة من المعزين، كانوا على امتداد البصر، تكرر المشهد عدة مرات. لماذا لايزورهم الفرح ولو لمرة واحدة؟ لماذا؟ الحزن اكتوى به كل من يعرفونه مع أول جثمان في "أرض الأحلام". أن يدفن بعيدا عن مسقط رأسه؛ يقف علي قبره هو يهيل التراب على ابنه. كم كانت قاسية لحظة أن تواري ثرى ابنك قبل ميعادك أنت؟ كانت الدموع تغلبه، وهو يوراي جثمان "ألكسندر" قائلا في حزن بالغ:

"كيف تموت قبلي؟ كنت أنت الشمعة المضيئة والوحيدة التي كانت تنير هذا الدرب المظلم الطويل".

هذا الشاهد الأبيض يقف شاهدا على "اغتياله": كم هي كانت جميلة في ترتيبها، ولكن كم هي كانت بشعة! أغلقت أبواب المتاجر في هذا اليوم المشئوم، ازدحمت الكنيسة عن آخرها لايوجد موضع لقدم. الكل يعتصره الألم. من

منهم لا يتذكر هذا الطفل الذي كبر قبل أو انه، تخلى عن طفولته، وركب قطار الرجولة مبكرا. لم يتخل عن العائلة، وهذه هي قيمة الرجولة ليست بعمر أو بسن يُلهى بأفعال. ربما تأتي من صغار في الحجم، ولكنهم كبار في أفعالهم.

اللون الأسود قد ملأ الوجوه قبل الملابس؛ كان الأسود مثل بهيم الليل في وضح النهار. أصبح الشعار الرسمي لهذه العائلة المنكوبة؛ الجسد المسجى أمام المذبح، ولقد رفع الغطاء الخشبي عن وجهه للوداع الأخير: أهي نظرة رضا بما فعله؟ أم هي نظرة غضب في أنه لم يكمل المشوار الذي بدأه؟ لم تتسع المقاعد لكل هؤلاء، بل لقد وقفوا في الردهة مابين المذبح والباب الخارجي؛ لإلقاء النظرة الأخيرة على هذا الجسد المسجى؛ تعتصره الذكريات في شدة، والراحلة الأخرى تقف بجانبه "كارينا" مستندة عليه، الذي يبدو عليهما علامات الإرهاق والعمر الذي تقدم فجأة؛ تكاد تسقط عدة مرات: الألم يعتصرها، الابن البكر قد ذهب برصاصة الغدر؛ بل لقد اغتالوا أحلامهم؛ هذا من كان سوف يقود السفينة إلي بر الأمان. اغتيال الأحلام شيء سهل في زمن الفوضي في زمن اللخبطة؛ الأحلام لاتساوي بنسات أو قروش أمام الهدم. أمام الحروب، أمام الموت.

لم تكف عن البكاء منذ لحظات الغدر؛ لم تكف عن ندب حظها العاثر في أن ترى ابنها قد اغتالته يد الغدر في فرح أخيه؛ لاتريد أن تصدق أنها لن ترى ابنها مرة أخرى؛ لم تشح بوجهها ولو للحظات عن التأمل في وجه ابنها؛ لم تعر بالها بما يحدث في الخلف؛ كان كل مايعنيها آلا يغيب بصرها ولو للحظة واحدة. "أوجستين" وقف ساهما لايلوي على شيء؛ لم يذرف دمعة واحدة؛ لم يكن متحجر القلب، بل كان لايقدر على البكاء؛ كأن الدموع قد عصت على النزول؛ كأن الدموع لاتريد أن تحزن، كأنها تخبره أنه لم يمت، بل سوف يرجع بعد قليل، كان و اقفا منتظراً المعجزة التي لم تحدث.

البكاء قد طال بعد "اغتيال ألكسندر" الشهور قد مرت في بطء غريب؛ كانت "كارينا" تريد الأيام والشهور أن تمر سريعا؛ حتى تلحق به؛ لقد سئمت الحياة! تريد أن ترحل، لقد عزفت عن الطعام، لم تعد تشارك العائلة في إدارة المخبز العتيق؛ قبعت في حجرتها تنظر إلى ألبوم ذكرياتها الذي امتلأ بصور باهتة من اللون الأبيض والأسود، ولكن ملامحه واضحة هذه كانت على ضفاف نهر التيبر؛ هذه كانت "للكسندر" هو يركض بطائرتة الورقية؛ هذه صور عائلية كاملة قبل الهجرة إلى أمريكا، وهذه كانت صورة في أول مخبز لهم في "برونكس" وهذه... وهذه... اغرورقت عيناها بالدموع، وهي تنظر إلى ألبوم الذكريات. لم تعد تطيق النظر مرة أخرى في وجه ابنها "إبرا"؛ لاتريد أن تنزل إلى المخبز.

كل خطوة فيه تذكرها بابنها الأكبر "ألكسندر"؛ لقد تركت الأمور كلها إلى "فيولا" التي لم تقصر في رعايتها لها، بل لقد صبرت على الأوقات العصيبة التي تمر بها.

كانت تريد دائما أن تبوح لها بسرها، ولكنها لاتستطيع، إنها لن تتحمل هذا السر الدفين؛ كانت "كارينا" تنظر إليها، وهي تتفحصها وتريد أن تفتح تحقيقاً موسعاً معها، ولكن كانت دائما ما تتهرب منها، على الرغم من إلحاح "كارينا" المستمر، ولكنها كانت تتهرب منها دائما، كانت حجتها دائما، إنها لاتجد وقتا للجلوس معها قائلة لها في حزن بالغ:

"فيولا يوجد سر لا تريدين أن تبوحي به؟ لماذا يافيولا؟"

كانت "فيولا" تنكر هذا الأمر، بل توحي إلى "كارينا" أنها تتخيل هذا الأمر، ولا وجود له وكانت تتعلل بأنها مسؤولة عن المخبز في حالة غياب "أوجستين"، وإن "إبرا" لا يتواجد معظم الوقت، بل ربما يغيب بالأيام بعيدا عن المنزل. مشغولاً بالذهاب إلى نيويورك، أو الذهاب إلى لاس فيجاس، فهو غير موجود لرعاية "فرانسيسكا" التي قاربت على وضع حملها، وإن "فرانسيسكا" تحتاج إلى

رعايتها الدائمة؛ نظرا لقلة حركتها قائلة لها في كلمات مرتعشة تخلو من الصدق:

"إنك تتخيلين هذا الأمر؛ لايوجد أسرار، بل الأمر لايتعدى سوى إنني مسؤولة عن المخبز؛ أيضا "فرانكي" تحتاج إلى رعايتي أيضا، إنني مشغولة جدا".

لقد انشغلت أيضا "فرانسيسكا" بقدوم أولادها، لم تعد تجد وقتاً لنفسها، بل كل الوقت أصبح منصباً على "ألكسندر الصغير"؛ حتى بعد وصول أحفادها "ألكسندر الصغير" كانت أكثر فرحا من الآخرين، وهي ترى حفيدها أمام عينيها، كانت تغدق عليه بالهدايا، كانت تنظر في عينيه فترى ابنها الراحل، فيزيد من عذاباتها. رحلت في هدوء بعد مرور سنة على وفاة ابنها ألكسندر، وكانت الكنيسة لم تقل في سواد ألوانها، ولم تقل عن يوم وفاة ابنه الأكبر.

أصرت "فرانسيسكا" أن يكون ابنها الأكبر باسم حبيبها؛ قد أصاب "إبرا" بالجنون أمام تصميم زوجته؛ كان تحدياً واضحاً قائلا لها في وقاحة متناهية:

"كيف تجرؤين على تسمية ابني باسم عشيقك يافاجرة؟".

على الرغم من وهن "فرانسيسكا"، إلا أنها لم تقف مكتوفة الأيدي، بل كانت كلماتها له تحمل كل أنواع التحدي، قائلة لها في قوة وخبث الأنثى:

"من الممكن أن تراجع أبي في اسم ألكسندر الصغير، وسوف نرى ما سوف يقوله عن هذا الأمر. كنت أتمنى أن أكون عشيقته، ولكن مع الأسف هو أشرف من ذلك أيها العاهر!

كانت تذكره دائما أن "ألكسندر" لم يمت، بل مازال حياً في صورة مصغرة "ألكسندر الصغير" كان أكثر هدوءاً، وترتسم على شفتيه ابتسامات صغيرة، ولا تخلو من الألاعيب التي كانت تفعلها "فرانسيسكا" في "أوجستين"، عندما يرفع شعر جده إلى الأعلى، ويزيح الخصلات البيضاء من جنب إلى جنب آخر في صور

مضحكة. كان هناك إصرار من "فرانسيسكا" على الاحتفاء بذكرى أخيه، وهذا لايمنع من تخليده في صورة ابنه؛ لقد وجد غضاضة في ذلك الأمر. وجد ترسيخ صورة أخيه أالكسندر" في ابنه. أصبح هو العقاب الحي الماثل أمامه؛ كان عقاباً من السماء؛ كان يكره ابنه، ولكنه كان في الحقيقية يكره أخاه الذي كان يستحوذ على احترام والديه بدون قصد؛ إنه يكرهه ويكره زوجته في هذا الأمر، ولكنه لايستطيع أن يخبر والديه أنه يكره أخاه، ولكن لامفر من قبول هذا الأمر؛ لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل بلغ مداه؛ "فرانسيسكا" كانت تريد فضح زوجها الذي لا تطيقه؛ ومن وراء ابنها "ألكسندر الصغير"، كان ابنها الأصغر "إنجلينو" الذي كان ممتلئاً بحيوية الصغار. كان يشبه كثيرا "أوجستين" الذي كان يحتضنه كثيرا، عندما يأتي مهرولا، ويفلت يده من يد أمه، ويذهب إلى "جده" في مرح زائد، وترى "إنجلينو" يمطر جده بقبلات سريعة؛ كان "أوجستين" ينظر إلى أمه، ويتذكر عندما تهاوت على المقعد الذي يجاور "كارينا" الراحلة الجدة التي لم تسعد بأحفادها؛ لقد انقطعت عن الكلام منذ "اغتياله" لاتريد أن تتكلم؛ تتحسس الفستان الأبيض وعليه دماؤه؛ إنها دماء "ألكسندر" حبيبي الذي غاب عن أنظاري؛ ولكنه لم يغب عن قلبي، كانت خيانة في عدم انتظاره؛ الخيانة أن أكون لغيره حتى لو كان أخوه و أين هو؟ هو المُسجى أمامي في هذا الصندوق الخشبي اللعين.

فرق الموت بيننا ولكنه في عقلي؛ غيبه الغدر والموت، ولكنه لم يغب عني في كلامه؛ أحاديثه، رقته، احترامه، في أحلامه؛ لم يغب عني، بل هو حي في داخلي إلى آخر يوم في عمري؛ ينزل من بين يد جده، ويجرى ناحية جدته "فيولا" التي تفتح ذراعيها؛ لتأخذه في صدرها وترفع "ألكسندر الصغير" وتحتضن الاثنين في حب بالغ، قائلة لهم في حب بالغ:

"أهلا بأعز الناس؛ تعالوا في حضن جدتكم".

كانت ترى الدموع قد اكتست على وجه ابنتها التي افتقدت الحنان. الكل تركها لهذا المصير مع زوج تركها، ولكن لا تستطيع أن تفعل شيئاً؛ كانت ترى عذابات ابنتها. كانت "فيولا" في حيرة من أمرها. كانت تريد أن تخبر هذا الجمع الماثل في الكنيسة، وتخبرهم أن من فعل هذا الأمر المشين والجريمة التي لاتغتفر هو زوج ابنتها "إبرا"، لقد حاولت أن تبوح بهذا السر القابع في أعماقها، ولكنها لاتستطيع. ربما كان الأمر بدون قصد منه، وبدون أن يشعر. لقد نبه قرناء السوء، آلا يقترب أحد غريب من مكان عرسه. لم يضع في حسبانه أنه ربما أخوه قد يحضر بدون سابق إنذار، وبدون سابق موعد. لقد سمعته في الليلة السابقة في حفلة توديع العزوبية. آلا ينتظر أحد الإذن في إطلاق الرصاص على أي غريب يأتي، وخاصة في وجود العائلات الخمس والشرطة حاضرة. كانت كلماته لهم في منتهى الحدة والصرامة قائلا لهم:

"إنه حفل زفافي أريد منكم كامل اليقظة، لا أحد يقترب من مكان الحفل حتى لو كان أخي، بل إطلاق الرصاص عليه بدون رحمة. العائلات الخمس هنا، و أيضا الشرطة منتشرة في كل مكان؛ لا أريد أخطاء".

كيف تواجه "إبرا" زوج ابنتها؟ أن تضعه في السجن مدى الحياة، أن ترى ابنتها ترملت بدون وفاة الزوج. كيف تواجه "كارينا" وهي تريد أن تبوح لها بما هو راسخ على قلبها مثل الصخرة الكؤود؛ كيف تواجه "أوجستين" عندما يخسر الولدين؟ اغتيال "ألكسندر" وسجن "إبرا"! كيف تقدر على هذا؟ لا تستطيع المواجهة، هذا فوق طاقة البشر.

كان ينظر إليها على مدار السنوات الماضية؛ بعد وفاة "كارينا". كان "أوجستين" ينظر متفحصا "فيولا"، يستحثها أن تبوح بسرها، كان حديثه يطغى عليه الحنان، حتى تبوح بما هو جاثم على قلبها:

"ماذا بك يازوجة أخي؟ أرى أن هناك أمراً ما يزعجك؟ قولي لي ما الذي يزعجك؟"

كان يعلم من زوجته: أن "فيولا" لديها سر، لا تريد البوح به، ويكاد يقتلها، لقد حاولت معها ولكنها فشلت في إقناعها؛ حتى تستريح من هذا العبء النفسي الو اقع عليها؛ ولكنها لم تقدر على البوح، وهي تنظر متذكرة نظرات "إبرا" بنظرات متوحشة، عندما أدرك عند فتحه للباب لقضاء حاجته أن "فيولا" قد سمعته، وهو يعطي أوامره لهولاء الغوغاء بإطلاق الرصاص على كل غريب يقترب من عرسه، قائلا لها ممسكا بذراعيها يكاد يعتصرهما. وفي غضب مهددا إياها:

"أتنصتين عليّ؟ ما الذي سمعته؟ ما الذي سمعته؟ لو نطقت بحرف، سوف أقتلك، وسوف أقتل ابنتك".

لقد قام بتهديدها في ابنتها "فر انسيسكا" عند اغتياله، لقد جاء إلى غرفتها ليلا، عندما نويت أن تخبر "أوجستين" بأمر ابنه "إبرا"، ولكنه لم يعطها الفرصة، بل قام بتهديدها إنه سوف يقوم بقتلها إذا باحت بهذا السر. وكما حدث مع أخيه بدون قصد، سوف يقوم بقتلها في هذه المرة بقصد! كم كان قاسياً؟ من أين أتت هذه القسوة؛ لم يكن هذا "إبرا" عندما كان في إيطاليا أهل الشر قد أعموا بصيرته. أصبح الإجرام هو الطريق الوحيد الذي يعرفه؛ كان الأمر قاسيا، ولكنها لا تستطيع أن تتفوه بكلمة، سوف يكون الرد عنيفا ومميتا لابنتها ولها أيضا. وهذا ماحدث، اتشحت الكنيسة مرة أخرى باللون الأسود. كانت هذه المرة: "فيولا" على قارعة الطريق بعد أن صدمتها سيارة مسرعة، أتت من زقاق مهجور، بدون لوحات معدنية، وقيدت الحادثة ضد مجهول.

لم يتوقف الكرسي الهزاز، كأنها ترج في أعماقه بانفجار البركان بداخله؛ لماذا مازالت على قيد الحياة؟ هل سوف أجلس أحملق على هذا الكرسي الهزاز، سوف يبعث الأحبة من جديد، أم هو بركان سوف يفيض وينفجر بالحمم المكبوتة داخل الصدر الضائق بكل ماهو ذهب بدون رجعة؟. هل سوف أشاهد سطوراً أخرى تكتب في النكبات المتتالية لعائلة "أليسندرو". الابتلاء قد زاد من ضعفي، شواهد الحفر العميقة قد زادت على مشاهد القبور؛ تضئ في الليل، والكلمات لاتنقص من الإضاءة؛ بل هي تلمع في غياب القمر؛ تزيد في جراحه من غير شفقة؛ لقد قرب المشوار على النهاية، وعليّ أن أسلم الراية للجيل القادم.

منذ رحيل الأحبة، وهو يتحين الفرصة: أن يرى "فرانسيسكا"، هي الوحيدة القادرة على تكملة المسيرة من بعده، فهي أثبت على مدار السنين، إنها جديرة بالثقة؛ لأن كان حظه تعساً في ابنه "إبرا" عندما سلك طريقاً بعيدا عن القيم التي تعلمها منذ نعومة أظافره، ما الذي اختلف في تربيته عن الراحل "ألكسندر"؟ لقد أخذ القدر نفسه من الرعاية والحب من كليهما، لكن بالتأكيد هناك شيء ناقص لا يعلمه؟ كان يريد أن يأخذ "إبرا" محله في أخذ زمام الأمور، ورعاية أسرته التي لا تعرفه إلى الآن؛ "ألكسندر الصغير" حصل على شهادة في إدارة الأعمال، وأخوه الأصغر "إنجلينو" قد أنهى خدمته الإلزامية في البحرية، في جيش العم سام. وحان وقت زواجهما من فتيات إيطاليات. لقد اختار لهما فتاتين من العائلات ذات السمعة الطيبة في إيطاليا. إنه على اتصال بهم من بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وحان وقت تكوين أسر لهما في أمريكا؛ إنه في انتظارهم منذ الصباح الباكر، وإلى الآن قد قرب الوقت على حلول المساء الطويل، من هذا اليوم من شهر يوليو، ربما يحتفلون بالرابع من يوليو. إنه في انتظارهم سوف يحضرون بدون "إبرا" منغص آخر في حياته.

إنه يرقص طربا، ومشاهدتهم وهما يتأبطون ذراعي "فرانسيسكا" في مرح واضح، يكادون يحملونها من على الأرض، إنها أكثر حنانا من أبيهم التي صورته تكاد تختفي في أعينهم، الذي أصبح بعيدا عنهم، كانت حديثها لهما، وهما يكادون يرفعونها من على الأرض، قائلة لهم في فرح واضح:

"إنكما أفضل شيء قد حدث ليّ في حياتي. أجمل ولدين في برونكس كلها؛ وعنوان الرجولة أنتما. البنات كلهن ينظرون إليكم يا محطمي قلوب العذارى".

لقد سمع الكثير من "فرانسيسكا" عن سلوك "إبرا" المريض، وما يفعله معها من ضرب مبرح وسباب بأقذع الكلمات. كم من المرات التي تدخل فيها "ألكسندر الصغير"، والحيلولة دون تفاقم الأمور، كاد أن يفتك به في إحدى المرات. كانت تعتبره الحامي لها، ولايقل "إنجلينو" حبا عن أخيه لأمه، يعتبرها ابنته الصغيرة؛ كم تأذى عندما يخبره في إحدى الخطابات، ما الذي يفعله والده في أمه؟ كان الحزن يصل إلى مداه، ويتوعده عند انتهاء خدمته الإلزامية، أن يرجع إليه بسلاحه، ويقضي على من يحرضه على عائلته التي هي امتداد له ولاسمه، لقد كتب خطاباً عاصفاً إلى أخيه الأكبر "ألكسندر الصغير" متوعدا إياه:

"عند نزولي سوف أرى من يحرض هذا الأب على عائلته: سوف أعمل سكيني فيه بدون رحمة حتى وإن كان هو أبي".

كم وقفت "فرانسيسكا" حائلاً بين ابنيها و أبيهم؛ حتى لا تتفاقم الأمور، قائلة لهما في كلمات إيطالية باستعطاف واضح:

"لا، لا إنه مازال أبيكم، لا تفعلوا هذا به".

أصبحت الفجوة واضحة بعد هذا العمر: لم تخبرهم بما يفعله من مغامراته العاطفية مع الساقطات، ولقد وصل به الأمر إلى بجاحة مع زوجات

أصدقائه في غيابهم! إنه الكلام الذي يصل إليها يوميا، ورائحته الغريبة المختلفة يوميا. إنه إحساس المرأة التي يظن أنها لاتعرف. سوف تكون نهايته مأساوية بدون شك.

أقبلوا عليه وهم يمطرونه بقبلات؛ كأنه لم يراهم منذ زمن بعيد، واختص "إنجلينو" بحنان زائد، بعد أن أنهي خدمته قائلا له، ومرحبا به في ترحيب زائد:

"إنجلينو حبيب جدك أين أنت؟ منذ زمن بعيد، و أنت لم تزر جدك؟".

قربت مدته منذ أن ترك البحرية، قربت الستة أشهر؛ محاولا أن يجد وظيفة ما، بعيدا عن مخبز جده، وعمل أمه الذي أصبح مصدر الدخل الوحيد لهم. بعد أن كف أبوهم عن الصرف عليهم. كان دائما ما يردد: "إنهم أصبحو رجالاً، يجب أن يعتمدوا على أنفسهم" كان يحدث جده في أسي واضح في كلمات تقطر حزنا قائلا له:

"قارة كبيرة مثل هذه، قد ضاقت بي، لا أجد فرصة عمل ياجدي؟"

لم يكف جدهم عن كفالتهم؛ حتى بعد أن انتهى "ألكسندر الصغير" من دراسته، وحصوله على شهادته و"إنجلينو" يبحث عن عمل له، بعد أن أنهي خدمته في حرب طويلة، لا ناقة لهم فيه ولا جمل. "فيتنام" مقبرة شباب أمريكا، و أتون مشتعل أتى على الأخضر واليابس، من أجل الديمقراطية، وعدم امتداد الشيوعية. كلها دعوات للحرب وهدم الأحلام؛ دعوات للموت والزيادة في الارتباك واللخبطة، بدون سبب مقنع، كل هذا من أجل السيد الجشع الذي يقبع في ١٦٠٠ شارع بنسلفانيا، والآلهة الحرب التي لا تتوقف عن إنتاج آلة تدمير العالم؛ من أجل مكاسب خرافية، والمحصلة أن تكون الرصاصة أغلى من قطعة الخبز، أو كوب من الماء؛ النهاية ليست في إحلال السلام، بل المزيد

من السيطرة على مقدرات الشعوب، والمزيد من الارتباك وقتل الأحلام في مهدها.

لقد ذاق الأمرين؛ مرة في حربه التي فرضت عليه، ومرة في رفض أمه إيجاد عمل له؛ لأنه لم يكتسب مؤهلات أخرى، غير أنه محارب، لقد طرق أبو اباً كثيرة، كان آخرهم مكتب لشحن البضائع، عندما قابله المدير، وقال له في سخرية:

"إننا لا نوظف المسرحين من الجيش، إنهم أناس قساة القلب، ولا يعرفون التعامل مع البشر العاديين، لايجيدون إلا التعامل بالسلاح".

كانت هذه المقابلة؛ القشة التي قصمت ظهر البعير؛ كان قراراً آخر يحمله في نفسه، قرر الهجرة بعيدا عن أمة لاتقدر أبناءها؛ وهجرته هذه المرة إلى الشمال، بعيدا عن وطنه. هل سوف يصبح الوطن الثاني له؟ أم الثالث؟ عليه أن يقرر. الأحاديث أصبحت فيها الكآبة ظاهرة بشكل واضح، المستقبل لا يعلمه أحد؛ لقد عرض على أحفاده من أمر زواجهما في كلمات قليلة:

"أعتقد أنه قد حان الوقت للزواج؛ هناك عائلتان في إيطاليا على استعداد للارتباط بهما ما رأيكما؟".

كان الرد من كلاهما فيه شيء من التحفظ منهما على هذا الأمر، ولكنهما كانا يريدان أن يكون الرفض بشكل طيب؛ منعا في إحراج جدهما، قالا له في كلمات يسيرة ابتدائها "إنجلينو":

"ياجدي كيف سوف أتزوج و أنا عاطل؟ لا أستطيع أن أطعم زوجة!

وكان رد "ألكسندر الصغير" لايقل عن أخيه، وليس بعيدا عنه في الرفض، قائلا له:

"جدي بنات من إيطاليا، يالها من مسافة بعيدة؟ وما الذي حدث للبنات هنا في برونكس؟ أو حتى في نيويورك؟

كان هناك إجماع أنهما لن يخوضا هذه التجربة من الزواج المرتب، بل عليهما أن يعملا حتى يصلا إلى تحقيق ذاتهما، قبل الإقدام على هذه الخطوات؛ لكن كان هناك إلحاح من "فرانسيسكا" تريد أن ترى أحفادها، قبل أن يحدث مكروه لها؛ كان في قرارة نفسها؛ أن هناك شيئا سوف يحدث لا تعلمه؛ "إنجلينو" أصر على موقفه، سوف يهاجر إلى الشمال لكي يجد فرصة له في بلاد أخرى قائلا لهم في نوع من الحزم:

"بالنسبة ليّ سوف اتجه إلى الشمال، ربما إلى كندا. أعلم أن هناك بعض الفرص المتاحة بعيدا عن هذه الأرض".

الصورة تتداعى عندما كان يودع حبيبته في آخر مرة، إنه سوف يعود من الحرب، ثم يتزوجها. كان هذا هو المخطط له. ولكن من كانت في انتظاره، لقد يئست من رجوعه، وهي ترى الأشلاء كل يوم محمولة على الأعناق توارى الثرى في "ارلنجتون" أو في المقابر الأخرى، والذكرى الباقية للعائلة هي العلم المخطط بثلاثة عشرة خطاً، وشاهد أبيض على قبره بأسمائهم؛ وربما مجهول الهوية؛ تزوجت من أعز أصدقائه، وسافرا بعيدا عن "برونكس" ذهب إلى فلوريدا، بعيدا عن الصقيع في الشمال، بحثا عن الدفء، ولكنهما تناسيا الأعاصير هناك. "ألكسندر" ليس لديه مانع، لكن عليها أن تكون من هنا، وليس من خارج أمريكا، حتى لاتكون هناك فوارق بينهما. وصاحبة الشأن ليس ببعيدة عن هنا، بل هي أقرب مما يتخيلون، ولكن لكل حدث حديث؛ ومن ناحية العمل لدية خطة لتطوير المخبز القديم؛ لكي تصبح سلسلة من المطاعم الراقية في "برونكس" و"نيويورك" لمن يبحث عن إيطاليا.

لقد انفرجت أساريره، وهو ينصت لأفكار حفيده، متذكرا ابنه البكر الذي كان حلمه أن يرى "كاراكلا" المخبز العتيق، أن يرى له أفرعا في جميع أنحاء الولايات الشمالية، وربما في وقت لاحق أن يكون له مكان عبر البحار،

كما كان حاله في روما، كانت كلمات "ألكسندر الصغير" توحي بالثقة وهو يخبرهم في كلماته المفعمة بالحيوية والأمل قائلا لهم:

"أنا لن أتخل عن "كاراكلا"، بل سوف أطور هذا المخبز القديم إلى أحسن مطعم في الساحل الشرقي، وربما الغربي أيضا في تقديم أحلى الشطائر، وربما سوف نذهب عبر البحار في بلدان أخرى بمساعدتك أنت ياجدي، ومع أمي العظيمة "فرانكا".

كانت "فرانسيسكا" وهي تنصت إلى ابنها، وهو ينطق باسمها أنه مثل "ألكسندر" الكبير، أنه لايفرق في شيء، كانت تبتسم وتبدي إعجابها بأفكاره. "أوجستين" كان ينظر إليه في إعجاب هل بعد هذه السنوات من بعد رحيل "ألكسندر" سوف يرى حلمه يتحقق. هذا الحلم الذي طالما راوده منذ أن وطأت قدمه "أرض الأحلام"، لكن دائما ما يتعثر من ظروف خارجة عن إرادته، أو هي ظروف اقتصادية، منذ وطأة قدمه، والديون قد حاصرته؛ ديون العائلات الخمس، أو ديون البنك عند تجديده للمخبز، لكن هذا لم يكن طموحه أو طموح العائلة.

الكل كان يتذوق خبزة "توسكان"، كان يزيدهم بهجة. كان هذا سر صنعته الذي أخذها من والديه. كم نصحه الكثير أن ينتشر، لكنه لم يجد يد العون إلا من "ألكسندر" الذي تركه قبل أن يرى حلمه يتحقق، أو قربت على التحقق على يد "ألكسندر الصغير". لم يسعف القدر "كارينا" أو "فيولا" أن يروا الثمن الغالي الذي تم دفعه في غربتهم، وكأنه كان حلم صعب المنال، بعيدا عن أعينهم، والآن أصبح قاب قوسين أو أدني، كان يثق في "ألكسندر الصغير"؛ لأن حديثه فيه قدر من الثقة بالنفس، بعيدا عن الغرور.

لقد طالت السهرة في ضحكات وقفشات وذكريات حكايات الجد في إيطاليا، وعندما قابل جدتهم "كارينا"، وما الذي فعله عندما تقدم إليها قائلا لهم في ضحكات صاخبة، وهو يقلد صوت حماته:

"كيف تتزوجين هذا الشحات الذي لايملك شيئا؛ وهو يفترش الدقيق لكي ينام عليه".

كانت الضحكات تتعالى؛ حتى وصل إلى ذكرى "ألكسندر الكبير" فهو يتذكر الآن بشائر حمل "كارينا"، عندما أتت إلى المخبز لتخبره بحملها. يكاد يطير من على الأرض، وعندما أنجب"ألكسندر" الابن البكر، لم تقل فرحته عن حمل زوجته. والآن يرى هذا الصمت الطويل أمام ذكرى "ألكسندر"، وهو يرى عيون "فرانسيسكا" تكاد تبكي. إنه يعرف تماما ما يعتريها من الألم. واضح لقد جنيت في حقك عندما أجبرتك بالزواج من ابني الذي خان ثقتك، قبل ثقتي أنا. لقد احتوي "أوجستين" يد "فرانسيسكا" وهو يعتصرها، وهو يحدثها أمام الولدين، قائلا لها في ألم واضح:

"لقد أخطأت في حقك عندما أجبرتك على الزواج من ابني؛ لكني كنت أبحث عن الأفضل؛ لكن الأفضل لم يحدث، بل كان الجحيم. أرجو أن تغفري ليّ، وأن تسامحني على خطئي في حقك.

لا تلومني لقد كنت أبحث عن الأفضل لهذه العائلة، لكن الأفضل بالنسبة لي ليس بالضرورة هو الأفضل لك، أنا أعتذر أمامك وأمام الأحفاد، إنها جريمة في حقك لا تغتفر، ولكن أرجو أن تسامحي عمك، الذي جني عليك بدون جريرة منك.

كانت تنظر إليه بعيون وبابتسامة أيضا باهتة، كانت تخبره قائلة له في أسى:

"لا أحد فينا كان يعلم الغيب؛ ماحدث كان لامفر منه فلا اعتذار اليوم".

كان يوم ربما يملأه البهجة، عيد الاستقلال في يوليو من كل عام، التحرير من براثن الإنجليز والألعاب النارية تسمع من بعيد. الخروج إلى الحديقة الخلفية كانت متعة أن ترى الألوان تختلط في بهجة وترتسم على الوجوه؛ كان "إنجلينو" وجام الوجه لايبتسم. أي تحرير هذا وفي كل يوم تأتي الصناديق الخشبية محملة بالأجساد التي قضت نحبها بدون ذنب؛ ربما هم أصدقاؤه.

إن رفقة السلاح أكثر العلاقات الوطيدة التي تدوم من أي شيء آخر. من يجلسون على الكراسي لايعرفون هذه العلاقة؛ لقد أشاح بوجهه حتى لايرى هذه الاحتفالات، إنه كان أكثر من محظوظ، عندما سقطت بجواره قذيفة على بعد أمتار قليلة، وهو يرى صديق السلاح "أنتوني" تطير أشلاؤه في الهواء، وتسقط بجواره. لقد تم تجميع أشلائه بصعوبة بالغة في صندوق صغير ملفوف بالعلم ذي النجوم الخمسين؛ لا يستحق الاحتفال، بل يريد أن يذهب بعيدا.

لقد قرب الليل علي منتصفه، والألعاب النارية لم تتوقف عن إضاءة السماء، ومازال الناس والمارة يتجمهرون في الحدائق الخلفية، ومع تصاعد الأبخرة والدخان الكثيف من حفلات الشواء والضحك الذي يعلو. هي فقط محاولة نسيان الأحداث المتلاحقة، وأتون الحرب الدائرة في أقصى اليمين، وتقضي على خيرة الشباب من كل الجنسيات؛ لم تخفت إلا عندما سمع طرقاً عنيفاً على الباب الأمامي. الكل ركض "أنجلينو" ومن ورائه أخوه وتباطأ "أوجستين" ذراع "فرانسيسكا" فاتحين الباب الأمامي، وهم يرون جثة ملقاة تحت الشرفة، مضرجة في الدماء، وسيارة مسرعة تغادر المكان تكاد تصطدم بالمحتفلين في الشوارع. والسائق يخرج برأسه من السيارة وهو يصيح بأعلي صوت له أمام العائلة في كلمات قبيحة قائلا:

"هذا مصير الكلب الذي يلعق حذاء سيده، ويتعدى على أملاكه".

انكفأ "أنجلينو" على الجثة، وهو يرى الوجه قد تم تغطيته بكيس من البلاستيك، واختلط وجهه بالدماء القادمة من رأسه، وإصابة برصاصتين في القلب والظهر، مشاهد تتكرر مع أخيه؛ صورة كربونية من "اغتياله"، ولكن هذه المرة بورقة صغيرة، تدلت من جيب السترة التي كان يرتديها "هذا جزاء من يحاول أن يتعدى على ممتلكات الغير"كانت ميتة بشعة! "إبرا" لم يكن أحد يتخيل أن يرى هذا الجبروت. كان ثمن الرصاصة أرخص من كأس الخمر، الذي يتجرعه كل يوم. "فر انسيسكا" قد دفنت رأسها في كتف عمها، وهي ترى آخر فصل من الرو اية في حياتها مع زوجها، الذي طالما أهانها في وجوده وخيانته لها، في عدم وجودها وهي تعلم؛ كانت تعلم النهاية المفجعة، دائما ما كانت تخبره أن الخيانة ليست خطأ، بل هو اختيار بملأ الإرادة فلاتحزن عندما يحين الحساب.

لقد وقف ساهما "أوجستين" غير مصدق أن هذه سطور أخرى تضاف إلى تاريخ عائلة "أليسندرو". مرة أخرى سوف تأتي أقدام الأفراس الأربعة، لتحمل نعش آخر لتكمل السلسلة الطويلة من هذه المآسى التي لاتنتهي؛ كان حزنه فقط على هذه الخسارة، الذي طالما كان يتوسم منه الخير، ولكن لا أمل في الرجوع، لقد انتهى الأمر، وكتب سطراً آخر، وطويت صفحة "إبرا" إلى الأبد، وبات صفحة أخرى لعائلة "أليسندرو" في أمل جديد من "ألكسندر الصغير".

رحـيـل "الـمـوقـر"

(٥)

"اللقاء بعد فراق طويل: خير من ليلة زفاف" مثل صيني

أكتوبر ١٩٨١م

لا تحسب سنوات العمر بتكرار الأيام المتوالية، ولاتحسب بتغير الأوراق من النتائج الورقية وسقوطها مثل تساقط أوراق الشجر في أوائل الخريف، التي تسقط على الأرض وقد اختفت؛ بل تعرف سنوات العمر من لحظاتها، بحلوها كانت أو مرها؛ تسقط من الذكريات أيام الفرح التي هي قليلة وتحفر في دهاليز النفس البشرية بأصابع حديدية، تمتزج مع الشرايين وتلتصق على جدرانها في عناد واضح، لا تفارقها بل تصر على اصطحابها إلى آخر رمق في حياة أصحابها؛ كأنها لاتريد أن تتخلى وتتنحى عن وعدها بأن تؤرق النفوس المتعبة التي هدأت بعد فترات طويلة من العذابات التي لاتنتهي، سواء بفراق أحبة أو رؤية نجاح في آخر المشوار، مسعاك يتحقق، ولكنها أبدا لاتتركك تهنأ؛ الأنفاس المتقطعة لم تهدأ، والألم مازال يعتصر قلبه، والعرق المتفصد ارتسم على جبينه، لم يعبأ بكل هذا، ولكنها سنوات قد طالت، إنه في اشتياق إلى الأحبة.

الجسد البالي قد رقد للمرة الأخيرة على فراش المرض، ينتظر لحظة الفراق التي طالما تمناها؛ رقد وهو يعلم أن الوقت قد حان بعد أن أطمان على عائلته؛ لقد فتح صندوق أسراره الهمس، جاء جليا واضحاً "لفرانسيسكا" قائلا لها في صوت وهن:

"حان الوقت للكشف عن بعض الأسرار؛ افتحي الخزينة الخشبية، وابحثي عن صندوق خشبي"

أن تفتح باب الخزينة الخشبي، لتبحث عن علبة خشبية أن تحضرها له، وهذا المفتاح الصغير المعلق في سلسلة المفاتيح التي طالما سألت عليه، والذي لا يفارقه حان الآن أن تكتشف ماذا في هذا الصندوق، الذي كان هناك حرص شديد من "أوجستين" على أن يكون بعيدا عن الأيدي العابثة، حتى وإن كانت امرأته؛ وضعت "فرانسيسكا" الصندوق قرب حافة السرير، الذي يرقد عليه، وأعطي المفتاح الصغيرلها، وهي تنظرإليه في دهشة لماذا هي؟ كانت تنظر إليه في دهشة متسائلة قائلة له:

"لماذا أنا ياأبي؟ ولماذا الآن؟"

كان رد "أوجستين" يوجد به شيء من الو اقعية، وهو يحدثها في صوت ضعيف قد غلبه المرض قائلا لها:

"لأنك تحبين العائلة؛ وتحبين الاحتفاظ بقوام هذه العائلة، ولاتسمحين بتفككها".

كان هذا صحيحاً، ولكن كان هناك أمور أخرى لم يفصح عنها. إنها هي الوحيدة القادرة على الاحتفاظ بهذه الأسرار، التي طالما تمنيت أن يحتفظ بها "ألكسندر الكبير" ولكن لم يسعفه القدرأن يحمل هذه الأمانة، ولك الآن أن تحمليها بدلا مني.

لم يكن في الصندوق سوى ملكية المنزل، والمخبزالقديم في إيطاليا، و أيضا دفتر مذكرات متخم بالأوراق الكثيرة؛ إنها وصفات إيطالية كثيرة جدا، ولها لمسة ريفية؛ إنها تقلب في الأوراق إنها كثيرة جدا أكثرمما تتخيل، بل هي أيضا وصفات لأطعمة قد اختفت تقريبا من المطبخ الإيطالي. كان هذا هو سره أم السر الأكبر؛ كانت طريقة جديدة لعمل قطع من الشطائر الإيطالية الرقيقة بنكهة ريفية إيطالية، تحمل عبق سنين ماضية تعتمد على خلطة جديدة من

الأعشاب البرية. لقد كانت "فرانسيسكا" ترقص طربا، إنها بحق سر الأسرار لم تكن تصدق نفسها قائلة له في فرح زائد:

"هذا كنز مثل كنوز ألف ليلة وليلة؛ إنها كنوز علي بابا".

لقد كانت محقة في حديثها، لم يعد أحد يهتم بهذه الوصفات القديمة التي كانت تمثل عبق الماضي، وخاصة في المناطق الريفية. كانت هذه ذكريات أمها الراحلة "فيولا". لقد اختفت تماما هذه الوصفات، ولم تعد مرة أخرى، إنها وصفات تدل على ذوق رفيع وبساطة، كان هذا سره الدفين وحان الآن أن تحمله.

رؤية النجاح في عيونهم بفضل عناية الرب، والتوفيق الكبير الذي حالف "ألكسندر الصغير" في نظرته المستقبلية وقبوله للتحدي الذي وضع فيه؛ لم يكن بالأمر الهين وهو يصل الليل بالنهار؛ حتى يصل إلى أن عدد الأفرع "كاراكلا" قد تضاعف في خلال السنوات الماضية من مخبز نكرة في قلب "برونكس" واحتلاله مكاناً حقيراً على ناصية من نواصي الشارع، إلى احتلال أفضل الأماكن في نيويورك ومانهاتن، بل تميزه في تقديمة أفضل أنواع الخبز "توسكان" على مستوى الولايات الشمالية، بل إن ينتظر النيويوركيون بالساعات في طوابير طويلة حتى يحصلوا على شريحة من هذه الشطائر، أو أن ينتظروا بالساعات حتى يحصلوا على مكان للجلوس؛ لم يكن يتخيل هذا النجاح الساحق الذي حققه "ألكسندر الصغير" في خلال السنوات الماضية، كان يحسب له حسن الإدارة والتصرف في الأمور المالية؛ لأنها كانت إحدى المشاكل في "أوجستين" عندما كان يدير مخبزه القديم، الذي تحول إلى مخبز ومطعم في الوقت نفسه في الحي الفقير "برونكس"، وتحول المخبز القديم إلى إحدى العلامات الفارقة والمتميزة في الحي الفقير. كان هناك إصرار بوضوح من "أوجستين" و"فرانسيسكا" بأن يظل هذا المخبز في هذا الحي؛ وعلى الرغم من

أنهم قد تركوا الحي إلى مانهاتن والسكنى هناك، إلا أنهم كان أفضل الأوقات لهم عندما كانوا يقضون يوما في هذا الحي، يتذكرون الأحبة الذين فارقوهم؛ إلا أنه بعد فترة من الزمن قد تركوا مانهاتن إلى سكن في الأحياء خارج نيويورك، طمعا في الراحة بعد العناء من الضجيج والزحام في مانهاتن.

مازال "ألكسندر الصغير" يغدق عليهم بكل أنواع الرعاية، كانت تنظر "فرانسيسكا" طويلا في وجهه، كأنها تريد أن تقول لها: إنها قد تم تعويضها عن فقيدها في ابنها "ألكسندر الصغير"، إنها تراه وهو يحمل من الخصال التي كان يحملها حبيبها، كان مثله تماما، إنه يتفانى في الاعتناء بأسرته، والاهتمام بكل صغيرة وكبيرة.

كان ألكسندر الصغير رجلا قبل نضوجه، ولكن كان مايقلقه أن الوقت يأخذه عن رعاية أبنائها لفترات طويلة، فيقع في مشكلة أبيه "إبرا" كانت مشكلة مؤرقة، كان عليه أن يجد حلا سريعا لها. لقد دخل في نقاش طويل مع زوجته في تربية الأبناء، ولكنه انتصر في النهاية.

عليه أن يحضر من له القدرة علي ضبط إيقاع المنزل، والاهتمام بالأبناء، و أيضا الاهتمام بأمه "فرانسيسكا". لقد أحضر السجان" من صقلية لتربية ابنته "أنجلينا" والأبناء "ألبرتو" و"مالديني".

كان إحضار هذه السيدة بصعوبة بالغة: لقد أوصى بها بعض أصحابه ومعارفه في أمريكا إنها صاحبة حزم؛ من أول يوم ظهر معدن هذه السيدة القصيرة القامة، وذات الشعر القصير، وتكاد الذراعان لا يتلامسان من قصرهما؛ إنها تتفحص كل شيء، وأي أحد من رأسه إلى أخمص قدمه، لاتترك شاردة أو واردة بدون حساب، كان الكل يظن أن هذا المنزل أصبح مثل معسكر للجيش؛ بل لقد أجبرت الكل على احترام المواعيد، لم يستثن من هذا الأمر سوى "فرانسيسكا" التي يحلو لها السهر أمام صور الماضي، والتقليب في ألبوم

الصور؛ لقد حاولت كثيرا معها، ولكن في كل مرة ينتهي الأمر إلى شجار عنيف، ينتهي بتدخل من "ألكسندر" الذي يطيب خاطر "السجان" ويطيب خاطر أمه، والتي كانت دائما تستيقظ هي "أنجلينا" على هذا الصراخ، وتخرج من غرفتها نزولا علي الدرج الرخامي والتعلق في رقبة جدتها حتى تحميها من بطش "السجان"؛ كانت تسر بسرور غريب عندما ترى هزيمة "السجان"، كانت لاتطيق كبت حريتها؛ كانت تتحين الفرصة من الخروج من هذا السجن، وكان لها ما أرادت بعد فترة ليست بالقصيرة.

"تعلن إدارة المدرسة عن الرحلة السنوية للخريجين لمدة ثلاثة أسابيع؛ لزيارة معالم كندا، ويشمل البرنامج زيارة شلالات نياجرا، وكيبيك القديمة، والممر الداخل، و١٠٠٠ جزيرة، وغيرها من المفاجآت، من يريد أن يتقدم عليه إحضار جواز السفر، ومبلغ: ...."؛ لقد ألحت على والديها لمدة لاتقل عن ثلاثة أسابيع. لقد وصل التحايل إلى الامتناع عن الطعام، وصل إلى حالة الإضراب والخصام العائلي، حتى تدخلت "فرانسيسكا" وتذكرهم بأن الكبت يولد الانفجار. كانت تعني هذا الحديث، وهي تحاول تلين عريكة ابنها "ألكسندر الصغير" قائلة له في حديث هين:

"ألكس بإمكانها أن تذهب إلى عمها، وسوف تلقى العناية منه؛ ولكن لاتحرمها من الذهاب".

لم يكن ينصت في بدء الأمر، ولكنه أعمل العقل فيما تقوله له أمه. ومن الممكن أن تلقي الرعاية الكاملة من عمها "أنجلينو" الذي استقر في تورنتو، وتزوج كندية من هناك، ولقد ساعدته على تخطي أزمته النفسية. لقد بدأ مشواره من الصفر من بيع قطع غيار السيارات وإصلاح السيارات، وهي المهنة التي كانت هوايته في الجيش إصلاح سيارات الجيش، وخاصة سيارة جنرال الفرقة.

تحسنت الظروف علي مر الأيام، تزوج وله الآن معرض صغير من بيع السيارات المستعملة؛ ولقد فتح معرضاً كبيراً للسيارات، بعد أن أرسل أخوه له مبلغاً كبيراً من المال، بناء على توصية "فرانسيسكا" التي كان لها بعد نظر على الرغم من بعد "أنجلينو" عن أمريكا، وعلى الرغم من عدم إساهمه في مساعدة أخيه التي جعلت "ألكسندر الصغير" لا يستحوذ على الأموال كلها، حتى لاتوجد ضغينة بين أولادها، وكان هذا سر تماسك أسرة "أليسندرو"؛ لم يزرهم في خلال الأعوام الماضية، سوى مرتين، مرة عند زاوجه، والأخرى عندما وقع "أوجستين" في مشكلة مرضية خلال السنوات الخمس الماضية. لقد اقتنع أخيراً "ألكسندر الصغير" برأيها وأعطاها الفرصة للسفر إلى كندا، ولكن بتحذير شديد اللهجة أن تكون دائما تحت إشراف عمها الذي أرسل إلى أخيه برسالة، تفيد بسفر ابنته إليه، وأن تلقى الرعاية اللازمة منه، قائلا لها في حزم متوعدا إياها:

"لقد أرسلت إلى عمك برسالة تفيد قدومك إلى كندا؛ عليك الانصياع لجميع ما يقوله، وإلا

كانت حركة عفوية من يد "أنجلينا" وهي تضع أصابعها على فم والدها، قائلة له في حنان:

"لا يا أبي لا تقولها؛ سوف أنصاع إلى كل مايقوله لاتقلق".

"أنجلينو" كان لايصدق الرسالة التي وصلته من أخيه، تفيد بقدوم ابنته إلى كندا، لقد كان فرحاً جدا بزيارة ابنة أخيه، لكي تتعرف على أولاد عمها "فيكتور" و"إيزابيل" و"أوجستين الصغير".

لقد قامت زوجته بإعداد غرفة خاصة بها، وتزويدها بكل وسائل الراحة؛ الذي طالما لايخلو حديث "أنجلينو" من تذكر الأيام الخوالي. كان الشوق يأخذه إلى أبعد من ذلك، يريد أن يفتتح فرعاً له في نيويورك، وأن يترك تورنتو حتى

يبقى بجانب أخيه وأمه، ولكن الوقت دائما يأخذه إلى الاهتمام بالعائلة، وترك هذا الأمر لظروفه حتى تحين الفرصة؛ لقد كانت في شوق للقاء "أنجلينا"، هذه الفتاة التي طالما تأخذ العقل بحسنها، على الرغم من صغر سنها الذي لايتجاوز خمسة عشر عاما، كان دائما يحدثها بأفعال الماضي، ولم يكن رحيما بهم؛ لكن الأمور الآن أفضل من الماضي؛ لأنه يرى أن مافعله أخوه و"فرانسيسكا" هي معجزة بكل المقاييس، وهي تحويل هذا المخبز العتيق إلى سلسلة من المطاعم لها شهرة واسعة.

كان "ألكسندر الصغير" يريد أن يرسل مع ابنته: "السجان"؛ حتى تحافظ عليها قائلا لها في فرمان:

"سوف تذهب معكِ لكي ترعاك وتقوم على راحتك".

وهذا ماقابلته برفض شديد، كيف لأنثى مثلي في هذا العمر أن تصطحب معها جليسة أطفال! ماذا سوف يقول أصدقاؤها عليها؟ "أنجلينا" لم تطق هذا قائلة له في حنق:

"لن أقبل عدم الثقة فيّ يا أبي؛ وماذا سوف يقولون عندما يرون أنني قد اصطحبت معي جليسة الأطفال! إنني مازالت رضيعة، أبي أريد بعض الحرية".

كان "ألكسندر الصغير" في حيرة من أمره أن ما تقوله فيه شيء من الحقيقية، ثم إن "ألبرتو" و"مالديني" يحتاجون إليها في الرعاية والاعتناء بهم؛ ثم إن "أنجلينو" وزوجته لن يتركوها، بل سوف يكونون حراساً عليها، كان وصل إليها نوع من الحنق على والديها بسبب التضييق عليها، ولكنها كانت تعلم أنه فقط خوف عليها؛ لقد حاولت أمها معها كثيرا، إنه ليس عدم ثقة فيها، ولكنه حرص فقط عليها، كم من المآسي تحدث للبنت التي لاتتجاوز خمسة

عشر عاما. كانت "فر انسيسكا" جدتها أكثر حكمة قائلة لها، وهي تلقي بذراعيها العارتين على كتفي "أنجلينا":

"لا تنصتي إلى الكلام المعسول؛ إنك مازالت صغيرة، ولاتملكين الخبرة في معرفة الطيب من الخبيث؛ لاتفعلي شيئا و أنت تعرفين أنه خطأ".

كانت كلمات جدتها تحمل من الرصانة والحكمة في سنين طوال؛ أن تستمع بحياتها وآلا تنصت إلا لعقلها وقلبها فقط، وآلاتخدع بكلام معسول؛ لأنها لم تنضج عاطفيا. كان تلميحاً وليس تصريحًا، كان واضحاً ما تعنيه جدتها. كانت الوصية عند وقوعها في أي من المشاكل أن تخبر عمها "أنجلينو" لأنه مثل أبيها سوف يحافظ عليها.

كان خروجها من البيت لأول مرة لوحدها؛ أمراً وهي متجهة إلى المطار في غاية الأهمية. هذه أول مرة تخرج من بيتها بصحبة أصدقائها، والذهاب إلى الشمال بعيدا عن تحكم "السجان"؛ كأنه أصبح يوم عيد بالنسبة لها، كانت تسعي لهذا التحرر من القيود المتزمتة، كانت تنظر إلى أصدقائها وتتعالى ضحكاتها قائلة لهم:

"لأول مرة في حياتي، سوف أبتعد عن "السجان" القاتل هذه الزومبية قبيحة الوجه".

كانت ترى أن "السجان" قد جثم على أنفاسها لفترة ليست بالقليلة؛ كانت تشعر أن "السجان" مهمتها الأولى هي تقييد حريتها، إنها تريد الانطلاق، والتعرف على أناس جدد، واكتساب معرفة أخرى بالبشر؛ وعدم رؤية "السجان" مرة أخرى. كانت تسعى بكل قوة أن تتغير شخصيتها في الثلاثة أسابيع القادمة إلى الأفضل.

في هذه اللحظة كانت تريد أن ترى "أوجستين". إنه بالمنزل المجاور، كان يفضل العزلة والجلوس لوحده، وأن يترك المجال "لأكسندر الصغير" وأمه لترتيب حياتهم في الوضع الذي يفضلونه ويختارونه. كانوا أجبروه على ترك المنزل في "برونكس". ليس من العدل أن يكونوا في ضواحي نيويورك أو في مانهاتن، وأن يظل في "برونكس"! إنه صاحب الفضل في هذه المكانة، ولولاه ماكانوا في هذا الوضع. كان اعترافاً بالجميل منهم، بأنه قد حافظ على هذه الأسرة، وعليهم الآن أن يردوا هذا الجميل، وخاصة "فرانسيسكا"، كانت دائما تتذكر مافعله مع أمها في السنوات السابقة، وكيف أبقى عليها، وعلى أمها من الوقوع في بئر عميق صعب الخروج منه، في تلك الأيام الغابرة قبل هجرتهم إلى أمريكا؛ وقبل طلوعها إلى الحافلة: ذهبت إلى المنزل المجاور، كان يقرأ جريدته الصباحية في هدوء تام؛ لقد ابتسم ابتسامة طويلة لها، وهي تخطو في وثبات كبيرة، كانت ترقص طربا وهي تنادي عليه في صوت عالٍ، كانت تريد أن يفرح مثلها، كانت تدور في دوائر صغيرة وهي تتجه إليه قائلة له:

"جدي الأكبر؛ إنك أكثر بهاء اليوم عن كل يوم؛ إنني أراك أجمل جد في الدنيا".

لقد احتضنها طويلا قائلا لها في بهجة واضحة:

"إنك أكثر بهاء من القمر؛ وأجمل أنثى على وجه الأرض، بل أنت ملكة متوجة في عائلة أليسندرو"

كان يعني هذا الحديث، وهو يرى هذه الأنثى قد ازددات بهاء وجمالا، إنها تذكره بالآلهة اليونانية القديمة، بشرة البحر المتوسط، والجلد مشرب بحمرة خفيفة، والشعر الأحمر كأنها أعجوبة من العجائب. بهذه الرقبة الطويلة تتخطي كتفه، كان دائما يخبرها أنها مثل طائر البجع الأبيض الملكي، بهذه الرقبة الطويلة، والتي لا تقترب من الشاطئ، إنك ملكة متوجة تحمل كبرياء

عائلة "أليسندرو" كانت تفرح كثيرا بهذا الوصف، وكانت تجبر أخواتها على أن ينادوها بهذا الاسم "الملكة".

سماعي لخطوات الأقدام التي تسللت في بطء؛ كأنني أسمع صوت وقع أقدام الأفراس الأربعة، تحل الجسد العليل، الذي طال مقامه في هذه الدنيا، التي غلبتني بصراعاتها، و أفقدتني أحبائي! يالها من لحظات مرة، إنها تنادي عليّ بصوت عالٍ كأنها تشتاق إلى رؤيتي، و أنا أشتاق إليهم بشدة. لقد طال أمد البقاء في هذه الدنيا، وحان وقت الرحيل، ولكني في انتظارهم.

كان الدخول في صمت مطبق؛ خوفا من إزعاجي، لم يذق الجفن النوم لقد تمكنت مني ذات الصدر، كانت الذكريات هي من تخفف الألم؛ لقد دخلوا إلى غرفتي بصحبة الطبيب، أسمع همسه لهم، آلا يستغرقوا وقتاً طويلا معي؛ أريد أن أظل معهم، ولكن لا أعتقد، لقد جاؤوا إلىَّ في أحلامي. "كارينا" تنظر إليّ بعيون حانية، و"فيولا" تنظر وتهمس لي آلا أتاخر؛ حتى "ألكسندر" وقف منتصبا كما كان في الماضي على ربوة عالية، ينظر إليّ ضاحكا آلا أغيب عنه أكثر من ذلك. أما "إبرا" لم أره جيدا، لقد كانت صورته ضبابية بعيدا منزوياً أو منبوذاً لم أره جيدا؛ إنني أراهم الآن يبدو عليهم الحزن! ولكن لا ..... سوف أجعل اللقاء نوعاً من الفرح وليس من الحزن.

إن الحزن يقتلني، ويكفي ما عانيته في الماضي من أحزان، حان الآن موعد الأفراح سوف أذهب و أنا مطمئن: "أنجلينو" يبدو عليه الانزعاج وزوجته "برتا" تبدو عليها الرهبة؛ "ألكسندر الصغير" لا يبدو عليه الانزعاج، إنه رجل قوي، ولكني أعلم أنه لايقوى على رؤيتي، لقد جاء مضطراً بناء على طلب "فرانسيسكا" حارس أسرار عائلة "أليسندرو" وها هي "أنجلينا الملكة" إنها لاتبدو في حالة طيبة، تبدو شاحبة اللون، لا أستطيع أن أفسر مابها وتقف بجانبها أمها، التي يبدو عليها التفكير العميق، أهو في حالتي الصحية؟ أم هي

تفكر في حالة ابنتها "أنجلينا" التي جاءت بعد رحلتها إلى كندا شخصية أخرى تماما، لقد أصبحت أكثر انغلاقا و انطفاء النور الذي كان يلمع في الماضي، لقد ذهب بدون رجعة. كانت الكلمات قليلة، ولكني كنت سعيداً، وأن أرى العائلة قد تجمعت لآخر مرة، كي أراها قبل المضي في رحلتي الأخرى، كنت أنظر إليهم في حب بالغ قائلا لهم:

"إنكم عائلة أليسندرو، ويجب أن تظلوا هكذا؛ أيام الدنيا قصيرة، اجعلوها أفضل أيام لكم".

لم أستغرق الكثير، لقد أخذت من الكلمات القليل حتى تصل رسالتي إليهم جميعا، إنهم عائلة "أليسندرو" يجب أن يبقوا أقوياء، وأن يتحدوا وآلا يختلفوا، وأن يضعوا الحب بينهم نصب أعينهم دائما، وكان منهم الوعد، طلبت منهم الانصراف، لقد قرب وقع خطوات الأفراس الأربعة، وحان وقت الرحيل.

لم تكن الكنيسة والقداس المقام "أوجستين" لايقل عن رئيس الولايات المتحدة، أقيمت في الكنيسة التي ساهم في بنائها في الحي العتيق في "برونكس"، كانت هذه هي وصيته الأخيرة؛ أن يقام القداس هناك، كان القداس عظيماً، حضره رجال أعمال، وبعض من العائلات الخمس والعاملين في المطاعم، والمخبز القديم "كراكلا" إكراما للمؤسس، و اتشحت الكنيسة بالسواد؛ كان يوما حزينا في الحي الفقير؛ كان يتمنى أن يدفن في إيطاليا بجانب والديه، وكان يحن إلى السكنى بجوارهما وإلى الأحبة، وقد كان. وكتب على الشاهد الأبيض بعد أن ورى الثرى:

"عاش من أجل العائلة، ومات من أجل العائلة لكي تبقى".

الجزء الرابع
اللقاء الدامي
(١)

"كلما طال الغياب كان اللقاء أروع وأجمل" واسيني الأعرج

سبتمبر ١٩٩٩م

لا تشبه "التفاحة الكبيرة" أي مدينة في العالم؛ إنك تقف مبهورا بكل شيء. كل شئ يتحرك بسرعة، الإيقاع البشري لايتوقف عن التحرك؛ الروبوتات الآلية لا تعطي لك المجال كي تتوقف، وتنظر إلى طريقك، بل هناك الدفع الذاتي لك ولغيرك، كأنك علب من الطعام على خط سير في إنتاج مصنع؛ الخروج من الباب المؤدي إلى الشارع، بعد خروجك من القطار النفقي لايعطيك الحق في الاختيار، بل هي حركة آلية متفق عليها.

هذا الإيقاع لايتوقف ليلا أو نهارا، هو إيقاع لاتخطأه العين؛ هذه الأجناس البشرية المتحدة في هدف واحدح هو الحركة؛ والمتنافرة في أزياء لا تتوقف عن الحركة الديناميكية، وهي مستمرة فقط على الطريق أو الهدف الذي يسعون إليه ليلاً ونهاراً؛ إنها أقدام متحركة لايعنيها ما يحدث من حولها، ولكن نظراتها مصمتة ومصممة آلا تخطئ الطريق؛ إنها لاتحيد عن طريقها مهما كانت الظروف.

الابتسامات تكاد تختفي على الرغم من أن شهور الصيف قد اقتربت على الانتهاء، ولكني لا أسمع إلا الصمت القادم من الوجوه الواجمة؛ وهذا طرق السندان من طرق الأحذية على الأرصفة؛ اختفت تماما ابتسامات عم عبده صاحب كشك الجرائد على أول شارع تسعة في المعادي، على الرغم من وجود كشك آخرعلى ناصية الشارع57 وشارع E57 مع بارك افنيو، إنه كشك آخر مع مهاجر آخريحمل جنسية أخرى؛ الكل من المهاجرين من شتى بقاع الدنيا؛ الكل

يظن نفسه من أصحاب الأرض، ولا يعلم أنه يحمل صفتين، كلاتهما ملتصقتين ببعضهما البعض؛ الصفة الأولى في شكل جالية، إنه مهاجر، والصفة الأخرى؛ أنه له جنسية الأصل وجنسية مكتسبة، ولكنهم دائما يتناسون أنهم كلهم مهاجرون؛ كلهم مهاجرون وإن جاءوا مع "أمريجو" بذاته؛ أو جاؤوا مع "كريستوفر كولومبس" أو ربما ظنوا أنفسهم من قبيلة "شيروكي" الهندية بدون أن يدروا.

إنك تسمع طرق الأحذية في قوة؛ إنها قوة الوجود، أو أنها قوة خفية اكتسبوها بحكم وجودهم في أقوى دولة على ظهر الأرض؛ هي قوة الحياة في هؤلاء المهاجرين، عندما يأتي التنصل بكل ماهو سابق على مجيئه إلى "أرض الأحلام"، لا أعرف سر التنصل من رفض الماضي القريب؟ أم هو محاولة الهروب من الو اقع الذين جاؤوا من خلاله؟ التنصل من الأرض الأم؛ هل هو نوع من الانفصام في الشخصية؟ أن تمحو ما يخصك وأمك من الذاكرة؛ إنك تنتمي إلى أرض أخرى، ولكنك لا تنتمي إلى أم أخرى، ربما تنتمي إلى بلد آخر.

إنه أصبح شخصية أخرى، عندما خلعت عليه جنسية أخرى؛ هل هو حب التباهي؟ هل هي قوة خفية عندما يلوح بالكارت الأخضر أو بالوثيقة الزرقاء؟ أم هي ضعف عام، وأصبح من يحمل هذا من المسكوت عنه، لا أحد يستطيع لمسه؟ اعترف أنها قوة عندما تطأ قدماك "أرض الأحلام" تعطيك هذه القوة المستمدة من تصدير النماذج لنا "سوبرمان"؛ "كابتن أمريكا" دائما تتمحور حول الفرد الذي لا يقهر؛ هي قوة خفية لاتشعر بها إلا عندما ترى نفسك أمام هؤلاء، تتساوي معهم في الواجبات، ربما ليس في الحقوق؛ إنك تتطاول معهم مثل ناطحات السحاب التي تتزين بها شوارع "التفاحة الكبيرة".

جميع الأجناس تتناغم في إيقاع متسارع؛ هل هي في تناغم لكي تكتمل صورة القوة؟ أم هي للتناغم في الفرقة الموسيقية؛ حتى لاتخرج آلة واحدة وتصنع

نشازاً؛ عندما تصبح آلة واحدة في حكم النشاز، يصبح الرصيف أقرب إليه أو إلى الشوارع الخلفية، ربما في بعض الأحيان "أرض الأحلام" هي لدهس الأجساد بأقدام لها وقع السندان والمطرقة. ليس فقط لقتل الأجساد، ولكنها أيضا تبخر الأحلام بدون شفقة، قد نرى منها في مداخل الأنفاق والأزقة، وفي الصناديق الكرتونية حول الشوارع في "التفاحة الكبيرة" تشارك "النرويجي" في قوت يومها.

لاتنظر إلى الاختلاط في الألوان، هذا الساري أو التربويون، أو ربما من غير المألوف أن ترى التاليت تغطي رأس الحريديم، مع الخصلات المقصوعة وهي مرسلة إلى شحمة الأذن، أو أن ترى الكيباة أو جماعة هاري كريشنا، وهم يرتلون المانترا في شوارعها.

اختلطت هذه الأزياء في تناغم آخر، لكي تعطيك روحا وطعم المدينة، التي لاتخاف من كل هذه الأزياء. إنها مدينة متعددة الأزياء والجنسيات والأديان. إنها مدينة لاتخاف من المهاجرين؛ لأن عماد هذه الأرض هم المهاجرون الذين تسمع وقع أقدامهم على الأرصفة الصلبة العارية، وهي تخبرك أنهم مهاجرون قد جاؤوا من كل بقاع الدنيا، ولكن لا أحد منهم عم عبده، صاحب كشك الجرائد على ناصية شارع تسعة في المعادي.

يصيبك الانبهار عندما تخرج من باطن الأرض؛ تصيبك نور الشمس المنعكسة على الألواح الزجاجية من ناطحات السحاب؛ تصيبك بالانبهار، وربما في بعض الأحيان بالعمى عندما تحاول أن تطاول عنقك أعلي ناطحة سحاب، الكل ينظر إليك على أنك سائح؛ لايعلمون أنني في هذه البلاد منذ أربع سنوات! قد عانيت الكثير؛ هذا لايعنيهم في شيء، حالك مثل حالهم، بل ربما يكون حالهم أسوأ من حالك أنت. لا أحد يعنيه أحد، الكل يبحث عن أمر

يومه، الخطوات تتسارع خروجا من مترو الأنفاق، والفندق الكبير ليس بعيدا عن الميدان، وكلمات "الجنرال" مازالت عالقة في ذهني:

"تَعلم قبل أن تُعلم"

ربما تعلمت الكثير، ولكن لم أُعلم أحداً. الايمان بالمؤامرات لم يكن من مفردات المنهج الدراسي، ولكن كان من مفرادات المنهج الدنيوي البشري: نظرية المؤامرة كان من المفردات التي فرضت عليّ: هي حقيقة بشرية مقيتة لا أستطيع أن أحكي كم من المؤامرات قد حكيت ليّ في خلال السنوات الماضية، ومازالت قائمة.

الأنواع من البشر قد تعاملت معها بدون أريحية، ولكن كان الحذر دائما في خطواتي. قاعات الحفلات في الدور السادس: قد شهدت الكثير من المناوشات الخفية، والآلاعيب غير النظيفة لتشويه صورة أحدهم. كان الصراع عنيفا، هو صراع البقاء، هو صراع لإثبات الوجود في أول هذه السنوات الأربع: ربما أتت لتخفيف حدة الصراع، بما كنت أملكه من خبرات في الحياة، ثماني سنوات كاملة، ربما ليست كافية، ولكنها كانت رصيداً تقف عليه، ولا تحاك ضدك المؤامرات التي كانت جلية، والغريب أنها من المهاجرين أنفسهم، وإلا سوف ترى نفسك إلى أقرب رصيف، أو أن تضمن موقعاً لك مع "النرويجي".

تعدد جنسيات من يعملون معك دائما؛ يضعك في موضع التساؤل: كيف سوف أتعامل مع كل هؤلاء؟ مكان العواطف خارج جدران هذا الفندق، ربما في البار في آخر الشارع، ولكن بين هذه الجدران الاحترافية الشديدة، والالتزام بالقواعد المنصوص عليها في العقد المبرم، والقواعد الخفية غير المنصوصة.

نشاط غير عادي حول الفندق؛ من وقت دخولي وأصحاب السترات السوداء، والنظارات السوداء قد انتشروا عند المداخل، وإلى الباب المؤدي إلى باب العاملين: يتفحصون كل من يدخل من هذا الباب، والسؤال دائما:

"من أنت؟ وإلى أين؟"

والسماعات المعلقة والهمس الذي يتصاعد من وقت إلى آخر، كل هذا ينبأ بنشاط غير عادي، وبشخصية ذي حيثية، يتواجد داخل الفندق، ولكن لايوجد شيء غير عادي في جدولي، كل شيء هادئ في هذا الصباح، كلها اجتماعات صغيرة في الدور السادس. لقد بدأوا في تمشيط قاعات الحفلات؛ أجهزة كشف المعادن، أجهزة بحث عن أجهزة التنصت؛ أجهزة للأجهزة في نشاط محموم لم ينفك؛ ربما كان هذا اجتماعاً طارئاً أو حفلة لم تكن في الحسبان.

كان استدعائي عن طريق جهاز الاتصال الداخلي الخاص بموظفي الفندق من مدير الحفلات، مديري المباشر في كلمات سريعة: أن أذهب إلى مكتبه على وجه السرعة، كانت كلماته سريعة:

"مستر جلال برجاء حضورك إلى مكتبي على الفور".

كنت أنصت إلى نفسي، ماهذا الذي يحدث؟ كان صوته هادئا دائما. اليوم صوته قد علت وتيرته! كان هذا المدير من ألمانيا الشرقية، كان سابقا شابا يافعا، عندما هاجر إلى أمريكا بعد انهيار الشيوعية في روسيا، وهدم جدار برلين، كان يظن أن هذا الجدار غير قابل للانهيار، كم تاقت نفسه إلى الهروب، ولكن كل محاولاته باءت بالفشل الذريع، و اقترب من الموت كثيرا عندما تتطايرت الرصاصات النحاسية فوق الرؤوس، ولكنه نجا من محاولة قتله، و انتظر إلى موعد الانهيار، وامتطى صهوته، وهو يدق بالمعاول على كل حجر فيه غيظ و انتصار، كان أول من استقبلني وأجرى أول مقابلة معي، على أساس أول عمل لي في الحفلات، قائلا لي في سرور: بعد انتهاء المقابلة:

"مرحبا بك في فندقنا؛ و أتمنى لك التوفيق في عملك في الحفلات، و أتوقع بذل كل جهد منك".

كنت لا أتوقع ذلك؛ لأن عمل الحفلات عمل مضن جسدي شاق. ولكن كنت أرجو أن تتحس الأمور قليلا بمرور الوقت والأيام التي تليها، ولكن الأيام أعطتني أكثر من ذلك، فمن كان مساعداً له قد استقال بعد توجيه اتهامات له بالسرقة؛ كنت في خلال السنوات الثلاث قد أثبتت جدارة وسط هذه المؤامرات، والجو المسموم الذي كان القسم يعج بأعوانه. أنا لا أخاف المواجهة، ولكن لم يتم تعيني مساعداً له، ولكن كنت قائماً بأعمال التنسيق الخاص بالحفلات، وهذه هي روعة الأميريكين، عندما لايريدون إعطاك وظيفة، يخترعون لك مسمي وظيفيا جديدا، إنهم لايملون من الاختراعات في كل شيء، وأي شيء، حتى وإن كنت منسقا خاصا بالحفلات، والتي يندرج تحتها موظف حجز حفلات، ولامانع أن تكون نادلاً على الطاولات في حالة عجز الموظفين.

كان ذلك استدعاء محموماً، وعند دخولي وجدت أن أصحاب البدل السوداء قد احتلوا الغرفة، وتحولت إلى غرفة عمليات، وكان الحديث على قاعة الحفلات fifty7 القاعة الوردية والمخصصة لعمل حفلة لمائتي فرد؛ لدعم حملة انتخاب "جورج بوش الابن" الرئيس المحتمل "لأرض الأحلام"، فهذه إحدى الحفلات لجمع التبرعات للحملة، وحان وقت إسهامات رجال الأعمال، وأصحاب المصالح في نيويورك. إنه لم يكن في الحسبان أن هذه الحفلة سوف تكون في هذا الفندق، ولكن لدواعي أمنية: تم إلغاء حفلة التبرعات في الفندق الآخر، وتم عملها في هذا الفندق في آخر لحظة.

في هذا الصباح بالإضافة إلى الاجتماعات الأخرى التي سوف تنتهي قبل الرابعة؛ أن تكون القاعة جاهزة، وفي أفضل حالتها قبل الثامنة؛ لايوجد وقت، عليَّ أن أقوم باتصالاتي لجلب المزيد من العاملين من منازلهم بعد ساعة من الآن، كانت الاتصالات لا تتوقف، ولم أخرج من المكتب قبل أن اطمأننت على حضور كل من اتصلت بهم، ماعدا واحداً كان خارج نيويورك، لم أتحصل

عليه، إنهم أيضا من جنسيات مختلفة. لا سبيل إلا أن أكون مكانه في هذه الحفلة. يجب أن تكون حفلة لا مثيل لها، وهي سوف تكون علامة فارقة في تاريخي المهني، وتاريخي الإنساني أيضا، أن أرى الرئيس المحتمل أقرب مما أتخيل.

القاعة في أبهى صورة لها؛ تزينت القاعة بأعلام الولايات المتحدة، و أيضا بالشعارات المصاحبة للحملة للجمهوريين . وهو يخالف الو اقع . استخدام طرق المحافظين للأقل احتياجا شعار يخالف كل مايؤمن به الجمهوريون، أو أصحاب الفيل الضخم، عندما اختاره توماس ناست لكثرة المال لدى الجمهوريين.

كان العمل يجري على قدم وساق، الكل كان يتفانى في عمله؛ كان العمل احتر افيا إلى أقصى حد. أصحاب البدل السوداء لم يتركوا شاردة أو واردة إلا سألوا عليها؛ تحققوا من كل شيء من قائمة الطعام؛ وأدوات الطعام والمشروبات المقدمة، لم يتركوا شيئا للصدفة، وتم وضع اللوحة الخارجية لجلوس الضيوف كل بحسب إسهاماته وأهميته بالنسبة للحملة الانتخابية. مازالت غرفة مدير الحفلات محتلة من أصحاب البدل السوداء، مع منظمة الحفلة التي كانت تجري الاتصالات التليفونية لكل المساهمين بتغير مكان الحفل. كان سباقاً مع الوقت، وسباقاً مع النفس حتى تكون الجدارة ليس من قبيل الصدفة. تم عمل اجتماع كبير بيني وبين منظمة الحفلة، ورئيس طاقم الحراسة والموظفين، وحضره مدير عام الفندق، ومدير الحفلات والشيف العمومي للمطبخ؛ لمناقشة قائمة الطعام، ومن سوف يقوم بخدمة الطاولة الرئيسة للرئيس المحتمل، وتوزيع الموظفين على الطاولات الأخرى. ترتيب الأطباق المقدمة والمشروبات المصاحبة لها، ودقة المواعيد في التقديم، ثم الانسحاب من الغرفة بعد الانتهاء من العشاء، وتركها بعد تقديم القهوة والشاي كان كل شي منظماً.

الأضواء التحذيرية بالأزرق والأحمر قد انعكست أضواؤها على الزجاج العاكس، والسيارات المصفحة قد تتابعت في القدوم، وصفارات سيارات الشرطة في الأمام تنبئ بقدوم الرئيس المحتمل؛ الكل قد دخل من البهو الرئيس إلى الدور السادس، والوتيرة قد تصاعدت في رؤوس من يقومون على خدمة الطاولات. أصحاب البدل السوداء يتفحصون الوجوه وأصحاب الأعمال، ومتبرعي الحملة قد تراصوا على الطاولات المستديرة، انتظاراً لدخول الرئيس المرتقب.

كان الجو عموما يملؤه الارتباك والحماسة والشوق المنقطع النظير. كان بالنسبة لي أن أرى الرئيس المحتمل، وهو الأقرب بالفوز للرئاسة وجها لوجه؛ ربما كان شيئاً عادياً بالنسبة للمواطنين أن يروا رئيس الجمهورية في مترو الأنفاق، أو أن يركب الحافلة بدون اكتراث، ولكن بالنسبة لي؛ الأمر مختلف كليا، أن ترى زيارة الرئيس محاطة بسرية تامة، وتمشيط المنطقة المزمع زياراتها عدة مرات، والقبض على أصحاب السوابق، ووضعهم في السجون في مدة الزيارة، ونصب القناصة أعلى الأسطح، ومن ينظر من خلف الأستار لايلومن إلانفسه برصاصة لا تخطئ أبداً.

من هذا الشبح المنتصب أمامي أثناء دخول الرئيس؟ أهي تكون من قالت: تأكد أننا سوف نلتقي؟ لا يمكن أن أكون بهذا الحظ. إنها هي بالتأكيد؟ العين لاتخطئ هذه القامة والشعر الأحمر؟ العين لاتخطئ هذه الطلة، ولكنها قد تأخرت كثيرا. وماذا تتوقع من تعدد قد بلغ مائتين وخمسين مليون من البشر في قارة مترامية الأطراف؟ لم تغب عن مخليتي قط طوال هذه السنوات الماضية، عندما تسللت إلى محطة تموين السيارات وصديقتها من ملاحقة العصابة التي حاولت أن تبيع لها "السم الأبيض". لقد أصابتني بسهام الهوى، والسهد لم يتركني في حالي. كان الجنرال يشفق علي من هذه اللحظات، عندما أدرك من

حديثي أنها تدور في أفلاك غير فلكي أنا! قائلا لي في كلمات قليلة تحمل كثيرا من الحكمة:

"لا تتعلق بالأوهام ياصديقي، هي بكل المقاييس بعيدة عن فلكك الذي تدور فيه".

وهاهي تحققت النبوءة بعيدا عن حدس الجنرال، إنها في حملة تبرعات الرئيس القادم والمحتمل؛ من أنا حتى تتذكرني؟ إنها تجلس على طاولة أمام الطاولة الرئيسة، إنها في نطاق خدمتي، أنا من سوف أقوم بخدمتها في هذه الليلة المشهودة، إنها ليلة لها حادثان، ولكن الثاني هو مايهمني؛ لايهمني إن كان رئيس المجموعة الشمسية بنفسه من يجلس أمامها.

كان السؤال في همس عندما أدارت وجهها في عجلة، لترى من هذا الذي يهمس لها قائلا لها في نغمة الغارق:

"لقد تأخرت كثيرا عني".

لم تصدق وأطلقت ضحكة صغيرة. إنها لاتصدق أن من أنقذها منذ ثلاث سنوات يقف في خدمتها! يالها من مصادفة غريبة. إنه هو الشخص نفسه إنها لاتنسى الوجوه ومن يقف بجانبها في مصاعب أو شدة، ربما أتى اليوم لكي يسأل المقابل، ولكنه ليس من هذا النوع من يسأل هذا السؤال لايعني مالاً، بل يعني اللقاء في حد ذاته؟ لقد وعدته ولكنه مازال ينتظر؟ وينظر على أنه وعد لم توفي هي به؛ كم هي صغيرة الدنيا أن ترى وجهاً منذ سنوات ماضية ولايستغرق اللقاء أكثر من نصف ساعة، وبعد هذه السنوات تلتقي بهذا الشخص نفسه في مكان آخر تحت ظروف أخرى، ولكنه لم يتغير منذ أن كان في "برونكس"؟ إنه مازال الشخص نفسه، ولكن تغير تحت هذا اللباس الرسمي، البدلة السوداء والقميص الأبيض، وربطة العنق السوداء، وهذه القامة المنفردة، والرقعة الفضية التي تعلو الجيب العلوي للجاكت "المنسق العام للحفلات"، ياله من

اسم براق، إنه يبدو عليه الطموح من عامل ليلي في محطة للتموين السيارات، لشخصية مهمة في واحد من أفخم الفنادق في نيويورك، وهو خاص بعلية القوم ورجال الأعمال، والاسم:

"سمير جلال"

من أي أين أتى هذا الشخص؟؛ إنه ملفت للنظر لقد كان الكلام أقرب إلى الهمس، إنها تجلس أمام شخص هو الأقرب إلى الرئاسة قائلة له في ثقة:

"نعم لقد تأخرت عنك أعتذر، اسأل تجاب".

كانت الإجابة قصيرة، ولكنها كانت تعني لي كل شيء: "اسأل تجاب"، يالها من ثقة في النفس؟ أنا أبحث عنك منذ زمن طويل، واليوم أنت أمامي لايفصلني عنك سوى هذا الكرسي الحائل بيني وبينك. إنك غريب عن هذه البلاد! إنك من بلاد بعيدة، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ أهو البحث عن فرصة لاقتناصها؟ أم أنت تائه مثلي تبحث عن ملجأ؟ البحث عن ملاجئ ليس بالضرورة إنك من أبناء الشوارع حتى وإن كنت من أغني أغنياء العالم، ولايوجد بيت للحنان والحب والأمان يحتويك ويضمك. فإنك بالتأكيد سوف تكون تائها مثلي؟ ليس من النوع الساذج بل أنا سيدة أعمال، اغتنم الفرص ولكنك لست بفرصة عمل، إنك مشروع، إنك طموح؛ ولكن طموحك محدود، بدليل أنك تقف في انتظار وظيفة. لا مانع أن تكون مؤقتة؛ لقد انتظرتك كثيراً حتى تأتي، لقد أخذ الأمر حتى ألتقي بك بعد ثلاث سنوات، لقد سألت عنكِ الجنرال، إنه يعرف كل من هو مهم في "برونكس"، لكنه لم يخطر في باله أنك صاحبة شركات المطاعم المنتشرة في نيويورك ومانهاتن وبرونكس، وبعض الولايات الأخرى "أنجلينا أليسندرو" لم يتذكر الاسم لا أحد في "برونكس" يعرف هذا الاسم "أليسندرو" لم يذكر كثيرا، كانت الأسماء تطلق مجردة بدون ألقاب، لقد اختفي هذا الاسم في خمسينات القرن. لم يعد أحد يتذكر هذا الاسم، ولكن الآن أصبح أكثر

وضوحا؛ إنها سيدة أعمال لم تكن كذلك منذ ثلاثة أعوام، كانت فتاة عابثة ارتادت أحقر نوادي الديسكو في "برونكس"، مكان موبوء مثل هذا، لماذا تأتي إليها فتاة بهذه المكانة الرفيعة؛ كما أخبرتني صديقتها قبل أن تفقد الوعي، إنها كانت تحن إلى الماضي! ماهو هذا الماضي الذي تحن إليه في هذا الحي الفقير؛ أنها تحن إلي ذكريات الفقر؟ بالتأكيد إنها قصة مشوقة، سوف ترويها: اسأل تجاب، ما زال الجواب واضحاً يجب أن أعرف؟ هل هي لها زوج لا أرى في أصابعها أي حلقة معدنية! وماهو المانع أن يكون لها صديق ينتظرها بمجرد خروجها من هذا الفندق، سوف يصطحبها إلى أقرب ملهى ليلي لتكملة السهرة، بعد تأدية الواجب مع الرئيس المحتمل، هذا من الجائز هذا النوع من السيدات لايترك لوحده أبداً. ومن أنا حتى أسال؟ إنه وعد منها لي؟ هذا ما قالته الآن فقط.

كان وقوفي على أحر من الجمر؛ انتظارا للانتهاء من حملة التبرعات. لقد انصرف سريعا في حراسة الوفد المدجج بالسلاح، واختفت عن الأعين أصحاب السترات السوداء والنظارات القاتمة، وبقي المائتان داخل الغرفة حتى ينصرف. كان الانصراف في عجل واضح، ولكنها لم تخرج من مكانها، بل ظلت قابعة على الكرسي، لا تريد الانصراف لقد تأخر الوقت؛ لقد أضيئت القاعة الآن. قد لا حظت أنها ترتدي فستاناً أسود، إنه يذكرني بالممثلة الأميريكية أودري هيببورن، في فيلم "إفطار في تيفاني"، إنه فستان أسود مثير، وهي قد زادت جمالا، ولكنها لاترتدي القفازات الطويلة، لقد ازداد "جيفنشي" شهرة، و"أنجلينا" ترتدي هذا الفستان مرة أخرى، هل هي من تحن إلى الماضي بهذا الفستان المثير للجدل في حفلة للرئيس المرتقب، ولكن هي تستغل هذا في أغراض الدعاية، ربما لم يكن علي سبيل المصادفة، ربما سوف تكمل سهرتها في مكان آخر. إنها مازالت متسمرة على كرسيها. اقترب إليها في وسط العاملين

الذي سوف يقومون بتغيير وضع الطاولات المستديرة، وتغيير المفارش، ووضعها لاستقبال الاجتماعات الأخرى خلال الأسبوع؛ غدا يوم آخر من الاجتماعات التي لا تنتهي، قبل أن أصل إليها، كانت قد خرجت إلى الشرفة الملحقة بالقاعة، كانت تمشي في تلكؤ واضح، ولكن بحذر في خطواتها؛ أراقب خطواتها، إنها أنثى بكل معني الكلمة؛ لا تتصنع أنوثتها، بل إن الانوثة تلتصق بها، ولا تتخلى عنها في هذه الخطوات الواثقة الحذرة؛ كان هناك كأس لها من النبيذ الأبيض لم تلمسه، لقد أخذته من على الطاولة، ولحقت بها إلى الشرفة، ووقفت على بعد خطوات من ورائها، ولقد انتبهت لي وأدارت برأسها وهي تضحك، وأنا ممسك لها بكأس النبيذ الأبيض، وتقترب رويدا مني قائلة لي في دلال الأنثى:

"كنت في احتياج إلى هذا الكأس".

لقد تناولت الكأس وهي ترشف منه في تمهل واضح، وتنطق بالاسم "سمير" وهي تنظر إليّ في نظرات حانية ولكنها ثاقبة:

"سوف أنتظرك أمام الفندق، لا تتأخر حتى أفي بوعدي لك، فأنا دائما أفي بوعدي".

لقد أعطيت تعليماتي للعاملين، للانتهاء من تنظيم وترتيب المكان، لقد قاربت الساعة على الحادية عشرة وسوف آتي صباحا، عليّ الآن تغيير ملابسي، وانتظارها أمام الفندق، أوربما ألحق بها في مكان انتظار السيارت، حتى لاتقف أمام الفندق منتظرة، كنت في شوق لكي أتحدث معها حديثا طويلاً. كنت سعيدا جدا من الانتهاء من أعمالي في هذا الوقت، واللحاق بها في مكان انتظار السيارات. اقتربت كثيرا منها سيارة قديمة في عرف السنين لاتليق بسيدة؛ لكنها في أعراف العراقة؛ إنها حديثة بكل ما تعنيه الكلمة، إنها "موستنج شيلبي" المعروفة بـ"اليانورا".

لم ألتق بهذا النوع من قبل من النساء، إنها مثيرة متمردة محافظة، لا أعرف من تركب فورد سيارة قوية لفتاة أقوى، إنها بالتأكيد لا تخاف من النقد البناء أو اللاذع لايهمها! سيارة ذات بابين مع هذا الفستان الأسود القادم من الستينات من هذه الفتاة؟ إنها تحاول أن تشغل السيارة ولكنها تأبى. اقتربت منها رويدا، المكان الإضاءة في ليست بالقوية؛ اقتربت منها حتى أعرف سبب استغراقها كل هذا الوقت في إدارة السيارة. تخرج غاضبة من السيارة وهي تلعنها وتأخذها ركلا. أحاول التهدئة وإبعادها عن السيارة حتى أرى ماهو السبب لهذا العطل، محذرا إياها ألا تركل هذه السيارة النادرة، قائلا لها في كلمات تحذيرية:

"إياك أن تركلي هذه التحفة مرة أخرى".

لقد هدأت قليلا، طلبت منها أن تفتح لي باب الموتور؛ حتى أرى مافيها من عطل. "بسيطة" قلته في نفسي، أن سلك أصابع الاشتعال ليس في مكانها قائلا لها في هدوء:

"إنه شئ يسير؛ أصابع الاشتعال غير مثبتة بشكل جيد"

كنت أُحدث نفسي بضربة خفيفة، سوف تتمكن من إدارتها مرة أخرى؛ تحاول مرة أخرى، لقد نجحت، تخرج من السيارة فرحة، وهي تتعلق في رقبتي بدون وعي منها قائلة ليّ:

"إنك أصبحت أيقونة الإنقاذ لأنجلينا أليسندرو؛ اسأل تجاب".

لم تنته من الكلمة حتى كان طلق ناري قد أصابني في كتفي قرب قلبي؛ من شدة الألم سقطت على الأرض، وقبل أن أسقط كان هناك طلق آخر قد أصاب رجلي، قبل فقدان الوعي والجسد يرتطم بشدة على أرضية مكان انتظار السيارات، مع صرخة مدوية فزعة، ممن كان في انتظار استقلال السيارات المركونة.

الحي الميت

(٢)

"عندما نجد الفرصة لتفادي الموت فمن الواجب أن نعيش".

إيميلي نوثومب

أكتوبر١٩٩٩م

الصورة الضبابية جعلتني مغمض العينين، هالات الضوء كانت تتسلل ببطء إلى العينين ولكني لا أستطيع أن أفتحهما، لا أدرك من الأمر شيئا سوى ألم فظيع في كتفي الأيسر، ولا أكاد أتحسس قدمي اليمني. إنها مشتعلة بنار. إنني غائب عن الوعي منذ متي؟ لا أعلم، لا أرى شيئاً هل قد أصبت بالعمى؟ الإحساس أيضا بالوقت لا أعلم إن كان هذا صباحاً أم مساء؟ ما زلت مغمض العينين، وما هذه الخراطيم التي تتدلي من ذراعي؟ وصوت متقطع لا أعلم من أين يأتي هذا الصوت؟ ربما أكون في مستشفي ما؟ لا أتذكر شيئا. الألم ما زال ينخر في عظام القدم؛ اليدان تتحسس الغطاء الذي التحف به، إني أكاد أكون عاريا تماما. ما هذا الذي يحدث؟ لا أتذكر شيئا من الذي حدث! كان سقوطاً مروعا. أتذكر جيدا، ولكن أن أكون عاريا بعد فترة ليس هذا من قبيل المصادفة.

إنها رائحة زكية تأتي من الشراشف الناعمة، ور ائحة الوسادة إنها ليست بمستشفي إنها شيء آخر، أنا بعيد تماما عن رائحة المخدر ور ائحة المشافى، وإن كان هناك بعض آثار المخدر، ولكنه يكاد يختفي تحت هذه الر ائحة الزكية الآتية، ولا أدري من أين؟ ولكني أعرفها تماما، إنني بالتأكيد أتذكرها ولكن أين؟ إنها ليست بالرخيصة، إنها غالية جدا، ولكني لا أتذكرها؟ سوف أتذكرها، من الصعب أن تنسي هذا النوع من العطور الباريسية الر اقية.

هناك رغبة ملحة داخل نفسي في الإحساس بالمكان، سوف يخبرني بالكثير، ولكني لا أسمع إلا همساً، ولا أكاد أميز الأصوات! إنها أصوات غريبة بلكنات ثقيلة، مخلوطة بكلمات من الإنجليزية، و أيضا ماهذه أيضا؟ إنها لكنة إسبانية أو أوكرانية، أوربما لا أعلم؟ إنها مختلفة وثقيلة. إنها لاتنبئ بشيء، ولا أفهم منها شيئاً؛ من هؤلاء أيضا؟ أنفاس تقترب من وجهي، وضوء ضعيف يتسلل إلى العيون المغمضة. عادة في بعض المرات: العين تتحسس الضوء المتسلل إليها. إنه ضوء ناعم، يتسلل برفق إلى العيون المغلقة عدة مرات، ويتناوب الضوء إلى الدخول في العين الأخرى، يتسلل إليها، لا أسمع سوى الصمت والأنفاس مازالت قريبة من الوجه؛ أحس بهذا الخدر الذي يسرى في جسدي؛ إنها راحة من هذه الآلالم التي لا أحتملها. سوف أغيب عن الوعي مرة أخرى، لا أكاد أحس بهذا الجسد العاري الر اقد بدون حركة. لا يدرك ما الذي حدث أو سوف يحدث. الجفون مثقلة بالنوم العميق، وقد غاب الجسد عن الوعي والعقل قد توقف تماما؛ كان سباتاً عميقاً من هذه الآلالم المبرحة مع هذا الهذيان.

اندملت الجروح بشكل طبيعي، ولكن الجرح في الرجل اليمني سوف يترك أثراً، ولكن غير ذلك فهو في صحة جيدة" نطق بها الطبيب المعالج، وهو ينظر إلى الجرح الغائر في أعلى الكتف الأيسر "كارلو الصغير"، يغطي هذا الجرح ويكشف الجرح الآخر أسفل القدم. إنه يبحث عن أي إصابات أخرى، ربما يكون أهملها، أنه على هذه الوضيعة، وهو يتفحص أماكن الجروح كل يوم، وفي كل ساعة بعد متابعة لمدة أكثر من ثلاثة أسابيع.

كانت استغاثة محمومة من "أنجلينا" وهي تصرخ فيه عن طريق التليفون المحمول؛ أن يلحق بها على البيت، وآلا يتأخر، وإلا سوف تكون كارثة كبرى، سوف تحدث لها لو فقد هذا الشخص حياته. لقد طلب منها أن تتجه إلى المستشفى، ولكنها رفضت بشدة؛ لأن ماحدث له من تحت رأسها، ولن تستطيع

أن توضح في محاضر الشرطة و أقسامها ماحدث. كان المقصود منه هي بذاتها كانت رصاصات صامتة لايسمعها أحد، ولكن أنا من رأيت آثارها على هذا الجسد المسجى أمامي، كانت استغاثاتها مريعة وهي تصرخ في التليفون:

"دكتور كارلو: لقد أطلق النار عليّ ولكنه لم يصبني الرصاص، بل أصاب شخصاً كان بصحبتي".

كانت تريد أن تنزوي بعيدا عن شر عائلة "كارلوتشي السفاح" لقد تحققت جيدا من أطلق الرصاص على "سمير"، إنها قد التقيته مرة أو مرتين في صحبة "انشيلوتي" ابن "روبرتو كارلوتشي السفاح". هذا الجسد الضخم الذي كان لايفارقه أبدا إنه دائما في ظله؛ هذا الوجه البارد الخالي من المشاعر؛ تحجرت مثل الأحجار، كان لا يرد طلبا له. إنه قاتل صامت لايتحرك إلا والموت من خلفه، يكاد لاينطق، بل لاتكاد تنظر إليه حتى تصاب بالهلع. إنه لايتورع عن عمل أي شيء له. كان هذا الشخص لايفكر كأنه يساق أو مصاب "بالتنويم المغناطيسي"؛ "انشيلوتي" الذي كان في إلحاح مستمر على الزواج بها، ولكنها كانت ترفض دائما. كان يتوعدها إنها لن تفلت منه، ولن تتزوج غيره، ومن يقترب منها سوف يقتص منه، قائلا لها في تحدي واضح بدون أن يهتزله طرف:

"لن تتزوجي غيري؛ ومن سوف يقترب منك، لن يكلفني سوى رصاصة مثل التي أصابت جدك من قبل".

إنه مجرم، ولايخجل من نفسه، ويذكرها دائما بما فعله السابقون من عائلته في جدها "إبرا" لم يخجل عندما ذكر لها هذا الحادث الأليم، ولكنها لم تذكرهذا لجدتها "فرانسيسكا" إنها لاتريد أن تزيد من معاناتها بهذه الذكريات المؤلمة.

لقد عانت من هذه المآسي التي تسببت فيه العائلات الخمس لها ولعائلة "أليسندرو"، إنها لاتريد الارتباط بهم. لقد قامت "فرانسيسكا" بدورها في شرح

أبعاد قصة قدوم الجد الأكبر "أوجستين" وما لحق بهم من "كارلوتشي" الجد، والآن ما لحق به من هؤلاء الغوغاء، الذين لم يتركوه في إيطاليا أو في أمريكا على الرغم من أنهم كانوا سببا في قدومه إلى "أرض الأحلام" إلا إنهم كانوا سببا حقيقيا لنكباتهم الحقيقية!.

ماذا جني هذا الجسد المسجى؟ لم يرتكب أي جرم يذكر؟ إنها مخطئة حتما في حقه، إنه لايستحق هذا المصير، لقد تحمل جريرتها بدلا عنها؛ إحساسها بالذنب يكاد يقتلها؛ إنه من الشهامة والرجولة لم تجدها يوما ما في حياتها مع رجل آخر؛ لقد دافع عني أمام هؤلاء العصابة عندما كنت في احتياج له، قدم المساعدة بدون تردد، ولم يسأل عن المقابل مثل الآخرين. والآن أنه راقد أمامي مسجى، يكاد لايدرك ماحدث له! أنه راقد منذ ثلاثة أسابيع على هذا الوضع.

لم أقصر معه، لقد جلب "كارلو الصغير" المستشفى كلها إلى هنا؛ لقد تحولت غرفة النوم الكبيرة الخاصة بي إلى غرفة عناية مركزة. لقد أحضر كل الآلات وطاقم التمريض، وطبيب التخدير إلى هنا؛ لقد تحولت الشقة إلى مستشفى صغيرة، واستغل طاولة الطعام وحولها إلى طاولة عمليات، بل قد استعان بإضاءة قوية من صديق له من المصورين الفوتوغرافيين؛ نظراً لضعف إضاءة المنزل، واستخدم عواكس الإضاءة.

لقد أجرى هذه العملية بعد أن قام بتعقيم الطاولة بالكامل بالمطهرات القوية، التي ظلت في الشقة لفترة طويلة حتى بعد شفائه. لم أبخل بشيء، بل دفعت لهم مبالغ طائلة. ولم يتركني "كارلو الصغير" في هذه الورطة، بل كان أسرع مما أتخيل. كان تدخله سريعا؛ لقد اقتربت الرصاصة من القلب على بعد سنتيمترات فقط، وتركت فتحة في خلف الكتف؛ كان التدخل الجراحي ضرورياً. لقد فقد كثيراً من الدماء في طريقه إلى هنا.

كنت مثل المجنونة لا أتذكركم من الوقت أمضيته في الشوارع، و أنا أحاول أن أصل إلى المنزل في مانهاتن.

كان الوضع مرعباً، وأن أحاول أن أضغط بيدي على المكان النازف. كان الدم غزيراً، وأكاد يغمي عليّ من الدم المتدفق من كتفه؛ كان التأوه فظيعا؛ لقد تركت مقود السيارة عدة مرات، و أنا أحاول أن استعدله في جلوسه أن يجلس مستقيما، ولكني لم أستطع حتى وصلت إلى البيت.

كان الوقت متأخرا، ولا يكاد أحد يمشي في الحي الراقي القديم، القريب من الحديقة المركزية، وشوارع برودواي المزدحمة بالمسارح، ويفصلني عنها طريق رقم ستة وشارع 53 غرب؛ كاد صوتي يخلع قلب "برنس"، هذا البواب ذو البشرة السوداء، الذي كان يقبع خلف مكتبه الصغيركنت أصيح بصوت عالٍ عليه، قائلة له في كلمات يغلفها الرعب:

"برنس تعالى إلى هنا على وجه السرعة، احمله لا أقدر على حمله لوحدي".

هذا الضخم الجثة، يكاد قلبه يخلع عندما رأى هذه الدماء المتدفقة النازفة قد أغرقته تماما، وهو يحمل هذا الجسد بين يديه، والنزيف القادم الآخر من قدمه قد أغرق الأرضية الرخامية. أتقدم هذا المشهد فاتحة باب المصعد. إن الشقة في آخر دور إنها شقة (بنتهاوس)، هي شقة راقية مؤثثة بأثاث راقٍ ورياش ناعمة. لم أبخل عليها حتى تظهربهذا المظهر اللائق بسيدة أعمال، تملك نصيباً كبيراً من سلسلة مطاعم "كاراكلا"، هذا الاسم الملكي لإمبراطور مريض ذهنيا، الذي كان نكبة في الماضي لأهل روما، أصبح نكبة لعائلة "أليسندرو".

هذه الشقة التي طالما استقبلت الكثير من المشاهير والإعلاميين من أجل الدعاية والحفلات الراقية التي طالما دخل إليها جيل من السياسيين الجمهوريين، الذين يتطلعون إلى العودة للجلوس مرة أخرى على الكرسي في

المكتب البيضاوي، على الرغم من أقليتهم وعدم حصولهم على نسب كبيرة في الانتخابات التشريعية، وخاصة في مدينة نيويورك الديمقراطية منذ أمد طويل، على مدار السنوات الماضية.

ولكن يأتي اليوم الذي استقبل هذا الجسد الغارق في دمائه! ليس له ذنب فيما أفعله؛ لماذا كل من يقترب من هذه العائلة يتحول إلى ضحية؟ إنها عائلة منحوسة، لاتترك أحداً في حاله! إنه ضحية أخرى لعائلة "أليسندرو"، وضحية أخرى أرجو آلا تسقط بسبب تهوري ورعونتي، وعدم استخدامي لعقلي، أو حنكة جدتي الكبيرة "فرانسيسكا" ماذا سوف تقول الآن؟ كان قلبي ينخلع بمجرد التفكير في فقدان هذا الشخص الغريب؟ إنني لم أخبرها إلى الآن. إلى الآن لم أتصل بها، ولكن بعد تردد واضح كان عليَّ أن اخبرها بكذبة صغيرة، وأخبرها أنني لم أصل إلى البيت بعد، قائلة لها بعيدا عن طاولة العمليات:

"أنا خارج نيويورك. أمر طارئ قد حدث في أحد الفروع".

كنت أشعر أنها لم تقتنع بحجتي، بل كان يساورها الشك؛ هذه هي عادتها منذ أن رجعت من كندا، أن تعرف كل خطواتي؛ لقد كذبت عليها مرة أخرى، أخبرتها أنني في رحلة عمل؛ لكنها لم تقتنع بهذا الكلام، كانت تعلم أنني كذبت، واستقصت عن الأمر الذي وصلها من خلال عيونها التي أرسلتهم من ورائي منذ عودتي من كندا، وعرفت الورطة التي وقعت فيها؛ لقد فتحت الباب على هذا الجسد الرقيق القوي، وهي تنظر إليّ بنظرات فاحصة! كنت لا أتوقع وصولها وهي ترى هؤلاء الأطباء يدخلون سراعاً إلى غرفة نومي، وهي ترى هذا الجسد المسجى أمامها، قد غطي تماما بأربطة بيضاء. كان تقريعها عنيفا لي، لم تتركني حتى كنت أبكي بكاء مراً على استهتاري، وعدم إخبارها في الوقت المناسب، قائلة ليّ في كلمات غاضبة:

"إنك عنيدة ومتهورة، ولاتعرف في معنى المسؤولية، سوف تلقين حتفك قريبا".

إنها سيدة قوية لاتهاب أحداً، كانت أكثر مني خبرة على الرغم من عدم تكملة تعليمها. إنها تحبني بشكل جم، ولكنها لاتتوقع أن أكذب عليها. كنت خائفة منها على ارتكابي الكثير من الأخطاء على الرغم من أنني أحاول أن أتحاشي هذه الأخطاء، ولكنني كنت أقع بسهولة؛ كان تأكيدها على قيمة العائلة، إنهم سوف يقفون بجانبي، مهما كانت الظروف. كنت أظن أنني لي القدرة على حل المشاكل بدون الاستعانة بهم. كنت دائما خاطئة قائلة لها في دموع منهمرة وحديث متقطع:

"فرانكا كنت خائفة جدا، ولا أقدر على التفكير، كنت خائفة من تقريعك ليّ؛ لم يكن خطئ".

كنت خائفة على "فرانسيسكا" أن تصاب بالهلع وتموت من فرط الصدمة، لا أحد يستطيع أن يتحمل هذا؛ ولكنها كانت أكثر حنكة مني، لقد ابتلعت غضبها بشكل لايتخيله أحد، واستوعبت الموقف تماما، وجلست ترقب هذا الجسد الراقد أمامها يوما بعد يوم، لقد أجبرت والدي آلا يترك إدارة سلسلة المطاعم في الوقت الحالي؛ لأنني أمر بظروف صعبة، وسوف تمكث معي، وآلا يأتي إلى بيتي إلا عندما تخبره. كانت تحدثه على التليفون في كلمات حازمة:

"سوف أبقي مع أنجلينا لفترة من الزمن؛ اعتني أنت بشؤون المجموعة، ولا تأتِ إلا عندما أخبرك".

كان "ألكسندر الصغير" ينصت إليها وإلى حكمتها بشكل غريب جدا، ولكنه لايملك من الأمر شيئا :

"عندما تأمر بوالدتي بشيء عليّ أن أطيع. أعلم أنها على حق دائما".

لقد تركت بيتها القابع خارج نيويورك، و أتت على وجه السرعة، وهي تعلم ماذا حدث من خلال عيونها الذين دائما يلازمون خطى أقدامي، ويلاحقوني في أي

مكان، كانت تدفع لهم بسخاء لأنها كانت تعلم تمام العلم أنني سيدة قوية، وسيدة أعمال راقية. ولكني ينقصني حنكة الإيطاليات على حد تعبيرها.

كان الخبر قد وقع عليها مثل الصاعقة، عندما أخبرها أحد البصاصين بما حدث، والورطة التي وقعت فيها حفيدتها، لقد أسقط في يديها، وهي تنصت إلى هذه الأخبار المزعجة؛ كان الوضع رهيبا، وأن أرى هذا الجسد الراقد لايتحسن في خلال الأيام الماضية؛ لقد جلست "فرانسيسكا" تصلي كثيراً، وهي تحتضن صليباً فضياً، وأنجيل الملك جميس حتى تنجو. وكان لها ما أرادت.

كان "كارلو الصغير" لايكاد يفارقه، بل مكث عدة ليالٍ من قبل على الكرسي المجاور له، وهو يتأوه من الجروح التي أصابته، كانت الحقن المسكنة للأوجاع هي الأقرب له؛ كانت "فرانسيسكا" تذكر جده الأكبر الذي عالج من قبل "أوجستين" إنها لاتنسى وجه جده، عندما كان يأتي إلي المخبز العتيق، ويأخذ الخبز "الرنيلا" لعمل الشطائر، وها هي الأيام تدور والحفيد الأصغر الذي كاد يصل إلى سن الخمسين هنا في بيت حفيدتي "أنجلينا أليسندرو" يعالج شخصاً غريباً، قد ساقه القدر إلينا.

لقد حان الوقت لحديث جدي مع "روبرتو السفاح" حتى تتوقف هذه المهزلة، وحمامات الدم التي لم تتوقف منذ وصولنا إلى "أرض الأحلام"، يجب أن يعلم ما الذي يفعله ابنه مع حفيدتي، يكفي مايحدث لنا، والآن هذا الغريب الذي كان بالصدفة في محل غير محله؛ ربما هي اللغة الوحيدة التي يفهمها هي لغة التهديد، ولكن هذا الأسلوب لايصلح مع هذا الإجرام المتأصل فيه، ولكنني سوف أبدأ باللين؛ واذا لم ينفع اللين؛ سوف أنتقل إلى مرحلة أخرى هي لغة المال وتحريك السياسيين في الدوائر الحكومية؛ لتأليب الرأي العام على الجريمة المنظمة، وفضحهم على المستوى الشعبي والحكومي.

يجب أن أفعل كل شيء ممكن من أجل الحفاظ على هذه الأسرة، ونجاة هذا الشاب المسجى أمامي، هي أمانة في عنقي حتى يقوم من هذه المحنة، ولن نتخلى عنه بعد أن قام بإنقاذها عدة مرات، إنه لايستحق هذا المصيرمن شاب أرعن قاتل، لايعي مايفعله! ويحتمي من وراء عصابة منظمة، لا تتورع ولا تتوقف عن عمل كل شيء.

كان الحديث صمتا لايسمعه أحد، ولايسمع صداه إلا هي، وهي تمسك بتليفونها النقال، وهي تتحدث بصوت خفيض إلى راعي الكنيسة الذي يعرف الجد "كارلوتشي السفاح" معرفة وطيدة قائلة له في صوت خفيض لايكاد يسمعه:

"الأب فرانسيس يجب أن نجتمع سويا لإيجاد حل جذري مع روبرتو السفاح، و ابنه انشيلوتي على وجه السرعة".

كان الكلام في صوت خفيض، بعيدا عن غرفة "أنجلينا" التي يرقد فيها "سمير" بين الحياة والموت؛ إنه حي ميت، لايكاد يدري ما الذي يحدث حوله. كان الكلام على موعد أن تلتقي بالأب "فرانسيس" راعي الكنيسة، وأيضا "روبرتو كارلوتشي" في أقرب وقت ممكن؛ حتى يجدوا حلا لهذه المعضلة التي لاتنتهي.

كان على الطرف الآخروعد "الأب فرانسيس" أنه سوف يبذل مجهوداً حتى يحقق لها ما تريده، كان الصوت واضحاً في كلمات للتهدئة من روعها قائلا لها في ثقة:

"لاتقلقي سوف نجتمع قريبا وفي أقرب وقت ممكن".

كيف لايستجيب لها وإلى أي شيء تطلبه منه؛ إنها من المصلين، ومن رعايا الكنيسة ومن أصحاب الكرم السخي، إنها لاتبخل عليه وعلى الإبراشية بأي أموال تحتاجها الكنيسة، و أيضا إنها شخصية قوية، كانت لها القدرة للحفاظ

على أسرتها طوال هذه السنوات، و أيضا تماسك الأسرة. كان الوعد قاطعا من "الأب فر انسيس" لتحقيق ماتريده في غضون الأيام القادمة، وسوف يخبرها بما فعله.

كان لابد من إجراء هذه المكالمة، حتى وإن كانت مكالمة غير مباشرة مع "روبرتو كارلوتشي"، عليها أن تجد الوسيط الذي ربما له من الحنكة لكي يقنعه أن مايفعله ابنه هو ضار للجميع، وعليه أن يردعه لأن الزواج في حد ذاته قبول ورضا، و"أنجلينا" لاتقبل به كزوج حتى وإن كان تحت التهديد، سوف ينتهي الموضوع بمأساة نحن في غني عنها.

كان هذا مايدور في عقلها، ولاتريد من أحد أن يتدخل حتى وإن كان ابنها "ألكسندر الصغير" عليه أن ينأى بنفسه عن هذه المشكلات العارضة، وأي أحد من أسرتها؛ لقد عرض "أنجلينو" الابن الأصغر أن يتدخل في المسألة، لقد أصبح له نفوذ مع بعض الدوائر الحكومية في الحكومة الأميريكية، بحكم بعض العقود الحكومية التي ينفذها لهم مع الجيش الأميريكي، ومن الممكن الاستعانة بهم في هذا الأمر، وسوف يكونون بعيدين تماما عن الموضوع، بل سوف يجربون بعض الأساليب غير المعتادة معهم، وبعض الضغط المبرر، بعيدا عن دوائر وزارة العدل، أو ربما في وقت لاحق، سوف يكون هناك دور للمباحث الفيدرالية.

لقد رفضت تماما "فر انسيسكا" تدخل ابنها الأصغر في هذا الأمر؛ لاتريد أن يتوسع الأمر ويصبح خارجاً عن السيطرة، سوف تحاول الآن أن تخرج من هذا الإطاروالدائرة المفرغة حتى تتفرغ لما هو أهم.

لقد حان الوقت لتسليم الراية والاطمئنان على الأسرة؛ لقد قاربت على الثمانين، وحان وقت استراحة الفارس؛ لقد انتهي دورها، كان دورها مهماً، وهو هو بناء هذه السلسلة من المطاعم في الولايات المختلفة، مع إعطاء

ترخيص بالعمل في ولايات أخرى، تحت مسمى "كاراكلا" نظير حقوق استغلال الاسم؛ لقد وافقت على الخطة المستقبلية التي طرحها "ألكسندر الأصغر" بشأن فتح بعض المطاعم عبر المحيطات. كان لها رأي سديد أن يفتح أول مطعم في مكانه القديم بجوار نهر التيبر في الحي القديم تراستيفيري، وأن يجدد المخبز القديم بالكامل؛ كان رأيها سديداً ويدل على بعد نظر، حتى وإن ساءت الأمور من الممكن الرجوع إلى الوطن الأم مرة أخرى.

عليها أولا أن تنتهي من هذه المسألة في أقرب وقت، ولا تترك شيئاً للصدفة كل شيء على المحك الآن، عليها أن تكون متأهبة تماما لأي جديد يحدث الآن، وأن تعرف من أين يأتي الخطر المحدق بها وبالعائلة. لأن تسليم الراية يجب أن يكون في هدوء، والحفاظ على الإرث المتروك من "أوجستين أليسندرو"، وأن تبقى عائلة "أليسندرو" بعيدا عن الأخطار التي من الممكن أن تصيبها.

كان صوت "أنجلينا" يتردد في أنحاء الشقة باسم "فرانسيسكا"، سمعت اسمها يتردد بقوة صارخاً عليها عدة مرات في ترقب:

""فرانكا" يجب أن تأتي حالا، إنه بدأ يفيق من غيبوبته".

كانت "فرانسيسكا" مازالت تمسك بصليب فضي، وهي تقبله عدة مرات، وتنظر إلى سقف الغرفة ولسانها يلهج بالشكر:

"شكراً يا إلهي على نعمتك".

لقد نطقتها بالإيطالية، وليست الإنجليزية، كانت تقول على حسب اعتقادها أن الإله سوف يستجيب أسرع بالإيطالية؛ أسرعت بالخطي إلى غرفة نوم "أنجلينا" التي كانت فرحة جدا بإفاقته من الغيبوبة، وهي تحاول أن تتصل بالطبيب "كارلو الصغير" لكي تبشره بأن المريض الذي كانت تعتقد أنه قارب على مشارف الموت قد أفاق؛ كانت كلمات سريعة منه وهو يخبرها أنه في الطريق إليها؛ حتى ينظر إلى حالته عن كثب، وما الذي سوف

يفعله في الأيام القادمة، خاصة أن أيام التعافي سوف تتجاوز ثلاثة أسابيع أخرى.

الإفاقة كانت على تأوه واضح من الآلام إلى الإصابة في كتفه، وهو يتحسس مكان الجرح المغطي بالقطن والأربطة البيضاء، التي التفت من تحت الإبط، وغطت الجزء العلوي من الصدر على الأقل ثلاث مرات.

إنه لايستطيع أن يحرك ذراعيه، لقد أصابه الخدر في ذراعه وأصابعه، وما زال الألم القادم من قدمه اليمني التي انحسر عنها الغطاء، وهو يراها أيضا إنها قد تضمدت بالأربطة البيضاء. إن الألم رهيب، ولكنه لم يعلم أن القدر كان رحيما به، فإن الأسابيع الثلاثة الماضية كان غائباً فيها عن الوعي؛ لأن الآلام المبرحة كانت من الممكن أن تصيبه بالجنون!

وبعيدا عن الجنون، هذه الرائحة الزكية الآن أتذكرها جيدا، إنها نفس الرائحة في أنفي منذ ثلاث سنوات، إنها الرائحة نفسها التي كانت بالأمس، هذا ما أتذكره. إنها الشخص نفسه الذي كان في حفلة تبرعات للرئيس القادم، هذا كان بالأمس! ومالذي حدث أيضا بالأمس؟

كان كأس النبيذ في الشرفة. هذه المخلوقة المثيرة المحافظة المتمردة أين هي؟ نعم أتذكر هذه الرائحة، ولكنها أين هي؟ إنها ليست هنا!. ما هذا الصراخ؟ من هذه "فرانسيسكا" ربما الخادمة؟ لا أعلم. إن الأصوات كانت كثيرة بالأمس، منها أسباني أو أوكراني؟ ولا أتذكر هذا الاسم، ولكن "أنجلينا" أتذكره جيدا. هذا الاسم جدير بعدم نسيانه، بل إن تذكره جيدا في يقظتك وفي أحلامك؛ ماهذا الذي تقوله؟ إنك لاتقدر على الحركة! لقد أصابك الهذيان، ولا تعلم ماتقوله.

دخلا عليه وهو يتقلب في فراشه، وينظر إلى سقف الغرفة، الذي تزين بصور من الملائكة الصغيرة بأجنحة، إنها "كيوبيد" ومعه سهامها التي لاتفارقه أبدا، وهي تطير حاملة حول الشمس، إنه سقف رائع في نقوشه، يبعث على الراحة والسكينة.

"فرانسيسكا" دخلت أولا؛ من هذه السيدة؟ إنها رقيقة، وفيها بساطة غير عادية، وماهذه العينان، إنهما ساحرتان، فيهما نوع من الغموض غير مباح، لاتقل عن عيون "أنجلينا" إنهما لهما النظرات الوادعة نفسها والحنان والحزم. و أيضا كل هذا مغلف برقي واضح، حتى في مشيتها، وخطواتها المتزنة، إنها تقترب من حافة السرير، ومن وراءها أرى الجسد الفارع نفسه وهي تقترب بكرسي لجلوس السيدة الرقيقة؛ إنها تجلس بالقرب من السرير، وهي ما زالت تمسك بالصليب الفضي بين يديها؛ كلماتها الحانية الممزوجة بلكنة رقيقة من الإيطالية مع لكنة أخرى، بلكنة أهل نيويورك، كل هذا أعطاها نوعاً من السحر، كانت كلماتها في اعتذاررقيق قائلة لي:

"أنا أعتذرعما حدث لك، إنك لا تستحق هذا، ولكني سوف أضع حداً لهذه المهاترات".

وهي تعتذرعما قد حدث معي من أحداث مؤسفة، ولكنها سوف تضع حداً لكل هذه المهاترات في القريب العاجل.

كانت كلماتها نوعاً من التعزية المغلفة بحنان واضح، من سيدة رقيقة المشاعر، ولكنها تعني ما تقصده. إحساس قد وصل إليّ قبل أن تنتهي من كلماتها، قد دخلت مديرة المنزل "السجان" هذه السيدة الثقيلة في مشيتها، والقصيرة، ومن ورائها سيدة سمراء اللون تشبه النساء من جامايكا، أحضرن مايخصني من ملابس، بعد أن قمن بتنظيفها من الدماء، وهن يضعن هذه الملابس قريبا من السرير الراقد عليه، وهن ينظرن إلى "فرانسيسكا" التي

نظرت مرة أخرى إلى "أنجلينا" التي بادرتني بأن هذه الملابس لا تليق بي، بعد الذي حدث لأنها سوف تذكرني دائما بما حدث، كان هذا نوعا من التعويض عن ملابسي بدون أن تجرح مشاعري قائلة ليّ:

"هذه الملابس الآن لاتصلح لك سوف تذكرك بما حدث".

ولاحقتها "فرانسيسكا" بكلمات قصيرة قاطعة عليّ خط الرجعة فيما سوف أقوله؛ عليها أن تحضري ملابس جديدة بدلا من التي لحق بها الضرر في أقرب وقت ممكن، كانت كلماتها حازمة قائلة:

"أنجلينا عليك أن تشتري ملابس جديدة له بدلا من هذه".

أخبرت مديرة المنزل أن تأخذ هذه الملابس مرة أخرى، وأن يتركن متعلقاتي على الكومود بجانب السرير، وكان لها ما أرادت أن مديرة المنزل لاتبتسم بالمرة، جندي ألماني لايحيد عن خطواته، وفي الوقت نفسه هذه السيدة السمراء طويلة القامة، ودقيقة الملامح، والفم الرفيع، ليس مثل السمراوات: إنه جمال من نوع آخر، بعيدا عن الشفاة الغليظة التي تميز السمراوات، "سمير". هذه أيضا نوع من العنصرية. كف عن هذا الأمر، كنت أرى أنها تحاول أن تخفف عني بابتسامتها التي لاتنقطع عن تعزيتها لي، وانصرفت على عجل وهي تسمع جرس الباب إنه بالتاكيد "كارلو الصغير" الذي جاء لكي يطمئن على الحي الميت الذي كان قارب على الموت خلال الأسابيع الماضية؛ دلف من الباب وهو يضحك ضحكة صغيرة، كانت ضحكة الانتصار قائلا في لهجة المنتصر:

"نعم لقد فعلتها؛ إنني استحق ميدالية".

لقد انتصر أخيرا بعد أن كانت الحالة ميؤوس منه تماما، لقد فقد أصحاب المنزل في نجاة هذا الجسد الذي كان مسجى بدون حراك؛ عليه الآن أن يزيل كل هذه الأجهزة وهذه الأنابيب الممتدة من ذراعيه إلى غير رجعة؛ استأذن من

السيدتين أن يتركاه مع مريضه؛ حتى يقوم بعمل اللازم، وأن يتركا فقط "تريسا" الخادمة حتى تساعده فيما سوف يقوم به، قائلا لهم في نبرة حازمة:

"أرجو منكن أن تتركن الغرفة حتى أتحدث مع هذا القادم من غياهب الموت".

لقد نفذا ما طلبه الطبيب "كارلو" السيدتان تركتا الغرفة، ومن وراءهما "السجان" وتركا "تريسا" بصحبة الدكتور، الذي كشف عن مكان الجرح الأهم في الكتف، ثم اتبع بعد ذلك نزولا إلى قدمه؛ حتى يطمئن أنه لايوجد تقرحات أو مضاعفات في القدم. كان كل شيء على أكمل وجه؛ لقد أخبره أنه كان في حالة يعد مفقود الأمل فيه، ولولا عناية الله لكان في عداد الأموات الآن، قائلا له في كلمات توحي بمدى خطورة إصابته، وإن النجاة كانت في يد الله:

"لولا ستر الإله لكنت الآن في عداد الأموات؛ كادت الرصاصات تصيب قلبك، لولا أنها كانت بعيدة قليلا؛ أيضا قدمك؛ الرصاصة لم تصب العظام، بل تهتكت بعض الأنسجة".

كانت كلماته توحي بالحالة المتأخرة التي كنت عليها؛ وأن مافعلته كان نوعاً من الشهامة والشجاعة التي لايضاهيها شيء على الإطلاق.

كنت أسمع هذه الكلمات و أنا أتوارى خجلا، لا أعرف إن كان مافعلته كان مقصوداً أم أن الموضوع كان عفويا؟ وبمحض الصدفة؟ وبعد أن أتم الكشف عليّ، أرسل "تريسا" لكي تأتي صاحبة المنزل؛ التي أتت على وجه السرعة، في الوقت نفسه كان يكتب وصفته الطبية المرخصة التي يعلوه اسمه بكتابة بعض الأدوية، و أيضا تعليماته بشأن الطعام الذي سوف أتناوله طوال الثلاثة أسابيع القادمة، قائلا لها في كلمات حازمة: - "أنجلينا هذه هي الأدوية التي سوف يحتاجها في الأيام القادمة؛ اعتقد أنه جائع الآن بشكل فظيع، هذه هي الأطعمة التي سوف يتناولها طوال فترة النقاهة.

وكان ينظر إليّ مؤكدا أنني بالتأكيد جائع جدا على ما أبدو، عندما نظرت إلى "أنجلينا" إنني بالفعل جائع جدا، قائلا في كلمات لاتخلو من المرح، من رجل رجع من غياهب الموت:

"أنا جائع جدا من الممكن أن آكلك أنتِ".

كان إحساسي بالجوع لايتصوره أحد، على الرغم من حالتي التي كانت تتمثل في الدوار الخفيف، ولكنني كنت أدرك ما أقوله، من الممكن أن أكله هو بذاته، كانت ضحكات قصيرة وبعضها عاليا، ولكنها كانت عودة للحياة مرة أخرى، ونوع من الألفة التي لم أعتاد عليها في خلال السنوات الثلاث العجاف، إلا مع "الجنرال" لو أخبرته على ماحدث ليّ لن يصدق! إنني أفتقده بشدة. إنها حكايات تحدث فقط في الأفلام، وليس لها و اقع في الحياة، ولكن الحياة أغرب من أي أفلام سينمائية، تحدث الو اقع دائما أغرب من الخيال، و أقرب من الخيال من كتابات أي كاتب في الدنيا.

انقطع استرسالي في أحلام اليقظة، وأن انتبه الي آخر كلمات الطبيب وهو يتركني بعد أن اطمأن تماما علي حالتي المرضية، إنه سوف يمر مرة أخرى قبل نهاية الأسبوع؛ حتى يرى مدى التئام الجروح، و أنه لايتوقع أي مضاعفات، وإن حدثت أن أبلغه فورا، وهو يهم بالخروج كان قد أعطى الوصفة الطبية إلى "تريسا" لكي تحضر هذه الأدوية على وجه السرعة، ثم نظر نظرة مقتضبة إلى "السجان" أن تحضر غداء محترماً، وأن يكون مسلوقاً وجيد الطهي، قائلا لها في أمر قاطع:

"خضار مسلوق جيد الطهي، مع قطعة من اللحم الناضج جدا".

أرى أنه لايحب هذه السيدة، ربما من تسلطها، أو ربما من عنفها غير المبرر لا أعلم على وجه التحديد؟ لقد تركني مع "أنجلينا" وهي تنظر نظرات الشاكرة على الأقل إنني لم أمت في سريرها قائلة لي في همس ورقة بالغة:

"الحمد للرب إنك لم تمت؛ كنت لن أسامح نفسي على ما فعلته".

وكأنني أريد أن أسألها مرة أخرى من أنتِ؟ ولكن السؤال أبى أن يخرج من حلقي؛ ووضعت أصبعها على فمي؛ حتى لا أتكلم كثيرا بناء على أوامر "كارلو" أن أرتاح كثيرا، كان صمتها يثير فيّ أحاسيس لم أختبرها إلا مع نوال قائلة لي:

"عليك أن ترتاح كثيرا؛ سوف نتكلم في وقت لاحق؛ لك في رقبتي دين كبير".

كنت أريد أن اتحدث كثيرا، ولكنها لم تترك لي مجالاً كي أتحدث؛ سوف نتحدث كثيرا في الأيام القادمة، عليك أن تصمت الآن؛ لأن الدين في رقبتي لك كبير وكثير، عليك أن تنتظر وبعد ذلك "اسأل تجب"، كان وقع الكلمات كأنه السحر الملقى على عقلي؛ لقد عقد لساني عن الكلام، وهي تنظر إليّ بهذه النظرات التي امتلأت بالغموض، وأن أنظر إلى كيوبيد في السقف، وحبيبته "باسيكي" الماثلة أمامي.

الألفية الجديدة

(٣)

"تقلق المرأة على المستقبل حتى تجد زوجاً، ولايقلق الرجل على المستقبل إلا بعد أن يجد زوجته" برناردشو

نوفمبر ١٩٩٩

ثلاثة أسابيع أكثر من رائعة؛ لم يتركني أحد منهم وحيدا، بل دائما كانوا حولي؛ أحاطوني برعاية، وخاصة من "أنجلينا" التي هي تقريبا معي طوال الوقت؛ كان عملها تقريبا يتم في المنزل في غرفة مكتبها التي هي أيضا ليست ببعيدة عن غرفة نومها، التي تخلت عنها طوال هذه المدة، بل اتخذت غرفة لأخرى مقرا لها؛ كانت حريصة على تناولي الأدوية في مواعيدها المحددة، التي وصفها "كارلو الصغير".

كان إشرافها على كل كبيرة وصغيرة تخصني، تصيب من حولها بالجنون؛ كانت تصرخ في "تريسا" عندما تتأخر أي من الوجبات الثلاث عن موعدها المحدد؛ كانت تجلس بجواري بالساعات حتى يغلبها النوم، فتستلقي على الكرسي بجواري، وأنا أحاول أن أثنيها عن هذا الفعل. كانت تأبى آلاتتحرك حتى تراني أنام.

كنا نتحدث كثيرا، ونضحك كثيرا، وكان في بعض الأحيان يصيبنا نوع من الوجوم بدون سبب، سرعان مانرجع إلى الحالة الأولي بدون سبب أيضا. جلسنا طويلا أمام التلفاز نتابع الانتخابات الأميريكية يوم الثلاثاء العظيم، والنتائج التي توالت سريعا في صباح يوم الأربعاء بفوز "جورج بوش الابن" كانت فرحة، ما بعدها فرحة. كانت ترقص في الغرفة وهي تمطرني بقبلات، كانت مثل الطفلة الصغيرة، لقد خرجت بعفوية تحسد عليها، وهي تصرخ فيّ أن

مسعى الجمهوريين قد تكلل بالنجاح، وقد وصلوا إلى المكتب البيضاوي في ١٦٠٠ شارع بنسلفانيا في ساحة لافاييت لمدة أربع سنوات؛ لقد سألتها عدة مرات ماهمك في فوز الحمار أو الفيل؟ كان ردها فيه شيء من الذكاء. "أنا لا يهمني فوز هذا، أو ذاك، أنا ما يهمني مع من تزدهر أعمالي؟" رأس المال بالتأكيد لايعرف حماراً أو فيلا، ولكن يعرف أرباحك في البنوك كم بلغت هذا العام، وحق المساهمين هذا مايهم".

رأس المال لايعرف عواطف ولايرتبط بدين، ولايعترف بعمر، ولايرتبط بأرض، إنه في النهاية مال يبحث عن الزيادة، وهذه هي الرأسمالية؛ المال لايعرف المبادئ! كان سؤالها ليّ فيه شئ من الحقيقة المرة، أتظن أن حاكم البيت الأبيض يهتم بشؤون الشرق الأوسط أو أي شرق؟ إنها مصالح ياعزيزي، ليس إلا وعندما تسوء الأمور، يعدها الساسة أضراراً ثانوية! ولا حتى المواطن الأميركي لايهمه مايحدث في الشرق الأدنى، كل مايهمه هو ما يجنيه في السنة ومنزله الجيد، والرعايةالصحية، وخاصة الأسنان، وأولاده يتلقون تعليماً جيداً. وأهم من هذا كله كما يقول الأميريكون: "لايوجد شيء حتمي في الدنيا إلا الضر ائب" قائلة ليّ بعد هذه المقدمة الطويلة في كلمات يملأها السخرية:

"الحقيقة المفجعة أن بعض الأميريكين لايعرفون عدد الولايات المتحدة الأميريكية ولا أسماءها في بعض الأحيان".

لقد قارب الليل على إسدال أستاره؛ كنت في شبه غيبوبة، بعد أن زارني الطبيب "كارلو الصغير" كان حريصا على إعطائي حقنة لكي تسرع من التئام الجرح الذي قارب على الشفاء التام.

كان دخول "أنجلينا" بعد أن انصرف الدكتور تاركا مريضه على وشك النوم، واطمأن من "تريسا" على مواعيد الأدوية و انتظامها، أخبرته أن كل شيء

ينفذ طبقا لتعليماته، حتى إنها اشتكت من ربة المنزل؛ بسبب صراخها المستمر، أن أبطئ أحد في تنفيذ تعليماته أخبرته في ضيق:

"إنها تغضب عندما نتأخر عن تقديم الوجبات الثلاث؛ وتثور بشكل غير طبيعي، إنها ليست على حالها منذ قدومه"

كان الطبيب "كارلو" يربت على كتفها بألا تحزن، ولاتبتئس، سوف يزول كل هذا سريعا مع إتمام شفائي، قائلا لها في حنان واضح:

"لاتقلقي سوف يزول هذا عما قريب".

كان دخولها في هدوء، وهي تنظر إليّ هل هي شفقة؟ أم هي نوع من العشرة التي تعودت عليها، لا أعلم بالتحديد؟ كان دخولها على أطراف أصابعها، وهي تحاول أن تطفئ "الأباجوار" المضاءة التي بجانبي، عندما سقطت أغراضي من على "الكمومود"، كان من ضمنها محفظة جلدية، كانت هدية من "نوال" من خان الخليلي، كان عليها من رسومات العجلة الحربية "لرمسيس الثاني" كانت من الجلد الطبيعي، عندها ظهرت صورتها التي خرجت من قلب المحفظة، وهي تنظر إلى هذه الفتاة بعيون حاسدة؛ كان هناك نوع من الغيرة، عندما أخذتها من بين أصابعها وهي تنظر إليها مليا، والتساؤل يكاد يقتلها من هذه التي أطلت بوجهها عليَّ في هذا الوقت من الليل؟ لقد استفقت علي الحركة التي بجواري، وهي تراني قد استيقظت على سقوط المحفظة، وأنا أراها وهي تمسك بالصورة من بين أطرافها؛ كان هناك إحراج لها؛ وهي تعتذرلي، إنها لم تقصد أن تعبث في أغراضي قائلة لي في كلمات تحمل الاعتذار، ولكنها كانت تحمل علامات الغيرة:

"أنا لا أقصد أن أعبث في أغراضك؛ لكنها تبدو شخصية عزيزة علي نفسك جدا".

لم أعطها الفرصة لكي تسترسل فيما تقوله. لم أمهلها أن تكمل، إنها قصة قديمة لم يرض لها القدر أن تكتمل قبل أن آتي إلى أمريكا قائلا لها في كلمات رقيقة:

"إنها قصة قديمة".

كان ردها: لكن من يحتفظ بصورة حبيبته في محفظته، فهو حب لايريد أن يتخلى عنه، ويريده أن يكتمل. مازالت كلماتها تحمل عبارات الغيرة نفسها وتحاول أن تخفها:

"لاتبدو ليّ إنها قصة قديمة؛ هذا أمر لايخصني في شيء".

لقد نسيت بالفعل، ولكن الصورة تثبت عكس ذلك تماماً؛ ربما لم يسعفنِ الوقت على نسيان هذه القصة، أنا أحاول أن أنسى هذا الحب؛ وهي بالتأكيد قد نسيت أو على الأقل قد تزوجت قائلا لها في عبارة ليس لها معنى:

"إنني أحاول أن أنسى؛ ربما تكون قد تزوجت الآن".

كان كلماتها مازالت تحمل الكثير من الغيرة، ولكنها لم تفصح عنها عندما قالت ليّ:

"لك ذوق رفيع في النساء".

لقد استرسلت في الكلمات، وهي توضح في عبارات لاتخلو من الغيرة والحسرة على من يحاول أن يترك حلم عمره، أو حب عمره قائلة لي:

"نسيان أمور الحب من الصعب القيام بها".

ولكن النسيان في قصص الحب ليس بشيء وارد، بل هو صعب الحدوث، خصوصا لو أنه كان حباً صادقاً، حتى وإن انتهي بالزواج من شخص آخر. التفكير في شخص آخر وليس بزوجك فهو خيانة.

الخيانة فعل فكري وجسدي، أما الحب فهو التقاء روحين بدون الوقوع في غواية الشيطان. هذا الحب مستحيل لا وجود له! المستحيل آلا تحب،

والخطيئة الكبرى أن تنسى قصة حبك!. أما الخيانة: أن تحب بدون أن تقول لها: إنني أحبك. التاريخ ينسى دائما الحب الذي لايكتمل، كانت ترد الصورة مرة أخرى إلى المحفظة قائلا لها في ثقة:

"أرجوك آلا ترجعيها إلى المحفظة".

عندما أمسكت بيدها، وهززت رأسي بآلا تفعل، وأن تأخذ هذه الصورة بعيدا عن المحفظة؛ كانت سعيدة، وهي تبتسم ابتسامة عريضة، ظهرت فيها ثنايا أسنانها البيضاء، كان الوجه قد ازداد احمراراً.

تعددت الزيارات من "فرانسيكا" التي تحدثت كثيرا عن نفسها، والأيام التي سبقت هجرتها مع "أوجستين الموقر"، وعندما تذكر "ألكسندر الكبير" كانت تبتسم، بما تحمله من ذكريات لا تنساها؛ ولاتنسى "أنجلينا" التي تعتبرها نسخة مصغرة منها، ولكنها أكثر تطورا منها على حد تعبيرها قائلة لي في كلمات:

"إنها كانت أيام تحمل كثيراً من الشجن والفرح القليل. لكن أيام "انجي" لها رونق آخر".

كانت تعني أن أيام "أنجي" ليس لها مثيل منذ قدومي في حياتها؛ تحدثنا عن كل شيء عن مصر والأهرامات، وكم كانت تتمنى أن تزور مصر بعد أن رأت الممثل الشهير، وهو يمثل أمام الممثلة الايطالية الشهيرة، كم كانت تستمتع بتمثيلة قائلة لي في كلمات تملأها الحماسة:

"إنه ممثل رائع عندما مثل مع "صوفي".

كان الحديث لاينتهي، كانت لاتتعب من الكلام الشيق الذي ليس فيه أي نوع من الملل حتى وإن حضرت "أنجلينا" بجوارها لتكملة الحديث، كان حديثاً مسترسلاً دائما، لا يخلو من تذكرة ماحدث مع حفيدتها، و أنا أحاول أن أصف لها عند إغماء صديقتها ونومها على الأرض، كانوا لايكفون عن الضحك؛ عندما أذكر هذه الحادثة.

لقد كان المشي في الحديقة المركزية: متعة مابعدها متعة، بعد أن سمح الطبيب لي بالمشي لمدة نصف ساعة يوميا، كانت تصطحبني في سيارتها إلى أقرب مكان لانتظار السيارات، و اتكأ علي عصا من الأبنوس الأسود، كانت هدية من "فر انسيسكا" لي.

كدت أرفض هذه الهدية، ولكن هاتين العينين الساحرتين قد أسكتا ما كنت أقوله، إنني بالتأكيد محظوظ أن ألقي كل هذه الرعاية. لقد أغدقت عليّ بأشياء كثيرة، منها ملابس كثيرة لم أر في حياتي هذا الكم من الملابس، وأعترف أنها كلها أصلية؛ بمعني آخر إنها ملابس غالية الثمن، لا أقدر على دفع ثمنها بثمانية دولارت في الساعة؛ كانت تمشي معي ونحن نتحدث أيضا عن الأصدقاء وأهلي، وما الذي أطمح إليه قائلا لها في كلمات ممتلئة بالأمل:

"أنا أحلم بالكثير في الوقت القادم؛ تحقيق أحلامي التي لم تبدأ بعد".

كنت أريد أن أبوح لها بما هو أكثر من ذلك؛ كان حديثي منصبا دائما على: ما الذي من الممكن أن أفعله؟ كانت هناك أحلام كثيرة، ومشاريع كبيرة. ولكن كان هناك سؤال لم تسأله بعد وماذا بعد العمل والمشاريع؟ هل لك أحلام أخرى؟ قالت لي في كلمات بعيدة عن الصراحة:

"هل هناك أحلام أخرى تريد أن تحققها؟"

في حقيقة الأمر لقد التزمت الصمت؟ لم أستطع البوح بما يدور في عقلي: خوفا من الصدود والردود الصادمة: إنني بالنسبة لها ليس إلا شخص تعيس، قد صادف وجوده في حياتها بدون سابق إنذار؛ من أنا حتى أتمنى أن تكون هي زوجتي أو حبيبتي؟ لم أجب بل كان صمتاً مطبقاً.

حدث لي العارض الأكبر الذي غير كل شيء في حياتي؛ لقد أصبت ببرد شديد: كاد أن يخلع ضلوعي؛ لقد حاولت معي بكل المسكنات المتوفرة عندها، ولكن لا جدوى فيما تفعله.

لقد حاولت أن تتصل بالطبيب الذي كان للأسف خارج نيويورك، ولكنه أعطاها بعض النصائح أن أبقي في سرير دافئ، وأن تحاول أن تعطيني من المشروبات التي تجعلني دافئ الجسد؛ كان أقرب شيء لها الويسكي، لقد دفعت بكأس، ثم بآخر. ولكن البرد قد تملكني بشدة؛ حتى كان رد فعل غير متوقع، عندما انزلقت بجسدها العاري إلى جواري، وهي تحتضن هذا الجسد الذي كان يرتعش بقوة، الذي أكسبني دفء جسدها في هذا الجو البارد.

لقد بلغت بها الإثارة؛ حتى أدركنا الصباح، وهي تحتضن هذا الجسد الذي سكن تماما من الحمى العارضة. ومن حسن الحظ، ومن سوء الطالع: أن "السجان" والخادمة الجامايكية "تريسا" في الإجازة الأسبوعية لهما.

كانت تنظر إليّ بنظرات لا أعرفهاّ هل هي سعيدة بما فعلته؟ أم هي نادمة على فعلتها؟ كان لايبدو عليها إنها لم تندم، بل كانت سعيدة. لقد التقي الجسدان عدة مرات. بعد ذلك علمت الآن ما معني رجل وامرأة في حميمية الجسد الواحد.

كان العرض غريبا، ولكنه مفرح في الوقت نفسه وهي تعرض علي الارتباط بها. كان غير مألوف، لم تعطي لي أي فرصة حتى أتحدث. كان نوعاً من العروض غير قابلة للتفاوض! قائلة لي في كلمات هامسة:

"أتتزوجني؟".

هل أخطأت في سماع ما تقوله؟ أم هي الحقيقة؟ أتعرض عليّ الزواج؟ أم إنني أحلم؟

كانت النظرات الحانية قد تحولت إلى خوف خفي، حتى لاتصدم في رفضي لها، وكيف هذا؟ و أنا رجل شرقي، إن هذه المبادرة يجب أن تأتي مني! أن أبدأ أنا بالمبادرة. أن أعرض عليها الارتباط بي، وأن تتمانع كنوع من الدلال، ولكنها لم تفعل، بل هي من بادرت بهذا؛ كانت طريقة في العرض لا أستطيع أن أرفض،

كانت تنتظر، و أنا لم أتردد في القبول؛ كنت أحاول أن أخبرها أنه عليّ أن أقوم بهذه الخطوة، وليست هي! قائلا لها كنوع من التعويض لها في عدم الاستجابة الفورية لطلبها:

"كان من المفروض أن أقوم أنا بالتقدم إليكِ، ولكنك سبقتيني".

كان هذا الرد تعويضا لها؛ أن أعرض وهي ترفض، وعليها أن تقبل في الآخر. ولماذا أنا من تريد الزواج بي؟ أنا ليس هذا الرجل النادر! بل أنا أقل من العادي، قائلا لها في كلمات تحمل معاني الاستفهام:

"أنا إنسان عادي؛ ليست ليّ مواصفات خاصة".

كانت على عكسي تماما، لقد رأيت فيك من الخصال التي تتمناها أي سيدة في العالم، هو الارتباط بك على كل الأحوال، ليس فقط ما قد قمت به من قبل، فقد عرضت حياتك للخطر من أجلي، بل وجدت من الصفات التي تحملها على الارتباط بك بدون أدني تردد، وهو الطموح الذي رأته فيّ؛ لأنها على حد قولها: إنها تحب الرجل الطامح إلى الأعلى، ويبحث عن ذاته. هذه الكلمات السحرية التي تحفز الحجر، قائلة ليّ في كلمات تحمل معاني كثيرة ليّ:

"من قال لك هذا؟ إنسان شهم مثلك، و أيضا لك أحلام وطموح، ليس بإنسان خامل، صفات يحسدك عليها الرجال، وتتمناها النساء في أزواجهم أو في أصدقائهم".

السؤال الذي برز في رأسي على الفور، وبدون تردد هو التالي: "وهل تريدين الارتباط بشخص عاطل عن العمل؟ كان الرد سريعا. ومن قال لك إنك عاطل عن العمل. إنك تعمل في شركة المطاعم الإيطالية "مجموعة أليسندرو" منذ اليوم الأول من إصابتك، وهذه هي تعليمات "فر انكا"، وليست تعليماتي، كانت تعليمات محددة، وعلى الكل أن يطيع حتى وإن كان أبي "ألكسندر الصغير"، رئيس مجلس الإدارة قائلة لي في كلمات مريحة ومشجعة:

"من قال لك إنك عاطل وبدون عمل؟ إنك تعمل في المجموعة، ولك راتب ثابت".

لقد قامت "أنجي" بإبلاغ "فرانكا" إنني قد فقدت عملي في الفندق بسببها؛ بعد أن تغيبت عن العمل. كانت تعليمات "فرانكا" إلى قسم الموارد البشرية بتوظيفي على الفور في المجموعة، مقابل مرتب شهري من يوم إصابتي بالطلق الناري. كانت "انجلينا" تتحدث في منتهى الحماسة بشأن المستقبل، في كلمات تحمل كثيراً من الأمل لي قائلة لي:

"إنك أصبحت ذا شأن الآن في المجموعة، ولك معنا مستقبل باهر، ولكن عليك الاجتهاد".

لقد تم كل شيء في أثناء رقودك لمدة الثلاثة أسابيع الأولى؛ ولك أن تعلم، لقد حاولت أن أشرح لمديرك الألماني النكد، ولكنها كانت ردوده باردة مثل قلبه! وبصلف هتلر بذاته لم يتغير

"لقد تم تعيين آخر".

كانت تقلد هتلر في وقفته، وهي تضع نصف أصبعها على أعلى الشفاة تمثيلا لشاربه النصفي، وترفع يده اليمني بعلامة هتلر النازية، كان شكلها مضحكاً قائلة لي في كلمات تمثيلية ضاحكة:

"إن مديرك نكد ويشبه هتلر".

أنا السبب في كل ماجرى لك، في خلال الشهر الماضي، ولكن تعلم أن زواجي بك ليس على سبيل الشفقة أو العطف، بل حب امرأة لرجل، و أيضا لرجل طموح.

كان حديثها يثلج القلب، ويمنع عني الهواجس التي جاءت في قلبي قبل عقلي، أن يكون هذا نوعا من العطف أو التعويض. ولكن جاء الحديث خلافاً لذلك، وهذا ماجعلني أن أبادرها و أقول: علي أن أقوم بهذه الخطوة، وأن أطلبها من

والدها، وهو بالتأكيد لن يمانع على حد قولها، وهذه هي الخطوة التي يقبلها أي أب في الدنيا. كان لها رأي مخالف لهذا.

إن هذا الأمر يخصها وحدها، وإن كنت أصر على هذا الأمر؛ أن أطلبها من جدتها "فرانسيسكا" وهي سوف تقنع والدها. كان هناك حل وسط، هو أن التقي بالأسرة في منزل "فرانسيسكا"، وأن أعرض عليهم الأمر، كان هذا حلا وسطا. ولكنها عجلتني بسؤال سريع:

"إنه يجب أن نبدأ في إجراءات الزواج قبل الأعياد، وأن يكون زواجنا في دار البلدية قبل الحادي والثلاثين من هذا الشهر، وأن نكون في بيتنا مع بداية الألفية الجديدة".

كنت أنظر على أن هذا الوقت قصير جدا، لكي نبحث عن منزل لنا، أو ندبر أمور الزواج. كان لها رأى آخر.

ولماذا كل هذه التعقيدات؟ ولماذا هذا التأخير؟ وكل شيء ميسر. الشقة في أفخم مكان في نيويورك، وملابس الزواج أن نقوم بذلك في الغد، والإجراءات المدنية لن تأخذ وقتا، ولكن علينا أن نكون في دار البلدية في آخر يوم في السنة قبل الظهر.

كان كل شيء مرتبا في رأسها، تحسد على هذا التنظيم. كان هناك خطأ ما؛ ولكن ما كانت تقوله؛ جعلني مغيبا، كنت سارحا قليلا، و أنا أنظر إليها بنظرات فاحصة. متسائلاً لماذا هذه العجلة؟ وأمامنا العمر كله؟ كان هناك إصرار واضح منها على إتمام أمر الزواج في أقرب وقت، كانت محاولة أخيرة مني: أن نؤجل أمر الزواج قليلا، قائلا لها في كلمات تحمل التريث:

"لماذا العجلة في أمر زواجنا؟"

كان ردها مفحماً ليّ قائلة لي في عبارات محددة:

"خير البر عاجله؛ علينا آلا ننتظر"

الانتظار للحصول على لحظات السعادة أمر نادر؛ السعادة تحسب بالثوانٍ، وليس بالأيام والسنين، ولماذا تريد أن تضيع هذه الثواني؛ إنها تحسب علينا بمجرد عدم انتهاز فرص السعادة التي هي قليلة. بالتأكيد كانت عبارتها التالية أكثر تأثيرا:

"إن العمر يسرق منا بدون سابق إنذار، والانتظار يقتل الحب، وماتعيشه اليوم لن تعيشه غدا، فلماذا الانتظار؟".

"كانت أكثر إقناعا مني، حتى تمنيت أن يكون الزواج الآن".

كان اللقاء مفعما بالحرارة والدفء، شيء لم أتعود عليه من قبل، هو ألفة العائلة التي افتقدتها كثيرا خلال السنوات الماضية، كان الحديثا من القلب؛ بعد أن علم الأب "ألكسندر الصغير" بما حدث لابنته من قبل؛ كان ينصت ولايصدق مايسمعه، وينظر إلى أمه "فرانسيسكا" معاتبا: لماذا أغفلت عنه ماتمر به ابنته؟ قائلا لها في كلمات معاتبا "لفرانسيسكا":

"كل هذا يحدث يا أمي ولا أعلم عنه شيئا؟ كيف هذا؟"

لماذا لم تخبره بما حدث؟ حت يكون هناك تصرف آخر مع "كارلوتشي السفاح" أو غيره؛ كان يتفحصني وهو جالس على كرسيه الوثير بجوار المدفأة التي اشتعلت بنيران أضفت على الجو نوعاً من الدفء.

بعد الانتهاء من العشاء في منزل "فرانسيسكا" والذي كان منزلها خارج نيويورك. كان في الضواحي، كانت دائما تتحدث عن الهدوء والسكينة. كان منزلها فيه الرقي والبساطة، وقليل ماتجد هذا النوع من المنازل، وتجد أيضا الدفء العائلي. كان المنزل ليس مثل المنازل الأخرى يتسم بالبرودة، سواء في المشاعر أو دفء البيت. كانت هناك أيقونات كثيرة تزين حوائط المنزل، إنها أيقونات تخص بعض القديسين أو القساوسة لا أعلم على وجه التحديد، وفي أعلى المدفأة صور كثيرة في إطارات معدنية، ربما لأفراد

العائلة، ولكن معظمها في اللونين الأبيض والأسود وبعض الصور الملونة، ولكن كان هناك بالتحديد صور لها وضعية خاصة، قد أخذت مكانها في صدر المنزل، على طاولة من خشب الأرو، والمطعمة بقطع من العاج الأبيض.

لقد كنت أبحث عن تفاصيل لهذه العائلة، عندما التقت العيون على وجه "ألكسندر الصغير" والد العروس، وهو ينظر إليّ بنظرات تحمل بعض علامات الشك والريبة؛ من هذا الغريب الذي غزا قلب ابنته بدون سابق معرفة؟ سوى أن الظروف قد وضعته في هذا الموقف؛ كان يبحث عن فرصة أفضل لابنته، وهناك الكثيرون الذين قد يطلبون ودها، ولكن كان اختيار ابنته التي قد ارتاحت إلى هذا الغريب.

كانت نظراته فيها شيء من الغموض، وهو يدخن السيجار الفخم، وكأس من "الكونياك" الرائحة كانت نفاذة؛ لقد انتهز الفرصة لكي يحدثني قليلا عن بدايته في بناء هذه السلسلة من المطاعم، وكان الفضل في هذا هو المثابرة والاجتهاد، وبمساعدة أمه "فرانسيسكا" في إنشاء هذا الاسم الرنان الآن في عالم المطاعم. قائلا ليّ في كلمات تعبر عن مدى تعبه في بناء هذه المؤسسة بشئ من الفخر:

"بناء هذا الصرح قد أخذ منا التعب والعرق والمعاناة، ونحن لسنا على استعداد لفقدان هذا الصرح، ونحارب أي أحد يسعي لهدمنا".

كانت كلمات قوية تحدد مساراً جيدا، أو أي انسان يفكر في الارتباط بعائلة "أليسندرو"؛ "ألكسندر الصغير" لم يتوقف عن تحديد ماهية هذه الشخصية التي تجلس أمامه الآن، كان يحاول بقدر الإمكان السبر في أغواري؛ حتى يعرف ما أنتويه؟ كان يعلم كل شيء من خلال أعوانه الذين جمعوا كل شيء عني. من خلال عملي ومحل سكني، ولقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما سألوا عني "الجنرال". لقد هلع قبل الإجابة عليهم في أي من الأسئلة، كان

حريصاً أشد الحرص على الإدلاء بمعلومات مضللة قبل أن يعلم أن من يسأل هم أشخاص عاديون، ولذلك أعطاهم معلومات صحيحة، بعد أن علم أنني على وشك الزواج من إحدى العائلات المشهورة في نيويورك، وعليهم أن يتأكدوا أن هذا الشخص جدير بابنتهم. كان هذا ما أثلج صدره، وجعله فرحا جدا رغم غيابه عنه منذ فترة طويلة.

كانت الأسئلة كثيرة كانت تدور حول مستقبلي، ومستقبل ابنته "أنجلينا" فهو يرى أنها أيقونة هذه العائلة؛ بما تملكه من تعليم وملكات لإدارة أي نوع من الأعمال.

كان السؤال التالي مغلفاً في شيء من القلق:

"ما الذي سوف أفعله حتى أحقق لها هذا المستوى من الحياة الرغدة؟"

كان السؤال فيه نوع من الإحراج، ولكن إجابته بكل الصدق، ربما لن نكون في هذا المستوى الذي تحياه الآن، ولكن سوف أبذل كل ما في جهدي حتى أحقق لها جزءاً ليس بالصغير من هذه الحياة الرغدة. سوف أبدا بأي تحدي يقترحه؛ حتى أحوذ على ثقته فيّ.

إنني لا أبحث عن الثروة من خلال زواجي من ابنته؛ ليس لأنني إنسان وصولي، ولكني إنسان طموح أبني نفسي بنفسي، ربما أحتاج في البداية من يأخذني إلى الطريق، ثم تكون الانطلاقة بعد ذلك. كان هذا نوعاً من الحافز الإيجابي، يبحث عنه في زوج ابنته القادم، كادت نظرات الشك والريبة أن تختفي.

كانت نظرات "فر انسيسكا" تحوي علامات الثقة في اختيار حفيدتها؛ بأن الاختيار صحيح، و إنني أستحق أن أكون زوج "أنجلينا" لقد سوت الأمور مع "روبرتو كارلوتشي السفاح" بعد أن اجتمع الأب "فر انسيس" به في منزلها.

كان اللقاء هادئا، وعلى قدر من المسؤولية، كان اللقاء محاطاً بالحرس المدججين بالسلاح، و أيضا وجود الحارس الشخصي له، الذي لم يفارقه طوال مدة تناوله للطعام. لم تنقطع الأسئلة خلال فترة تناوله للطعام عن أحوال "كاراكلا"، وعن أحوال "إنجلينو" وما الذي يفعله في كندا إلى الآن. عليه أن يعود حتى يساعد أخاه، وإلى هذه الأسئلة التي كانت تبين لي أنه واحد من العائلة، وهذا غير صحيح على الإطلاق. كان فمه محشواً بقطع من الطعام التي تقريبا قد سد بلعومه قائلا في صوت متحشرج:

"أليس حان الوقت إلى أن يأتي أنجلينو لمساعدة أخيه في إدارة المؤسسة".

الحديث كان مثقلاً بما يمضغه من طعام؛ كان يتناول العشاء في هدوء في منزلها، بعد أن تناول عدة كؤوس من النبيذ، وبعض الأطباق التي اشتهرت بها. لقد أثنى على الأطعمة التي قدمتها قائلا "لفرانسيسكا" في كلمات تثير الإعجاب:

"إنك تذكريني بالأيام الجميلة في زيارتي إلى أرض الوطن، عندما تجتمع العائلة على طاولة الطعام في أيام الآحاد، ويتذكرها أبي جيدا يالها من أيام جميلة".

كان حديث "السفاح" يثير "فرانسيسكا" بالغثيان، ولكن عليها أن تستحمل هذا الشخص البغيض؛ حتى تضع حدا لهذه المهاترات التي تحدث، وإلا الأمر سوف ينتهي إلى مأساة قائلة له:

"ماحدث من ابنك لايرضاه أحد؛ لقد كان يقصد "أنجي" بهذه الطلقات النارية؛ ولكنها الآن استقرت في صدرغريب، راقد الآن بين الحياة والموت".

كانت تعني ماتقوله لقد حاول حفيده أن يتقرب من حفيدتها، التي كانت ترفض هذه العلاقة، ولكنه تمادي في الأمر، وكلف "بنزرتيني" القاتل

الصامت: بقتل "أنجي" بدم بارد في جراج الفندق؛ وحدثته بما فعله ابنه مع حفيدتها، وتهديدها لها. وكانت النتيجة من وراء هذا العمل أن هناك جسدا لغريب راقد الآن، مابين الحياة والموت، وهو أقرب إلى الموت، ويجب على ابنه أن يخجل فيما يفعله؛ لأن الزواج في هذه الحالة سوف ينتهي بمأساة ضروري؛ كانت كلمات الأب "فرانسيس" حازمة. وفي الوقت نفسه مغلفة بالعقلانية المفرطة.

إن هذه الزيجة ليست في صالح كارلوتشي السفاح؛ لأن ارتباطه بعائلة أليسندرو وظهوره على المستوى الاجتماعي: سوف يؤدي إلى تصاعد الأسئلة ليس على المستوى الاجتماعي فقط، ولكن على مستويات أخرى، هو في غني عنها، قائلا له في كلمات حازمة:

"زواج أنشيلوتي من أنجي الآن سوف يفتح أبواب تساؤلات أنت في غني عنها الآن، وسوف تضر أكثر مما تنفع! فهذه الزيجة لن تنفع".

كانت كلمات في الصميم جعلت "روبرتو كارلوتشي السفاح" ينظر مليا في كأسه الذي قارب على الانتهاء، إن مايقوله "الأب فرانسيس" صحيح. عليه أن ينصح ابنه أن يتوارى قليلا عن الأنظار في هذه الحالة؛ وخاصة عند ذكر "مستويات أخرى" الأب فرانسيس يعنيها.

لقد زادت المتاعب مع بنزرتيني القاتل الصامت؛ بسبب تصرفاته غير المسؤولة، وخاصة مع أبناء جلدته، عندما علم بما حدث من القاتل الصامت، بإيعاز من ابنه أنشيلوتي الذي كاد أن يقتل "أنجلينا" بدم بارد، لولا ستر القدر؛ لكان الأمر الآن تحول إلى شلالات من الدم، بعد أن عرف أن هناك صلات قوية لعم "أنجلينا" في دوائر الحكم في "واشنطن"، بعد توقيعه لعقود مع وزارة الدفاع "البنتاجون" لصالح الحكومة الكندية. عليه أن يكون أكثر حرصا؛ لأن عائلة "أليسندرو" قد أصبح لها قدر كبير من المصالح مع

الحكومة الأميريكية، وأيضا أصبحوا إحدى العائلات وممولي الحملات الانتخابية للرئيس القادم.

الموضوع أصبح على المحك، ومن الخطر وضع الحمار أمام القطار في الوقت الحالي عليه أن يتوارى قليلا، وأن يبتعد عن "فرانسيسكا"؛ لأن هذا سوف يفتح أبواب جهنم عليهم في هذا الوقت من السنة، مع قرب الانتخابات الرئاسية. والوقت ليس في الصالح؛ لأن دائرة أعمالهم في "لاس فيجاس" سوف تتأثر بعد معرفة أن هناك اتجاها في الإدارة الجديدة بزيادة الضرائب الرأسمالية على الأعمال، ومن الممكن أن يتجه السوق إلى الكساد، أو على الأقل الركود، وليس هذا في الصالح في الوقت الحالي. عليه أن يرسل "أنشليوتي" إلى فرنسا لمتابعة أعمالهم هناك في "مونت كارلو". الأوضاع سوف تكون أفضل من نيويورك في الوقت الحالي وقد كان تم التخلص من "أنشليوتي".

كانت الجلسة أكثر من رائعة، عندما انتهت وطلبت مني "أنجلينا" أن أقضي الليلة في منزل جدتها، هناك متسع، وهناك غرف كثيرة؛ وإن "فرانسيسكا" لن تمانع في تمضية الليلة هنا قائلة لي وهي مقتربة مني في دلال:

"يمكنك أن تقضي الليلة هنا، المنزل كبير، وهناك الكثير من الغرف الخالية".

إنه بالفعل كما تقول: كان . فعلا . المنزل كبيرا، ولايقل روعة عن منزلها، وهناك الكثير من الغرف، ولكني رفضت هذا العرض؛ عليَّ أن أتصرف كرجل شرقي مسلم، لايصح أن يكون في منزل خطيبته بدون زواج؛ لقد دخلنا في حوار طويل بيننا:

- لايصح أن يبقي الخطيب في منزل خطيبته قبل الزفاف.

- هذا من الممكن أن يحدث في القاهرة، ولكنك الآن في أمريكا.

- أنا مسلم شرقي، سواء كنت في القاهرة أو أمريكا.

- أنت أمريكي الآن، و انقطعت صلتك بمصر منذ ثلاث سنوات.

- أنا مسلم مصري شرقي، ولم تنقطع صلتي بأرضي طوال هذه السنوات حتى لو هجرت إلى المريخ، ولن أغير تقاليدي أو عادتي. عليك أن تقبلي هذا مادمت اخترت الحياة معي.

كان في صوتي نوع من الحزم، حتى لا أخسر؛ وماكنت سوف أخسره هو الكثير، يكفي ماحدث في الماضي، وإحساسي بالندم بما فعلته؛ لقد انصاعت لهذا الأمر، الذي ربما هو غير مألوف، أو لم تتعود من أحد أن يرفض لها طلباً؛ لقد كنت حازماً، وربما هذا ما أسعد "ألكسندر الصغير" وهو يرى ابنته تغلق الباب من ورائها هي تستند بظهرها عليه وتنظر إلى أبيها في غيظ واضح، وهو كان يبتسم أنه أصبح لابنته رجل مسؤول، يعرف معنى المسؤولية، ليس مثل الآخرين الذين حاولوا إرضاءها لكي يحصلوا على أموالها إنه مختلف، وهذا ماأسعده.

١٤١ شارع ورث بدرجات السلم الرخامية، كان أكثر المباني بهجة في هذا اليوم المشمس على غير العادة. في هذا اليوم في آخر الألفية الثانية. آخر يوم في هذا الشهر البارد في مدينة نيويورك: تحول إلى يوم رائع؛ الكل كان متأنقاً في هذا اليوم المشهود، يوم زواجي من "أنجلينا" كانت الترتيبات على قدم وساق، بعد أن تعافيت بمدة قصيرة، وتخليت عن عصا الأبنوس؛ لقد أصاب الكل حمى التزين وشراء ملابس الزواج، على الرغم من نظرات "ألكسندر الصغير" الذي كان يتمني أن يكون الزواج من شاب إيطالي، أو حتى أمريكيا؛ حتى يتم الزواج في مراسم دينية وأن يعقد عقد الزواج قس، وأن يتم الزواج في كنيسة.

ولكن على الرغم من علامات الامتعاض على وجهه، إلا أنها اختفت بعد فترة، عندما نظر في عيون "أنجلينا" ووجد أنها في حالة سعادة عارمة؛ لأنها وجدت من يقف أمامها وأن يكون عاصيا عليها في الانصياع.

إنها كانت في احتياج إلى رجل يحتويها، وأن يقدر في السيطرة عليها، في نزواتها وتهورها على الرغم من أنها أكبر سنا، إلا إنها كانت تحس أمامي؛ بأنها طفلة صغيرة، تحتاج إلى رعاية دائما، لقد اتخذت القرار ولارجعة فيه. ولذلك لانت قسمات وجهه؛ عندما نظر إلى علامات السعادة على وجهها. الوصول إلى كاتب المدينة، لم أكن أتخيل أن يكون بهذه السهولة في آخر يوم من السنة من شهر ديسمبر. لقد تزينت الميادين والشوارع الرئيسة بالشرائط الملونة، ولمبات المصابيح. أيضا. الملونة.

كانت الشوارع في أجمل رونق لها، كانت تحتفل معنا بالزواج، الكل جاء إلى مبنى البلدية في أبهي الحلل؛ كنت في انتظار العروس على الدرجات الرخامية، أرتدي ملابس رسمية تم اختيارها من قبل أخواتها "مالديني وألبرتو".

لقد أحسنا اختيار ملابس الزواج؛ حتى الزهور تم اختيارها بعد جهد جهيد، حتى لقد اختارت الزهرة التي تزين العروة العلوية للحلة، كانت من اختيار العروس التي بذلت مجهوداً كبيراً في ترتيب أمور الزواج؛ لأنني لا أعلم عن ترتيبات الزواج المدني الكثير.

كان أكثر ما افتقده هو وجود الأهل والأصدقاء. كانت المكالمة طويلة بيني وبين أمي، لقد تجاوزت الساعة عندما أخبرتها بأمر زواجي. كانت كلمات التبارك ممزوجة بالدموع، لا أعلم لماذا هذه الدموع في أمر مفرح؟ عجيب أمرك أيها المصري؟ كان أكثر ما يحزنها أنها لاتستطيع القدوم إليَّ حتي تحضر زواجي! كان هذا أمل لها قائلة ليّ في عبارات مخنوقة من الدموع:

"أتتزوج و أنت بعيد عني؟ لك قلب لتفعل هذا الأمر؟

كادت العبارات تخنقني، و أنا أنصت لحديثها، لولا كان وعدي لها أنه في أقرب فرصة سوف نأتي إليها لكي نزورها، وربما نقيم حفلة عرس مرة أخرى في المعادي قائلا لها:

"صدقيني يا أمي، سوف نأتي إلى مصر، وربما نقيم حفلة عرس جديدة".

كانت مكالمة طويلة أصابتني بالشجون في يوم مبهج مثل هذا؛ لقد قصت هذا الأمر لزوجتي القادمة، لقد أصابها الحزن قليلا، ولكن بعدها قالت: "إننا ربما نذهب إلى القاهرة لزيارتها في أقرب وقت ممكن، قائلة لي في سعادة:

"في أقرب وقت سوف نزورها، ونزور مصر".

كان هذا ما يسعدني، إنها تفكر فيما يسعدني، ولا تألو جهدا في إدخال البهجة عليّ. كان هذا ما يؤرقني أن أمر المبادرة مازال في يديها هي، وليّ في هذا العذر.

لقد وصلت نزولا من سيارة قديمة التي تزينت بالورود من الخارج؛ ملابس الزفاف من قطعتين من الساتان الأبيض، و"الجيب" الأبيض يكاد يلامس الركبتين، وتمسك بزهور "الأروكيد البيضاء". كانت أكثر بهاء من أي أحد رأيته في حياتي. كانت تشع جمالا من وقت خروجها من السيارة المكشوفة في صحبة والدها، الذي كان بجواره وهو يتباطأ يدها، ومن ورائها ظهرت "فرانسيسكا" وصديقتها المقربة التي بمجرد رؤيتها قد استغرقت في ضحك طويل، ولقد تبادلنا الضحك عدة مرات، بمجرد تذكر حادثتها الشهيرة من سنوات قليلة؛ لقد سلمني "ألكسندر الصغير" زوجتي المقبلة، وهو يوصني برعايتها قائلا لي في كلمات رصينة:

"إنها زوجتك الآن، ولكنها ابنتي؛ حافظ عليها مثل ابنتك، قبل أن تكون زوجتك".

لقد أظهرت له أنها سوف تكون دائما تحت رعايتي، ولن أفرط في رعايتها، وكان هذا ما أثلج صدره، وأنا أرى ابتسامة كبيرة قد ارتسمت على وجهه. لقد استندت على يدي وعدسات التصوير خرجت خلالها من محترفي التصوير، الذين استأجرهم "ألكسندر الصغير" في التقاط الصور، وأيضا أعضاء الأسرة قد سحبوا الكاميرات الخاصة بهم؛ لالتقاط الصور للذكرى.

كانت "فرانكا" تمسك بيدي، وهي تعطيني علبة مخملية؛ كنت في دهشة لما تعطيني هذه العلبة الآن؟ لماذا لم تعطيني هذه العلبة إلا الآن؟ وفي هذا المكان؟ وكان هناك متسع من الوقت لها عندما كنت في منزل "أنجلينا"؟ لا أعلم على وجه التحديد لماذا الآن؟ "ارتقاء الدرجات الرخامية كان فيه شيء من التأني، لم يكن هناك مايستوجب السرعة.

كانت الضحكات تعلو، ووقوف المارة في إلقاء نظرة على الزوجين الجديدين: هو منظر من المعتاد أن يتكرر في هذا المكان، وفي هذا الوقت لقد مر الكثير على هذه الدرجات الرخامية حتى أصبح العد لا محل له من الإعراب. لقد وصلنا إلى الردهة المؤدية إلى كاتب المدينة، والكل قد اتخذ أماكن للجلوس؛ انتظاراً للانتهاء من مراسم الزواج التي تسبقنا؛ كان كل شيء دقيقاً ومرتباً؛ رخصة الزواج لم تستغرق أكثر من يوم، ويتبقى بعض الإجراءات الشكلية حتى إتمام عقد الزواج بشكل رسمي.

كانت والدة "أنجلينا" تجفف دموعها، كلما تتذكر أنه في القريب سوف تصبح جدة، كان هذا أكثر مايقلقها عجبا لهذه السيدة!!؛ "ألبرتو" و"مالديني" أكثر سعادة أن أختهما سوف تتزوج؛ لقد أحضر الاثنان صديقتهما لكي يشهدوا مراسم عقد الزواج في مبنى البلدية، كان يظهر عليهم

الفرح الشديد، ولقد وقفا بجانبي طوال فترة إعداد العرس؛ لقد أجبرتهما "أنجلينا" أن ينزلا بي إلى أفخم المحلات؛ لاختيار حُلتي، وكان لها ما أرادت.

لقد خرج العروسان الذين سبقونا. كان العريس من الصين، والعروس من الهند. يالها من تناقضات في بلاد التناقض، ولكن عجبا ولماذا هذه التناقضات؟ لأنها في الو اقع لن تحدث في أي مكان في الدنيا، إنها تحدث فقط في أمريكا هي قارة الانصهارات الثقافية واختلاط الأعراق؛ ولماذا التعجب أن ترى ثقافتين ليس لهما صلة ببعضهم البعض؛ وتمتزج هذه الثقافات في رباط آخر هو رباط الزواج.

كانوا أكثر سعادة، أن ترى هذا الرباط يمتزج بشدة، ويعطي لك نتاجاً غير الذي تتوقعه؛ لقد أتي دور دخولنا، كان أشبه بالمظاهرة؛ برز ترخيص الزواج، و أيضا بعض الأوراق الرسمية؛ كان كاتب البلدية يقف على منصة خشبية صغيرة، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة، وهو يرى الكل في سعادة مفرطة، وهو يهئ نفسه أن كل شيء سوف يكون على مايرام. إحساسه بمدى رضا الوالدين عن هذه الزيجة المختلطة، وهو ما جعله في أريحية واضحة.

كان هناك جلبة واضحة؛ عندما ظهر "أنجلينو" عم العروس على غير المتوقع، وهو يصيح في كلمات عن اعتذاره عن عدم تبكيره في القدوم؛ نظراً لظروف الطيران. كان الاعتذار جميلاً، وهو يقبل أمه، ويذهب إلى أخيه ليبارك له، ثم يتجه إلى "أنجلينا" لكي يحتضنها طويلا؛ لم تراه منذ وفاة "أوجستين الموقر".

كان لقاء كادت تغلبه الدموع لولا أنه تدارك أن المراسم متوقفة بسبب دخوله. اعتذار في هدوء وهو ينظر إلى العريس مستوضحا:

"أأنت الذي خطفت هذه الأيقونة؟؛ يالك من محظوظ!!" نعم أنا فعلا محظوظ.

كانت الكلمات قصيرة وموجزة، من كاتب البلدية الذي طلب بعد ذلك أن أعطي خاتم الزواج الذي كان في يدي طوال الوقت، من العلبة المخملية. خرج هذا الخاتم الذي كان عبارة عن خاتم غالٍ جدا، إنه من "البلاتين الأبيض" ومزود بحجر من"الزمرد الأحمر"، إنه هدية "فرانسيسكا" لحفيدتها، وهو إحدى ممتلكاتها الغالية التي تخصها. لم تفرط فيه أبدا على الرغم من إلحاح الكثير في الحصول عليه.

لقد اشترت هذا الخاتم منذ فترة طويلة؛ كانت هدية رائعة أمام هذا الجمع الذي طلب بعد ذلك أن أقبل العروس. كان وضعاً محرجاً قليلا بالنسبة لي، أن أُقبلها أمام هذا الجمع، ولكن كان هذا من التقاليد المتبعة، "وإذا كنت في روما أفعل مثل أهلها"، وهم من أهل إيطاليا لقد كانت قبلة طويلة انقطعت فيها الأنفاس، مع تصفيق حاد وفلاشات مضاءة، وخروج إلى الشارع في عربة يجرها حصان، مزينة بالورود، قد استأجرتها "فرانسيسكا" لهما من واحد من بني جلدتها يسمي "فرانك" وأخوه. كانت ليلة انتهت في ميدان تايمز، ونحن نعد بأرقام تنازلية لبداية الألفية الجديدة، مع قبلات حارة في قلب الميدان.

الــكـــارثــة

(٤)

"أسوأ أنواع الظلم، الادعاء بأن هناك عدلاً" أفلاطون

ديسمبر ٢٠٠١م

(١)

أيام عصيبة قد عشتها في هذه الفترة: كانت نظرات الحقد والغضب تحدق بي في كل مكان أخطو إليه؛ لقد عانيت كل أسباب الاضطهاد العنصري، والإيذاء النفسي؛ بسبب أو بدون سبب؛ بمجرد معرفة من يحتك بي إنني مسلم، أو على الأقل عربي من الشرق الأوسط. كأن هذا المكان تحول إلى بؤرة الإرهاب يجب استئصالها.

التصقت بي تهمة الإرهاب حتى وإن لم أفعل شيئاً؛ كانت النظرات تتفحصني بمجرد نزولي إلى الشارع، أو ركوبي القطار النفقي! كان الكل يتحاشي الوقوف بجانبي، كانت نظراتهم تخترقني؛ اختصموني فيما أفعله أو أني أفكر فيما سوف أفعله؛ أيفكرون في أنهم (يحألون) بما أفكر فيه. لقد تحولت من أرض للأحرار؛ إلى أرض العنصرية والكراهية، كانوا يختصونني بالتفتيش الدقيق أو ما أحمله كان التفتيش من حقهم، ولكن أن يأتي تفتيشهم بأقذع العبارات التي يؤاخذ عليها القانون! كانت عنصرية واضحة. كانت النظرات تتحداني عند دخولي إلى المحلات الكبرى، أو شراء الأشياء اليسيرة، مثل الجرائد عندما أكون في طريقي إلى عملي.

كان صاحب الكشك ينظر إليّ بغيظ لا أعلم لماذا؟ ولكني طوال هذه السنوات كنت على هذا المنوال، اشتري منه الجرائد المحلية، وربما عندما أجد بعض الجرائد العربية أشتريها أيضا. لم تتغير نظراته لي على الإطلاق،

ولكنها قد تغيرت بعد أن تحول البرجان إلى أكوام من التراب! وتحول رمزي الحرية والتجارة إلى أشلاء ممزقة.

لم تتوقف المظاهرات المطالبة بطرد كل من هو أجنبي؛ لقد طالت المظاهرات كل من هو غير أمريكي، حتى من يرتدي المختلف عنهم! كان الوضع في اضطراب شديد. تحول الحزبان فيهما إلى أبواق للنزاعات العنصرية، من يدافعان عن الحرية: تحولا إلى نزعي الحرية، والحجر على من يعتدي على الحلم الأمريكي. تحولت فيه أمريكا من دولة الانصهارات الثقافية، وتعدد الجنسيات إلى دولة الفصل في العرقيات! وماهو أمريكي وغير أمريكي: لقد تناسوا أنه لايوجد مايسمي أمريكي. إنهم كلهم من المهاجرين، لقد أصبغوا صفات الخير والشر على الجنسيات التي تعيش معهم في الوطن نفسه. لقد تناسوا ماهو الخير؟ وماهو الشر؟ لقد تناسوا أنهم أيضا بشر! تحولت فيه الدولة من واحة الديمقراطية، إلى دولة دكتاتورية، ومن ينضم إليها هو محور للخير، ومن كان عكس ذلك هو محور للشر.

كان يوم الثلاثاء . المشؤوم . وهذا يوم إجازتي لقد ألح "ألكسندر الصغير" أن يرى أحفاده كنا قد تركنا نيويورك في الصباح الباكر؛ لأنه يوم عمل عادي، وقبل أن يدركنا الزحام للخروج منها، والذهاب إلى الضواحى حيث الهدوء؛ لم نلب طلباهم في أوقات كثيرة، ولكن مع اشتياق الجدين: كانت الزيارة لهم.

لقد اشتاق الوالدان شوقا كبيرا لرؤية "محمد ومريم" أبنائنا. لم نتوقع أن يكونا توأمين؛ لم نلجأ إلي الأجهزة الحديثة للكشف عن نوع الأجنة، بل تركنا الأمر أن يكون مفاجأة لنا.

كان الحمل في الشهور الأولى لم يظهر هذا، إن هناك أكثر من جنين، بل كان يوحي بأن القادم ولد أو بنت، ولكن مع الشهور الأخيرة: ظهر حجم

بطن "أنجلينا" أكبر من اللازم؛ كانت تعاني من كل أعراض الحمل، لقد كثرت حركتها في الشهور الأولى، ولكن مع اقتراب الوضع كانت حركتها قد قلت بشكل كبير، حتى أعباء المكتب قد حولتها إلى والدها بشكل مكثف، بدون تميز، وانشغالي عنها في المطعم في برونكس لم يمنعني عن أن أقضي معها كل الوقت الذي تحتاجه، لم أبخل عليها في الوقت، بل كنت أترك مساحة مناسبة لها.

كنت أصطحبها في كورسات خاصة بالحامل "لاماز"، اعترف أنها كانت مفيدة لي، على الرغم أنها كانت غير مألوفة بالنسبة لي؛ لأن مجتمعي الذي آتيت منه لايسمح بهذا. كانوا يعتبرونها "أمور ستات مايصحش"؛ كانت تنظر إليّ و أنا أتكلم مع الجنين القابع في رحمها؛ كانت لاتفهم شيئا من حديثه الذي كان باللغة العربية قائلا له:

"أتعرفني أنني أبوك ومن تحملك بهذه البطن الكبيرة هي أمك".

كانت تنصت لما أقوله؛ كانت تضحك و أنا ممسك ببطنها، و أتحدث إلى طفلي؛ كانت لاتفهم شيئا، وكانت تنهرني في رقة أن أتحدث باللغة الإنجليزية حتى تفهم ما أقوله قائلة ليّ:

"سمير كف عن هذا إنني لا أفهم ما تقوله".

كنت لا أنصت إليها؛ كنت أتجاهل ما تقوله، واستمر في هذا حتى أرى الوسادة قد اصطدمت في وجهي. كنت أضحك كثيراً، و أنا أرى هذه الابتسامة ترجع مرة أخرى إلى وجهها بعد أن ولت لأشهر عدة؛ لقد آتت مرة أخرى القوائم الأربع؛ لكي تحمل آخر سند لها، وركن قوي في عائلتها "أليسندرو".

لقد رحلت "فرانكا" بعد مشوار طويل، سلمت الراية في هدوء إلى ابنها "ألكسندر الصغير" وحفيدتها النسخة المصغرة منها. اجتمعت بهم جميعا في بيتها، أبت أن تذهب بعيدا عن سريرها على الرغم مما أصابها من

ذات الرئة، كانت تعاني الكثير في آخر أيامها، كانت تتكلم بشكل متقطع؛ نظرا للسعال الحاد الذي أصابها. تكلمت عن ذكريات وقيمة العائلة والمحافظة عليها؛ تكلمت عن الوفاء والإخلاص، ومع كلماتها كان الكل يبكي من فرط قوة هذه الشخصية التي ترقد ولا تتحدث عن نفسها، بل تتحدث عن قيم توارثتها، وعرفت معانيها من "ألكسندر الموقر" قائلة لنا في ألم واضح من السعال المتكرر:

"حافظوا على "أليسندرو"؛ تماسكوا فيما بينكم، لقد حان وقت الرحيل، إنني أشتاق إليهم لقد غبت عنهم كثيرا".

كانت تعلوها ابتسامة عريضة على الرغم من السعال! لقد تذكرت ومرت من أمامها شريط من الذكريات التي مازال يعيش في مخيلتها؛ لقد اشتاقت هي أيضا إلى الأحبة، وكانت آخر كلماتها أن أرعى "أنجلينا" لأنها كانت ترى فيّ رجلاَ يتحمل المسؤولية، وجدير بثقتها قائلة لي في كلمات حانية:

"أنجي في رعايتك ياسمير؛ أنت جدير بها وهي أيضا".

كانت لحظة من الصمت الطويل، قبل أن تنطلق الأعين في شلالات من الدموع المنهمرة كانت هي بحق رأس العائلة، التي يلجأ إليها الجميع؛ الكل كان يشعر بأنها هي الحامي لهذه الأسرة، ولكل هذا الإرث الذي خلفته من وراءها.

كان يوماً مشهوداً من أيام مانهاتن، كأن المدينة قد اتشحت بالسواد؛ تحولت فيه الشمس إلى ليل دامس؛ من كثرة السواد التي اتشحت به جنازة مهيبة. ابتداء من الكنيسة كان على رأس القداس "الأب فرانسيس" الذي كانت تثق به ثقة عمياء؛ لقد تركت له كيفية شكل الجنازة، ومن سوف يتحدث عنها أو يلقي كلمات يذكرها فيها.

كانت جنازة مهيبة، حضرها صفوة المجتمع ورجال أعمال؛ وبعض أعضاء الحزب الجمهوري، و"أنجلينو" وأصدقاء له في وزارة الدفاع الأميريكية، وبعض الأصدقاء من كندا أتوا على وجه السرعة، عندما علموا أن رأس العائلة قد رحلت عن دنياهم، وبعض من العائلات الخمس منهم "كارلوتشي السفاح"؛ كانت الأكثر حزنا هي "أنجلينا"، وقد انكفأت على التابوت المفتوح، وهي تبكي بكاءً مراً في أوائل حملها؛ لقد كادت تطير فرحاً عندما علمت بحمل حفيدتها، كانت لاتبخل عليها بالنصائح في الشهور الأولى، حتى أنا لم تبخل عليّ النصائح.

كان بكاؤها مراً، يخلع القلوب، والكل يحاول أن يُلقي النظرة الأخيرة عليها؛ لقد تجرأت وحملتها بعيداً، حتى لا تعترض طريق من آتى لكي يلقي المشيعون النظرة الأخيرة على جثمانها، وهي احتضنت فيه صليبها الفضي، الذي طالما اصطحبته معها في كل مكان، وهي ترتدي فستاناً بسيطاً أسود، وبنقط بيضاء. وممدده في هذا التابوت من خشب الأبنوس الأسود، وبغطاء زجاجي؛ كان وصيتها أن تدفن بجانب "ألكسندر الكبير" وليس بجانب "إبرا" على حد تعبيرها قبل وفاتها، "إنها لاتريد أن تلتقي به في مماتها، يكفي أنها قد التقيته في حياتها".

كان مكانها بجوار "ألكسندر" كانت تحن إلى لقائه على حد تعبيرها؛ إنه لم يتركها بالمرة، بل عاش في مخيلتها طوال السنين الماضية؛ كانت لاتترك مناسبة إلا ويأتي ذكره؛ كان الحزن دفيناً وإن بدا أنها تضحك، كانت ضحكات مغموسة بألم واضح لاتخطأه العين؛ كانت تكتم في قلبها حزنا لايعلمه أحد، وإن بدت متماسكة طوال فترة المحافظة على الأسرة الذي كان همها الأول.

تتذكر كلمات "أوجستين الموقر" وهو علي فراش الموت "آلا تلقي بالمنشفة إلا مع آخر لكمة لك لوجه الدنيا"، لم تلق بالمنشفة في وجه الدنيا،

بل احتضنت الدنيا حتى لا تنقطع عطاياها، و أفضل ما عندها. وقد كان وعلى الشاهد الأبيض كتب: "عاشت من أجل الحب".

لقد وصلنا في الصباح الباكر إلى "سكارسديل" وهي من الأحياء الراقية خارج نيويورك، لقد فضل الجدان السكني هناك؛ لأنه مكان مثالي بكل معني الكلمة؛ لقد فضلا الخروج من قلب نيويورك، إنهما تعمدا البعد عن الضوضاء وتوتر الأعصاب والاكتئاب.

لقد فتحت الجدة الباب الخارجي وهي تمسك بكوب من القهوة السوداء؛ كانت قد تخلت عن منامتها وارتدت ملابس الخروج، كان الاتفاق أن تصطحب الأحفاد والذهاب إلى المتجر التجاري في الحي الهادئ، لكي تشتري لهم ملابس وأغراضاً في سنهم المبكر، والغرض الآخر من الزيارة أن يرى أصحابها أحفادها؛ لم تتنازل عن أفكارها القديمة، إنها يجب أن تكون مناداتها باسمها، وليس باسم الجدة، كان هذا أكثر مايغضبها من أبنائها "مالديني وألبرتو" عندما يريدان إغظاتها علي سبيل الضحك: "أصبح لك أحفاد" إنك أصبحت جدة": كان هذا أكثر ما يغضبها؛ لكن بمجرد رؤية أحفادها تخلت تماما عن أفكارها؛ كان التوءمان خليطاً من خفة الدم المصري؛ وملامح الجمال الايطالي، وخاصة "مريم"، مع شقاوة ممزوجة باللون الأبيض مع الحمرة الخفيفة، وخاصة من "محمد"؛ لقد تركت "أنجلينا" تسمية الأبناء ليّ؛ لقد ذكرت لها أنها أكثر الأسماء ارتياحا وتبجيلا عندنا، كان الوقع لهما في باديء الأمر غريبا، ولكن بمرور الوقت أدركت أنهما أنسب اسمين للأبناء ولم تعترض؛ كنت أريد لهما التميز وقد كان. والترحيب كان على أشده وهي ترى أحفادها قد وصلا.

بمجرد دخولنا كان "ألكسندر الصغير" ينزل من أعلى السلم الرخامي، وهو يبتسم ابتسامة عريضة، مرحبا بنا وهو يسعى إلى أحفاده؛

ليجد هذا الخليط أمامه، كانت لخبطة تبعث على السرور؛ هذه الجينات الوراثية التي تجمعت في الأبناء، فيها شيء يبعث على التفاؤل؛ ولم تستمر طويلا هذه الابتسامات، حتى كان التلفاز ينقل في خبر عاجل سقوط البرج الأول من برجي التجارة.

كان الخبر مفزعا، ونحن قد تسمرنا في أماكنا، ونرى إحدى علامات القوة ينهار؛ كان مفزعا، وبعد أقل من نصف ساعة نري البرج الثاني ينهار! لقد لف الصمت الجميع ونحن نرى هذا الركام الساقط، والذي تناثر على مدى أميال كثيرة؛ لم ينقطع رنين التليفونات النقالة؛ كان الصراخ متقطعاً في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى طويلا لاينقطع؛ حزنا على سقوط الضحايا؛ لقد تسمرنا جميعا لعدة أيام ونحن نرى أن نيويورك تحولت إلى ثكنة عسكرية بكل معني الكلمة.

لم نستطع أن نذهب إلى نيويورك طوال هذه الفترة. كان الاتهام واضحا؛ إن "المسلمين فعلوها" هذا ظلم بين؛ كان كلامي ودفاعي قد ذهب هباء؛ ونحن نرى علي شاشة التلفاز آلة إعلامية رهيبة؛ لكي تلصق التهمة غير واضحة المعالم بالإسلام كله! لم تترك أحدا، بل كانت النية مبيتة بشكل واضح، لا من أي أحد من المسلمين أو من العالم العربي سوف ينأي بنفسه عن هذه الاتهامات؛ بل سوف يكون حصاراً مطولاً، ولن يفلت منه أحد مادام اسمه يرتبط بالإسلام حتى، وإن كان شكليا.

كانت نظرات الجدين ليّ قد اختلفت تماما؛ لقد تحولت نظرات الاحترام إلى نظرات الشك والريبة؛ على الرغم من أنني لم أكن المقصود بهذه النظرات، إلا إنها قد فضحت مكنونات النفس البشرية، التي تحولت في خلال ساعات من نظرة والد الأبناء إلى قاتل أبناء الأمة الأميريكية.

كان الأمر ظلماً بينا، قد وقع عليَّ بدون سبب واضح، سوى أن اسمي "سمير جلال" مواطن مصري، تناسوا أنني أصبحت مواطنا أميريكيا له الحقوق نفسها، لكن هذا ربما فقط في الدستور ولكن في أدبيات الشارع: أنا ارهابي مسلم من العالم العربي (أو الشرق الأوسط)، وسوف أكون في محور الشر قريبا؛ لقد أطبقت "أنجلينا" فمها تماما! لم تستطع أن تنطق وهي ترى حجم الدمار الذي شمل برجي التجارة؛ ولكنها انتبهت لنظرات الوالدين ليّ، وهما يحدقان فيّ طوال فترة مكوثنا في البيت؛ لقد ثارت عدة مرات عليهما في كلمات غاضبة:

"إن اتهاماتكم له ظالمة؛ إن من تتهمونه هو زوجي، إنه ليس بإرهابي؛ إنكم أنتم الإرهابيون ليس بالأسلحة، ولكن تكفي نظرتكم له".

كان دفاع "إنجي" قد تطور إلى أسئلة صعبة، لم يكن أحد يتخيل هذا الرد العنيف الذي كاد يعصف بالعلاقة الأبدية، بينهما قائلة لهما في كلمات أخرى لم تخل من العنف:

"أنتم تكرهونه لماذا؟ لأنكم اتهمتوه بذنب لم يفعله، ولم يشترك فيه".

ولم تنتهي من الكلمات القاسية لهما، وتزيد في كلماتها عنفا لهما:

"لماذا اتخذتم "سمير" ذريعة لكرهكم لكل من هو مختلف عنكم؟ لقد كرهتم شخصا قد أحببتوه من قبل كان يلقي الاحترام قبل هذا".

لقد زادت في حنقها عليهما، وهما ينظران إليها في استغراب، وهي تدافع عن زوجها، وتزيد من وتيرة الكلمات بالأنفاس الصاعدة والهابطة في عنف قائلة لهما:

"والآن هو ليس جدير باحترامكم وتقديركم له؛ هذاالشخص زوجي وأعرفه أكثر مماأعرف نفسي هو الشخص نفسه الذي أحببته؛ هو الشخص نفسه الذي رحبتم به عند زواجي منه؛ هو الشخص نفسه أبو أولادي، وهو

الشخص نفسه الذي يقف أمامكم، والآن أنتم تكرهونه لماذا؟ لأنكم اتهمتوه بذنب لم يفعله! ولم يشترك فيه!".

كانت تدافع باستماتة عني، ولكن دون جدوى، كانت النظرات أكثر حدة عندما جاء الجيران ليتشاركوا مع بعض في حجم المأساة التي ألمت بهم، وهم يرون أن زوج الابنة مسلم، ومن العالم العربي، أو الشرق الأوسط، وأن الأحفاد أيضا مسلمان. لقد تحولت النظرات فقط إلى نظرات استهجان، ومن استهجان إلى كره واضح؛ لم تطق "أنجلينا" الوضع. طلبت مني أن نذهب إلي بيتنا على الفور، بعيدا عن جو الكراهية الذي أصابهم جميعا بالجنون والعنصرية المطلقة، وهي تنتشل الأطفال من الجدين في عنف مع صراخهما قائلة ليّ:

"يكفي هذا ياسمير، هذا البيت قد امتلأ بالكراهية والحقد، لم يعد لنا مكان فيه".

لقد استفحل الأمر بنظرات الاستنكار الصادرة من "أنجلينا"، لقد تأكدت تماما أنهم لم يعودوا يستطيعون التمييز؛ وعلى العالم الآن أن يستعد لدق طبول الحرب والآلة الرهيبة لأسلحة دمار العالم أن تدور. لايجب أن تتوقف مصانع الدمار عن العمل. لقد حل الغباء مكان العقل، والآن أن تصبح الجيوب منتفخة بأموال بيع الأسلحة، والتعاقد علي صفقات جديدة، وتنتفخ الأوداج والأشداق على ابتسامات الشيطان، وأن تتعطل الحريات، وتقف مواكب الفكر أمام الطلقات النحاسية؛ لقد اهتزت ثقة العالم في نفسه؛ لقد انتحرت القيم الإنسانية أمام الغوغاء والباحثين عن دمار العالم، والسيد المريض القابع في المكتب البيضاوي.

ماهي جريرتي التي ارتكبتها؟ ولا أعلم عنها شيئا؟ لقد انفتحت أبواب جهنم على كل من هو مختلف؛ ولكنته التي أصبحت مستحيلة في ظل الأيام العصيبة التي مرت على كل من هو مغاير للواقع.

كانت طرقات تكاد لاتسمع في هذا النهار الباكر، عندما فتحت "تريسا" الخادمة الجامايكية الباب، وترى حارس العقار "برنس" ومن ورائه شخصان قد ارتديا ملابس غامقة. إنني أتذكر هذه الملامح المتجهمة نفسها، وهي تنظر متفحصة "تريسا"، وفي سؤال لايحتمل النكران نريد سيد المنزل! كنت أستعد للنزول إلى عملي في "برونكس" في إحدي مطاعم المجموعة؛ لقد أسرعت الخادمة إلى المطبخ، وهي تنظر إليّ في نظرات رعب، أن من في الباب يسألان عني قائلة ليّ في لحظة رعب:

"سيدان بالباب يسألان عنك؟"

أسرعت بالخطى، من هذا الذي يأتي في هذا الصباح الباكر: لكي يسأل عن شخص يستعد للنزول إلى عمله؛ لقد تركت "أنجلينا" في سريرها، لم أرد أن أزعجها، لقد أخذ الأبناء منها إلى وقت من الليل حتى ناما؛ فهي متعبة لا أريد أن أقلقها.

كان خروجي إليهما على وجه السرعة، قبل الانتهاء من كوب الشاي الذي أعدته الخادمة؛ لقد سمحا لنفسيهما بالدخول بدون استئذان، لقد وجدتهما في الردهة، وهما ينظران عبر الحوائط والسقف المزين بالنقوش: كان سؤال طبيعي لمن دخل المنزل في هذا الصباح المبكر قائلا لهما في استغراب:

"من أنتم؟"

لقد أوضحا في أسلوب من السخرية: "عميلان من وكالة الأمن القومي" قالا ليّ في تجهم واضح:

"هل أنت السيد سمير جلال المصري؟"

لقد استفزا وجودي لاشك في هذا، وبقصد متعمد كانت الإجابة مقتضبة:

"أنا هذا الشخص الذي تسألان عنه".

لقد خلعا النظارات القاتمة، ونظرا إليّ في تمعن واضح، وفي مبغتة منهما أن أذهب معهما في هدوء، قالا ليّ في هدوء وبرود أعصاب:

"سوف تأتي معنا".

كان الأمر في منتهى الرقة، ولايحمل أي نبرة من العنف، ولكن كان يحمل التهديد؛ كان في السؤال نبرة التهديد، ولكن يحمل الهدوء، إنهما متمارسان على هذا النوع من التهديد؛ كنت أحاول أن أربط جأش نفسي قائلا لهما:

"لابأس ولكن عليَّ أن أخبر زوجتي بهذا الأمر، وأن أتصل بمطعمي؛ حتى يكون هناك كبديل ليّ في هذه الحالة"

كانت الإجابة أكثر هدوءاً مني أنا، يبدو أنهما لايتورعان عن عمل أي شيء.

لاداعٍ لهذا الأمر، لن يستغرق السؤال أكثر من نصف ساعة، وبعدها ترجع لممارسة حياتك الطبيعية.

هذه النبرة والتهديد الخفي لقد سمعته من قبل! أين سمعت هذا من قبل؟ أكاد أسمعه يتردد على أسماعي مرة أخرى كأنه بالأمس، ولكنه كان يأتي مع زوار الفجر الحزين، وأوامر الاعتقال على بياض! كنت أعلم في قرارة نفسي أن حالة الحمى التي أصابت الجميع سوف تصبني أيضا ولقد حان دوري.

ردهة المبني الأنيق، لقد تحولت إلى منظر لم آلفه من قبل: لقد تحولت الغرف الصغيرة إلى غرف استجوابات، والبعض أخذ في الانتظار

خارج هذه الغرف؛ كانت الألوان من البشر قد اتخذت مقاعد لها في كل الردهة، وأن أنظر إلى هذه الوجوه، وهي تنظر إلى بعضها البعض؛ من الجاني ومن المجني عليه؟ لاناقة لنا ولاجمل، ولكن تنقص الدراما والإثارة فقط، أصوات السياط ولسعات الكهرباء، و أنا أنظر إلى الوجوه المرتعبة.

كان هذا ماينقص هذا المشهد، والأغطية السوداء وتكبيل الأيدي من خلاف؛ لقد طلبا مني الانتظار في الردهة؛ الذي بعد فترة قد فتحت الغرفة، ودلفت إليها جالسا على كرسي معدني؛ لم تكن الغرفة مجهزة، ولكنها كانت صغيرة الحجم، يوجد بها طاولة مربعة، وكرسيان آخران في آخر الطاولة.

بعد فترة وجيزة دخل اثنان من العملاء؛ سيدة لم تتجاوز العقد الثالث من العمر، ورجل قد تجاوز العقد الرابع. جلسا على الكرسيين الآخرين، وهما يفتحان ملفاً كبيراً ظهر على طرف الأوراق الكثيرة صورة ليّ إنه بالتأكيد ملفي.

لم أنزعج بل كنت هادئاً جداً على غير العادة؛ لقد عرفا نفسيهما، السيدة العميلة هاريت بارني، والعميل جوناثن بولونسكي، لقد كانا أكثرا هدوءاً ونظراتهم ليّ كانت توحي بعدم الراحة، وتحمل الشك والريبة، وهما يشاران ليّ بإحضار أي شيء ليّ علي سبيل الترحيب غير مرغوب مني؛ لقد رفضت بأدب؛ كانت النظرات مستفزة، وبدأت بأسئلة يسيرة توجد في الملف الذي أمامهم لكن ما استفزني بشدة قالا ليّ:

"السيد سمير جلال المصري؟".

"نعم أنا السيد سمير جلال مواطن أمريكي".

"هل تخجل من لقب مصري؟"

"لا، ولكن أحمل الكارت الأخضر، وأحمل الوثيقة الزرقاء وطبقا للدستور؛ أنا مواطن مصري أمريكي".

-عليك أن تنسى الدستور في هذه الحالة؛ الحالة التي نحن بصددها خرجت عن قواعد الدستور، ولكنها أصبحت خارج إطار الدستور، والبعد عن حقوقك الدستورية، بل هي تمس أمن دولة عندما يمس أمن الدولة تسقط الحقوق!

"هل علي أن أستعين بمحامي لكي يدافع عن حقوقي؟"

"لاداعٍ لهذا الأمر؛ هي أسئلة يسيرة، وعليك أن تجيب، وإلا سوف يستمر احتجازك إلى مالانهاية حتى تجيب".

كان هذا تهديدا وصريحا ولايحمل مجالاً للتراجع؛ هل عليّ الدفاع عن نفسي في أمر لم أفعله، بل لقد فرض عليّ بدون إبداء اتهامات واضحة. يجب أن أعرف تهمتي على الأقل، قائلا لهما في هدوء، ولكن مع فزع ربما في صوت وهن أكاد لا أسمع صوتي فيها:

"يجب أن أعرف تهمتي أولا قبل أن أجيب".

كان رد العميلة بارني فيه شيء من التحايل والمكر قائلا ليّ في خبث:

"هي ليست بتهمة أكثر منها معلومات؛ هل أنت مسلم؟".

كانت إجابتي تحمل شيئا من التهكم قائلا له:

"من الأوراق التي أمامك، أنا بالتأكيد مسلم؛ لكن ركن الديانة هذا يجعل للأمر فرق، والسؤال هذا من المفروض آلا تسأليه؟

عندما بادرني العميل بولونسكي بسؤال: ماذا يحمل من وراءه قائلا ليّ:

"هل تصلي في مسجدالفرقان؟

لقد أدركت الآن مايبحثون عنه، لقد أصبح المسجد مكاناً لتدبير المؤامرات والتفجيرات بعيدا عن مكان العبادة. كان سؤال بسؤال قائلا له في سخرية:

"وهل في ذلك جريمة؟ نعم أصلي في مسجد الفرقان، كلما أتيحت لي الفرصة وهل الصلاة جريمة؟

لم يهتم بما أقوله له، لم يعيرني اهتماما بهذا الأمر؛ بل السؤال الذي يلية كان أكثر تشويقا قائلا ليّ:

"هل تعرف المدعو"إسلام علي أكبر خان" المكني بالمهاجر أبو عبيدة؟".

لقد حاولت أن أسترجع بذاكرتي إلى الأيام السابقة؛ لعلي أتذكر هذا الاسم، أو هذا الوجه الذي أوقعني في هذه الشراك الخداعية، والمؤامرة التي أصبحت غير مفهومة، لا أتذكر فعلا هذا الاسم. وإن تذكرته ربما ملامحه لم تثبت في الذاكرة، كانت الإجابة فيها شيء من الحزم الذي لايخضع للشك قائلا له:

"لاأعلم من هذا الشخص الذي تقصدانه؟ لاأعلم إن كنت التقيت به أم لا؟ لكن لا أعلم المسجد يضم الكثير من المصلين".

عندما بادرتني السيدة "بارني" وهي تضع بعض الصور الضوئية، وهي تظهروقوفي مع هذا الشخص قائلة ليّ في كلمات محددة:

"طبقا للكاميرات الخارجية للمسجد: إنك قد صافحت هذا الشخص عدة مرات بل تحدثت إليه طويلا"

كانت إجابتي اكثر تحديدا وفي عبارات واضحة:

"ربما يكون هذا ماحدث، لكن ربما لاتعلم أنه بعد صلاة الجمعة خاصة؛ يقف المسلمون مع بعضهم البعض، لكي يصافحوا على بعضهم، على

سبيل الترحيب والألفة بينهم. والأحاديث ربما تأتي في سياق السؤال عن الصحة والأحوال والأولاد، ولايهمني في هذا الأمر الجنسية أو من أين أتي.

لم أنتبه كثيرا بهذا الأمر، إلا و أنا أسترجع بعض النشرات الإخبارية أن هذا المدعو "إسلام علي خان" واحد من المشتبه بهم في أحداث سبتمبر! كانت الأحداث كثيرة، تداعت في رأسي بشكل المطارق متسارعة الضربات من الواضح أن الحديث سوف يستغرق أكثر من نصف ساعة، بل سوف يتجاوز أشهر.

بادرني العميل جوناثن بسؤال أكثر استفزازا قائلا ليّ في استنكار:

"لماذا تركت بلدك وجئت إلي أمريكا مهاجرا؟ وهل أنت تعتبر نفسك مصريا؟ أم أمريكيا؟ كانت الأسئلة في منتهى العنصرية!"

كانت الأسئلة في منتهى العنصرية، ولكن كان علي أن أجيب في كلمات:

"أنا مصري المولد والنشأة، وأميريكي الجنسية، ومقيم فيها".

الإصرار واضح من الاستفزاز القادم، والذي لن يتوقف من العميلة "بارني" مع حاجب العينين كان السؤال الآخر لايقل عصبية عن سابقه في سؤال آخر:

"لماذا تركت وطنك؟ و أنا أرى أنك تعتز بوطنك كثيرا؛ وهل لك صلات بأي من الجماعات المتطرفة؟

كان ردي أكثر عنفا لها، وارتفعت فيها نبرة صوتي قليلا من هذا النقاش الذي لاطائل له، سوى استفزازي في عبارات طويلة:

"أنا لا أترك أرضي إلا في أحلك الظروف، عندما تضيق عليّ الأرض، والمصري لايترك أرضه مثل الآخرين، بل يتمسك بها إلى آخر نقطة عرق ودم في عروقه. التخلي عنها ليس بهذه السهولة. لكن دائما الظروف تجبره على أشياء لايستطيع أن يتحملها ولكنه في بعض الأحيان من الأفضل أن يترك أرضه

لفترة حتى يعود إليها أقوى، وهذا مايحدث معي الآن ولماذا تفتح أمريكا أبوابها لكل من يبحث عن حياة أفضل، وفرص أفضل في قارة مترامية الأطراف تبحث عن من يفيد هذه الأمة؛ لماذا لاتغلقون أبوابكم؟ مادام المهاجرون قد أزعجوكم؟

لقد فتحت أبوابكم بدعوة الحرية والانصهار في بوتقة واحدة، وكفالة حرية الرأي وتعدد الثقافات التي هي إثراء في الحقيقة لنا ولكم ولكنكم الأن في هذه اللحظة قد انتهكتوا بكل الصلف مبادئ الحرية التي قد اقامتوه وهدمتم كل التعديلات في وثيقة الحرية التي تتباهون بها، ولن أقول لكم لأن هذا سوف يكون نوع من العنصرية نحن وأنتم؛ نبحث عن التعدد ونرفض الآخر؛ نبحث عن الحرية، وتكمم الأفواه! نبحث عن الرأي ونخنق الأقلام؛ نخلق الأفكار وتموت الأهداف؛ مصري ولا أمريكي، وهل أنت سوى مهاجر آخر؛ أبحث في أصولك سوف تجد نفسك مهاجرا آخر، قد تكبدعناء القدوم إلى هذه القارة لكي تجلس الآن مستر بولونسكي والآنسة بارنيو تسألني هل أنا مصري أم أمريكي؟ أنا مهاجر مثل جدك الذي أتي إلى هنا؛ إلا إذا كنت أنت وهي من قبائل الشيروكي أو السيوكس التي يبدو أيضا أن اسمها يميل إلى الألمانية، هم أصحاب هذه الأرض، وعندما تسألان عن الإرهاب. الإرهاب يولد من القوى العظمى إلى أخرى، ويولد من رحم الفقر والجهل، ولايوجد أكثر إرهابا إلا هذه الدولة التي تخلصت من الهنود الحمر في محميات بعيدا عن التطور؛ بدعوة عدم الاختلاط بهم، والبعد عن الهمجية. أصبح الاستعمار داخليا، والانعزال أيضا داخليا؛ لقد كنتم أكثر همجية من الهنود الحمر؛ في محاولة منكم لكي ينسوا جذورهم، ومن العار الاختلاط بهم وإطفاء الشعور بالعار إزاء هويتهم الحقيقية، وإنك في الأخير لست بمنأي عن هذا الإرهاب الذي أوجدته، بل سوف يصيبك في عقر دارك، مهما كانت حصونك مانعة.

لقد فقدت هذه الأمة الهوية؛ سوف تسقط في عنصرية بغيضة، عندما تناست روح الاندماج والتسامح؛ سوف تسقط في بئر التفكك، ليس من دعوة من التدخل الأجنبي ولكن كل ماهو مبني على عنصرية بغيضة سوف يتحول إلى أتون مشتعل، من تحت الرماد نار مشتعلة تأكل مقدرات أمة، قد بنيت على أكتاف المهاجرين.

التفكك الداخلي سوف يأتي على هذه الأمة بدون رحمة، عندما تسقط الحضارة المادية بدون مقومات الحضارة الإنسانية تسقط معايير الإنسانية، والأحلام تتحول فيه إلى كابوس وتتحول "أرض الأحلام والأحرار" إلى "أرض الكوابيس والسجناء"، تطبق على كل من يحاول إعلاء القيم الإنسانية، فتهوى إلى هوة سحيقة لارجعة منها.

(٢)

أسمع صوته، إنه قريب جدا، إنه بالفعل يتحدث من نيويورك. كم أشتاق إلى صوته، إلى صوت هذا "الطيار". إنه هنا بالتأكيد؛ كم كانت مفاجأة سارة، و أنا أنظر إلى هذا الرقم الغريب الذي لم أعهده من قبل، وهو يضحك ضحكة صافية، أتيت من على بعد أمتار قريبة مني، و أنا أحاول أن أتاكد أن هذا الرقم جاء من مصر، لا ، لا. إن هذا الرقم يأتي من نيويورك، لا أكاد أن أصدق حتى قال لي في بشر واضح:

"أتعبتني يارجل رحلة حول العالم لكي أراك".

لا أصدق هذا، إن هذا الصوت يأتي إليّ كأنه طوق نجاة، بعد ما قد عانيته في الأشهر الماضية؛ إنه من أقرب الأصحاب إلى قلبي؛ لم أكن أتخيل أني سوف أسمع صوته بعد هذه السنوات؛ كم مرت السنوات سراعاً، كان صوتي ينطق بالفرح الشديد قائلا له:

"مستحيل؛ حسام الطيار هنا في نيويورك لا أصدق أين أنت؟"

لم أنتظر حتى يرد علي في جملته...

أنا....

لم أنتظر إجابته، بل عجلته بسؤال آخر فيه نوع من الارتياب قائلا له:

"هل أنت حقا في نيويورك؟ أم أنك في مصر؟ وتمارس آلاعيبك معي؟"

لقد جاءت إجابته سريعا، قبل أن أذهب إلى سؤال آخر قائلا في هدوء الطيارين:

"ياسمير انتظر قليلا، لقد جلبت رقم الهاتف الجوال من أخيك علاء، وهو يهديك السلام، و أنا الآن في نيويورك، ومنتظر أن آراك في الفندق بجوار المطار؛ لأن الرحلة المغادرة سوف يكون الاقلاع في تمام الثامنة مساء اليوم؛ عليّ أن أراك اليوم لأمر ضروري.

لم يمهلني حتى أرد عليه، حتى كان إنهاء المكالمة سريعا قائلا ليّ:

"لا تتأخر عليّ، سلام مرهون حتى نلتقي".

ماهذا الأمر الضروري الذي يريد أن يتحدث عنه؟ هذه هي أول مرة ألتقيه منذ مغادرة مصر؛ ما الذي يحمله ليّ؟ هل هو أمر سيئ؟ وإن كان سيئاً ما الذي يحمله على أن يحمل لي خبرا سيئاً في هذا التوقيت العصيب؟

كنت أحاول أن أقنع نفسي أنه لايوجد شيء سيئ، إن صوته كان يحمل ليّ السرور، بمجرد سماع صوتي، لقد تركت كل شيء، وأن أنهب شوارع نيويورك متجها إلى المطار.

الوقت كان هادئا وساعات الذروة لم تبدأ بعد، ولذلك لم أستغرق الكثير من الوقت في الوصول إلى الفندق.

الفندق يعج بكل أنواع الأطقم المسافرة أو القادمة من طيارين وطو اقم الخدمة، بمختلف الأزياء تعرفت على بعضها، والأخرى لا أعلم شيئا حتى أتى هذا الصوت الرقيق من هذا الجسد النحيف هامسا ليّ قائلا:

"والله إنه لأمر غريب بعد هذه السنوات نلتقي، لقد أوحشتني يارجل".

لقد استدرت بسرعة، و أنا أنظر في وجهه، لقد أوحشني هذا الجسد النحيف وهذا الصوت؛ إنه لم يتغير، بل ربما زاد قليلا في وزنه؛ لقد ظهرت ابتسامة عريضة على وجهه هذا هو الجديد؛ لقد اختفت نظرة الحزن التي كانت تكسو وجهه منذ آخر مرة رأيته فيها.

فتحت ذراعي على مصراعيهما؛ حتى أحتوي هذا الجسد النحيف، و أنا أحتضن فيه كل شيء في مصر. تداعت الذكريات في شدة، وهي ترقص أمامي. أتذكر إياها منها ماهو مضحك ومنها ماهو مبكي، ولكني الآن أتذكر فقط كل ماهو مبهج، ويذكرني برائحة المعادي، ويذكرني برائحة مراكب صابر، وبمياة النيل التي تجري في ساعة العصارى.

استنشق منه رائحة قد غابت عني منذ فترة طويلة؛ إنني أحس بالراحة، و أنا أضم هذا الجسد النحيل. إنه يتفحصني وينظر إليّ في إمعان واضح، لقد تغيرت بالتأكيد قد قالها في هدوء:

"ياالله ياسمرة، كم مرت السنين بسرعة لقد تغيرت"

هل فعلا أني تغيرت في خلال هذه السنوات الست الماضية؛ بكل تأكيد لقد تغير الوضع تماما عن ذي قبل، وهل هذا الأمر يحمل صفة التعجب! إنه هو أيضا قد تغير، توجد على وجهه هذه النظرة قائلا له في الوتيرة نفسها ولكن علي سبيل المزاح:

"أنت أيضا قد زاد وزنك قليلا".

لقد كنت أتفحصه؛ لكنه لم يعلق على ما قد قلته، بل سحبني من يدي؛ لكي نجلس على طاولة في المشرب داخل ردهة الفندق التي كانت على آخرها قائلا في هدوء جالسا على الكرسي:

"لقد أوحشتني ياسميركم مرت الأعوام؟ إنها ست سنوات".

إنها فعلا ست سنوات، يالها من سنوات قد مرت بدون أن أشعر بها، بل كانت مثل الدوامة الكبيرة! لم أكن أتصور أن تذهب هذه السنوات؛ فيما ذهبت هذه السنوات من محطة تموين السيارات إلى العمل في أفخم فنادق أميريكا، ومنها الإصابة بطلقات نارية كادت تودي بحياتي؛ زواجي من "أنجي" والأولاد "محمد ومريم" وفقدان أناس كثر؛ لقد استفقت على هز رقيق من يده لتخرجني من حالة اللاوعي قائلا في هدوء:

"سمرة أين ذهبت؟".

انتبهت على الهزات التي انتابتني، و أنا انظر إليه في دهشة قائلا له:

"ما زلت هنا!".

"رحلاتي الآن من القاهرة إلى نيويورك بعد هذا الوقت الطويل؛ لقد أخذت خطوط طيران دولية طويلة، وهذه هي الرحلة الأولى ليّ. لقد أخذت رقم هاتفك (تليفونك) الجوال من علاء، إنه يهديك السلام؛ لقد اشتاق إليك كثيرا، حتى الشلة في أمس الشوق إليك؛ الكل يسأل عنك في شدة".

هل هم فعلا في اشتياق إليّ ولما لا؟ أنا على قدرهذا الاشتياق؛ أنا لم أنسَ هذا الحب الذي كان يجمعنا؛ ربما حدث مايعكر هذا الحب، ولكنه لم ينقطع في يوم من الأيام؛ بل ربما زاد عن ذي قبل، و أنا أنظر إلى هذا "الطيار" قائلا له في حب بالغ:

"حدثني يا "طيار" ماهي الأخبار؟ ماهو الجديد؟ ما الذي يحدث في مصر ومعك؟

لقد انتظر قليلا قبل أن يبدأ في حواره، الذي بدأه بهمهة، كأنه يريد أن يسترجع ما سوف يقوله، أو أن يحاول أن يتذكر ما الذي سوف يتحدث عنه؛ حتى كانت المفاجأة ظهرت الشنطة الحمراء المخملية؛ إنني أحلم! هل هذه الشنطة هي نفسها التي تركتها منذ قرابة ست سنوات مع "نوال"؟ على أمل الرجوع مرة أخرى إليها.

إن لون هذه الشنطة أصبح يصبني بفقدان عقلي؛ إنها لم تتغيير هذه الشنطة كنت خائفا مما سوف يقوله "الطائر" بعد أن وضع هذه الشنطة المخملية في وسط الطاولة، وهو ينظر إليها واليّ من فنية إلى أخرى، كأنه يستطلع رأيي، وكأنها تحدثني أتتذكر هذه الشنطة؟ وكيف لا؟ نعم أتذكرها جيدا، قائلا له في انزعاج واضح:

"من أين أتيت بهذه الشنطة؟ إنني أتذكرها جيداً؟ إنها ملك نوال؟ كيف حالها؟

لقد هز برأسه وهو ينظر إليّ قائلا في هدوء:

"إنها فعلا ملك نوال، ولكنها أصبحت الآن ليس من حقها، إنها من حقك أنت؛ لقد تزوجت بعد أن تزوجت أنت".

لقد وقع عليّ الخبر مثل الصاعقة؛ هل فعلا "نوال" قد تزوجت؟ كان عليها أن تنتظرني؟! يالك من أناني؛ كيف لها أن تنتظرك؟ لقد تركتها وذهبت وراء أحلامك؛ ومن هذا الذي تزوجته؟ إنه بالتأكيد في المستوى الاجتماعي الذي يليق بها؛ ولكنه لايعلم أنها كانت تحبني؟ ياله من مغفل؛ حتى يقبل بهذا الوضع المزري؟ كان عليّ أن أسال هذا السؤال البديهي قائلا في سخرية:

"من الذي أعطاك هذه الشنطة؟ أهي "نوال"؟"

كان رده مثل الصاعقة عليّ قائلا في هدوء:

"زوجتي نوال قد أعطتني هذه الشنطة، عندما علمت بسفري في أول رحلة إلى نيويورك؛ لقد انقطع الارتباط بينكم، بعد هجرتك وزواجك وإنجابك للأولاد، لم تعد في احتياج إلى ما يذكرها بك؛ ولكنك بالنسبة ليّ تظل صديقي على الرغم مما تحمله لي في نفسك في هذه اللحظةّ، لحظة الكره والبغض، ولكني سوف أتفهم".

لقد وقع عليّ الخبر مثل كوب الماء البارد، في أيام الشتاء القارص، لقد أفقت الآن قائلا في رعب:

"لقد تزوجت نوال يا "طيار" على الرغم من أنني كنت أحبها!".

"لم أتزوجها إلا بعد أن تأكدت تماما أنها قد نسيتك تماما، لم تعد تذكرك؛ لقد أخذت شوطاً كبيراً في نسيانك؛ إنها لا تذكر سوى أنك قد هجرتها في أحلك الظروف النفسية لها. لقد حاولت أن تنسى بالزواج من أي شخص، ولكنها كانت عاقلة جدا؛ لقد أخذت وقتها حتى تنسى وتكون على

استعداد للقبول بآخر، وكنت هذا الآخر. ولكني كنت أحبها قبلك، ولكن الوقت كان ليس في صالحي؛ عندما رأيتك أنك تقدمت إليها

انسحبت وتركتك؛ حتى بعد هجرتك، لم أتقرب إليها، بل جعلت الأمر كله صداقة، حتى ينصلح الحال وقد كان. إنها لاتتذكر منك سوى وجهاً ضبابياً ليس إلا، لقد أصبحت لها ذكرى".

الآن أتذكر هذه المسحة من الحزن، التي كانت ترتسم على وجهه كلما نظر إلينا، كان يتحرق شوقا أن يكون بديلا عني في هذه العلاقة؛ لكنه كان يتحرج من إظهار هذه المشاعر احتراما لنا؛ يالها من معاناة! كيف تحمل هذا كل هذه المشاق؛ لقد أرجعني إلى حواسي مرة أخر، وأنا أنظر إليه في كره واضح:

"ليس من حقك الاعتداء على حقوق الآخرين "ياطيار".

لقد أحزنه ما قد قلته له؛ لكنه تغاضي عن هذا الأمر، بل قال في هدوء بالغ:

"لقد أرادت أن تسمع خبر زواجي مني أنا، وليس من شخص آخر، حتى لو كان أخوك علاء؛ لا أريد أن تفسد علاقتي بك، وهذا حقك عليّ في الصداقة".

لقد كان أكثر هدوءاً مني في التعامل، فالأمر هل هذا هدوء الطيارين في التعامل مع المواقف الصعبة؟ أما هي إنسانية "الطائر" التي يريد أن يحتفظ بهذه الصداقة التي ربما سوف تنتهي بعد قيامه من هذا المكان؛ لماذا أعتبره خائناً ليّ؟ هو نفس هذا الشخص الذي وقف بجانبي من قبل في إقراضي وإلى الآن لم يسأل عن أمواله؛ كيف لك أن تنسي معروفه؛ شتان بين الأمرين! الأموال من السهل إرجاعها، أما الحب الذي يضيع لا يرجع أبدا؛ لكن عليك احترام اختيار "نوال". ليس عليك فرض أي شيء عليها؛ ولايوجد

الآن مايربطك بها سوى هذا الشخص الماثل أمامك؛ لقد تغيرت نبرتي تماما، عندما بادرته بكلمات التهنئة مقرونة بألم واضح:

"مبروك ياطيار ولو أنها متأخرة؛ ونوال الآن هي أختي، أرجو أن تقبل هذا".

لقد سحبت الشنطة المخملية؛ وتركت الطيار جالسا على كرسيه نفسه؛ لقد تكسر الكثير في نفسي؛ لقد ذهب رونق حياتي إلى غير رجعة، لقد فقدت الأمل في كل شيء جميل؛ ليس من حقي التفكير فيها الآن؛ ليس من حقي أن أنتهك هذه الخصوصية مرة أخرى، كنت أُحدث نفسي، عليّ "أن أحترم نفسي؛ إنك الآن متزوج ولك أولاد، أمرو انتهي إلى غيررجعة.. أهو كذلك؟"

وجه من الماضي

(٥)

"هناك أشخاص عندما تلتقي بهم تشعر كأنك التقيت بنفسك"

غادة السمان.

أبريل ٢٠٠٦م

لقد تجاوز الوقت بعد منتصف الليل؛ رنات الهاتف (التليفون) المنزلي تعلو بدون توقف؛ لقد استيقظت بدون وعي، وأنا أتخبط في الكموود الملتصق بجانب السرير؛ كنت حذرا حتى لا تستيقظ "أنجلينا"؛ إنها تبذل مجهودا خرافيا الاستيقاظ مبكرا، ومصاحبة التوأم إلى المدرسة الملحقه بالحي، بالإضافة إلى عملها في المجموعة، بصفتها "نائب رئيس مجلس الإدارة"؛ لا أبخل عن أي مساعدة، في سبيل تخفيف جزء من الأعباء الملقاة على عاتقها؛ لا أدعي أنني زوج لايشق له غبار، ولكن بقدر الإمكان.

مساعدتي لها تأتي بفائدة في أوقات كثيرة، حتى في وجود "تريسا" ومغادرة "السجان" لنا بعد هذا العمر الطويل. كانت مغادرة نهائية؛ لأنها خرجت من عندنا إلى صقلية؛ لكي تدفن هناك بناء على وصيتها؛ لقد حزنت عليها طويلا "أنجلينا" وهي تتذكر لها مواقف جيدة، وأخرى كانت لها وقع سيئ على نفسها لأشهر عدة.

كانت "أنجلينا" كريمة لأقصي درجة في وفاتها، تكفلت بجنازتها، وأرسلت جثمانها إلى صقلية، مع مبلغ من المال لابنتها؛ على سبيل مكافأة نهاية الخدمة، وعلى سبيل التكريم لها. كانت رنات الهاتف (التليفون) لم تنقطع عن الرنين، تكاد توقظ التوأم؛ أسرعت إلى التليفون في التقاط السماعة؛ كان على الطرف الآخر صوت كأنه يلهث. كأنه جاء من بعيد، قائلا لي في كلمات خالية من الثقة:

"أعتذر عن هذا الاتصال في هذا الوقت من الليل؛ هل هذا منزل السيدة أنجلينا؟"

إنني أسمع هذا الهاث من بعيد، كأنه كان يجري من مكان بعيد، ولم تعد أنفاسه تطوعه؛ إنه يسأل إذا كان هذا منزل زوجتي؟ في هذا الوقت المتأخر! يالها من وقاحة! كان عليّ أن أتريث؛ حتى لا أنفعل بدون داعٍ، و ابتلعت غضبي قائلا له في هدوء:

"ومن الذي يسأل عنها؟ إنه هو منزلها؟

يكاد الصوت يتقطع، ولا أسمع إلا همساً. إن الصوت مازال يلهث، ولكن وتيرته قد هدأت قليلا، بعد أن علم أن هذا منزل "أنجلينا"؛ للمرة الثانية يكرر الاعتذارعن الازعاج في هذا الوقت من الليل؛ اتضحت لي الآن أن هذا الإنسان الذي يتحدث ليس بأميريكيا، لقد قال ليّ في عبارة بلغة إنجليزية يغلب عليها الطابع البريطاني، ولكني لا أعلم من أي مكان:

"أرجو أن ألتقي بها قريبا؛ إنني أبحث عن أرقام تليفوناتها منذ فترة ليست بالقليلة".

كان كلامه قد أصابني بالحنق، و أنا أنصت لهذا الطلب الغريب منه؛ وبادرته بعبارة شديدة اللهجة، من هذا المتحدث الذي له هذه الجرأة قائلا له:

"هل تعلم من يتحدث معك؟ إنني زوجها إن كنت لا تعلم؟

لم يهتز، ولم يعلق السماعة، بل مازال يتحدث ولم يرتعب؛ كان أكثر مني برودا قائلا لي:

"عذراً سيدي أنا لا أقصد ان أضايقك بهذا الكلام".

لقد كان رده فيه شيء من الاعتذار المقبول، لقد كان بروده يستفزني ويضايقني، حاولت أن أهدأ ولكني لم أستطع قائلا له:

"ولكن من أنت، إذا كان سؤالي لن يزعجك؟"

كان الرد فيه شيء من عدم الفهم من هذا الشخص الذي يطلب مقابلة زوجتي، ويعلم أنني زوجها، ولايعلق السماعة، بل هو مستمر في المحادثة غير المفهومة! كانت إجابة له بدون إدراك، إنني من الممكن أن أثور عليه، ولكن الضغط على أعصابي كان لايطاق، فجاء رده أيضا له من الصلف الذي لا أفهمه ولايطاق؛ كان في منتهى الصلف عندما فاجئني برده:

"أرجو منك إبلاغها بأنني سوف أحضر غدا؛ لكي أقابلها لأنني بعد الظهر سوف أغادر إلى هونج كونج؛ لكي ألحق بعملي هناك، وبالمناسبة اسمي "جون.ر. فيشر"، أرجو ألاتنسَ هذا الاسم؛ أنا سوف أكون في فندق الملك وأرقام تليفوناتي .....

كنت أنصت إلى هذا الصوت، وأدون الاسم، وأرقام التليفونات التي أتلقاها منه؛ لقد أصابني الضيق من هذا الصوت، وهذا الـ"جون" وهو لايتوقف عن إعطائي معلومات في سرعة مع أمنيته الطيبة بنوم هاديء!

هذا الصوت لم أسمعه من قبل، ولم يأت ذكر هذا الاسم ولا مرة واحدة على لسان زوجتي؛ لقد علق السماعة بعد الانتهاء من المحادثة الغريبة؛ الحمد لله لم يستقيظ أحد من بعد هذه المحادثة التليفونية؛ لم أتغيب كثيرا؛ لم تفتقدني زوجتي من تركي للسرير في هذا الوقت من الليل، من النادر أن أستيقظ إلا في حالة استيقاظ أحد التوأمين، لأمر طارئ لرؤية أحد الأحلام المزعجة، وعلاج هذا المو اقف يستقر بين ذراعي؛ حتى يهدأ ويرجع إلى نومه مرة أخرى بدون إزعاج للآخر، ولا أترك غرفته حتى يغط في سبات عميق. أو دخولي أنا لقضاء حاجتي.

لقد تركت الردهة و اتجهت إلى غرفة المكتب؛ لقد ذهب النوم إلى غير رجعة، و أنا أسترجع هذا الاسم الذي برز في قلب الليل، وهو يطلب مني أن أجعل زوجتي تنتظره غدا! إنني محظوظ غدا الثلاثاء، وهي أجازتي الأسبوعية.

أطفالي سوف يذهبون إلى المدرسة غدا بصحبتي، وهذا دوري، ثم أرجع إلى البيت قبل التاسعة، ومن بعد ذلك سوف أكون في المنزل منتظراً هذا السيد الذي جاء من حيث لا أعلم.

كانت ضحكتي بغيظ، إنه يريد مقابلة زوجتي! هذا الـ"فيشر" إن لكنته غريبة إلى حد ما على مايبدو أنه ليس أمريكيا، إنه بريطاني أو كندي لا أعلم؛ ولكنه له جرأة يحسد عليها أن يتصل في هذا الوقت من الليل، ولايرهب الموقف أن من يتكلم معه هو زوجها! ياله من برود وأعصاب يحسد عليها. كان تسللي إلى سريري في هدوء؛ حتي لا تقلق زوجتي. لن أزعجها بهذه الأخبار وبمن يريدها. لقد أحست بي، وهي تفرك عينيها في بطء شديد، وبحركة لاشعورية أضاءت "الأباجوار" التي بجانبها، و أنا أحاول أن أسحب الأغطية. كان سؤال في تثاؤب في شبة غيبوبة بعيدة قائلة لي:

"هل حدث شيئا للتوأم؟"

كنت أحاول أن أتجاهل مكالمة منتصف الليل؛ حتى لا...، ولا داعي لهذا الأمر. وعليّ أن أنتظر إلى الصباح، كانت إجابتي لها بالنفي قائلا لها:

"لقد اطمأنت عليهما فقط قبل دخولي إلى الغرفة، إنهما بخير لا تقلقي، ارجعي إلى نومك، كانت تفرك عينيها، لقد كانت متعبة، ولكنها كانت تنظر إليّ في ريبة؛ لم تقتنع قائلة لي في هدوء:

"إذا كان لم يحدث شيء، ما الذي أقلقك في هذا الوقت المتأخر؟".

كانت إجابة مقتضبة مني؛ لعدم الخوض في التفاصيل؛ حتى يأتي الصباح قائلا لها في هدوء:

"لاشيء".

كنت أحاول أن أنسى أمر هذه المكالمة، إلى أن يأتي الصباح؛ حتى أستطيع أن أستفسر عن هذا الـ"جون"؛ كنت لا أريد أن أزعجها بهذه المكالمة التي لا معنى

لها، ولكنها كانت مصرة أن تعرف ما الذي يقلقني في هذا الوقت من الليل قائلة لي:

"سمير هل تخفي عني شيئاً؟".

لقد نطقت اسمي في دلال "سمير"، وتستند برأسها على ظهري وتحتضن خصري، وهي تحاول أن تعرف الحقيقية قائلة لي في هدوء واستفسار:

"ما الذي يحدث؟"

لقد أدرت لها رأسي كانت نظراتها عميقة، إنها لا تختلف كثيراً عندما التقيت بها، إنها النظرات نفسها، لم تتغير؛ هذا العمق وهذا الحب وهذه الغيرة؛ لقد أقسمت لها لاشيء حدث بالنسبة للأطفال، قائلا لها على الرغم من محاولة الهدوء المصطنع الذي غلب عليّ:

"لاشيء حدث للطفلين، ولكن كانت مكالمة تليفونية غريبة في منتصف الليل، من شخص يدعي "فيشر جون. ر" على مايبدو إنه يريد أن يتحدث معك غدا!".

لم أدرك أن بمجرد نطقي لهذا الاسم، سوف يتغير حال "أنجلينا" إلى هذه الحالة التي رأيتها عليها؛ إنها لاتصدق؛ مرتعبة؛ خائفة؛ مذهولة! لا أعلم على وجه التقريب ما الذي أصابها؟ كأن صوراً أليمة قد رجعت مرة أخرى إلى وجهها؛ لقد تغيرت صورتها وصوتها تماما، بعيدا عن الهدوء! لقد تسمرت في السرير، لم تعد تتحرك؛ لقد أصابتها حشرجة؛ كانت تسعل بشكل غير عادي.

لقد ذهبت مسرعاً إلى المطبخ، وأحضرت لها كوبا من الماء، إنها تكاد تختنق؛ لقد ارتشفت منه بعض القطرات، ولم تستطع أن تتمالك أعصابها! فسقط الكوب على الأرضية، وانسكبت بقية الكمية على السجادة التي تتوسط الغرفة؛ لاأعلم ما الذي أصابها عند ذكر هذا الاسم اللعين؟ لقد وضعت وجهها بين كفيها في حركة طفولية؛ كأنها تخاف من أشباح قادمة لاتريد أن تراها!

كانت تحاول أن تبعد الأشباح بعيدا عن مخيلتها، وآلا تخنقها، كانت تزيح يديها إلا لإبعاد هذه الصور التي تسللت إلى وجهها مرات عدة!

كان الوضع غريباً وغير مفهوم ليّ: كانت تبكي بكاء شديداً يشبه صوت الانتحاب بدون توقف، حاولت أن أقترب منها، أن أخفف عنها؛ كانت إزاحة يدي بتعنيف، آلا أقترب منها! كان الرفض قد جرح كبريائي، لم تمنعني من الاقتراب منها من قبل، كان ذلك نوعا من الرفض الذي لم آلفه من قبل، كان رفضاً يوجد في طياته إبعاد؛ كره دفين. رفض ليّ بدون إبداء أسباب! لا أعلم لماذا لم أفعل شيئا سوى ذكر هذا الاسم: لكن رفضي ليس بسبب ذكرى لهذا الاسم، ولكن لماذا تذكر هذا الاسم الآن؟

إن صوراً تتداعى بدون شفقة، بدون رحمة. إن هذا الاسم يجلب ليّ الشقاء وتعذيب لم أختبره في حياتي سوى في هذه المرة التي ذكرت فيه هذا الاسم: آلايكفي هذه العذابات التي كانت دائما تبعدني عن السعادة؟ كم طرقت هذه الأشباح وهي تطبق علي أنفاسي تريد أن تنتزع روحي من جسدي، بدون سابق عتاب! بل تريد أن تنتزعها بدون شفقة. أنا لم أفعل شيئا! أنا كنت فقط أبحث عن السعادة، ولكن لا سعادة بدون ألم؛ وجوه الماضي يجب أن تبزغ مرة أخرى حتي تأتي لحسابي. يجب أن تظهر مرة أخرى حتى تقتص مني.

كنت لا أفهم شيئاً، كان الغرور يربكني. أقول: غرور وليس ثقة بالنفس: إنني بعد هذا العمر لا أعرف شيئا! كانت طرقات من السنديان قد هشمت رأسي؛ لقد نزف رأسي من هذه الأشباح التي سيطرت علي مخيلتي. كنت أظن أن الخروج عن "السجان"، وعدم وجود الرقابة؛ سوف يعطيني الحق في اختيار ما أريده؛ لا حساب ولا محاسبة. كنت أكثر غرورا من نصائح "فرانسيسكا": لقد غلبني الغرور؛ حتى أصبحت أدعي أنني المسيطرة على مقدراتي، وعلى حياتي، لا دخل لأحد في حياتي، أفعل ما أريده. إدراكي لم أفعله، قد ترك في نفسي جرحاً

غائراً لم يندمل إلى الآن؛ بل لقد هدأ قليلا، ولكن بمجرد تذكره، يفتح ويسكب عليه ماء النار، فيحترق الجسد كله بدون ألم ظاهر للعيان.

كم من المرات قد كفرت عن ذنب قد ارتكبته، و أنا أعلم أنني قد ارتكبته؛ لكن تكفير الذنب لن يأتي بجدواه إلا مع التصالح، وطلب الغفران من الضحايا. إن الخواء وعواء الذئاب في رأسي قد أهلكني، إنها تعوي في بيداء قاحلة، تفترس كل حلم أو فكرة جميلة، كانت تراودني إنه مهلكة، لقد أتت على أفكاري وأحلامي، إنها تأكلني بدون وازع، بدون شفقة، وخلعت الرحمة من قلبها، بل هي أنياب قد غرست في جسدي العاري، أريدها أن تفترسني بهذا الجسد العاهر، وماذنب هذا الو اقف أمامي، ولا يعلم أن زوجته عاهرة؛ لا حق له في سؤالي عن الماضي؛ وعن ماذا فعلت في حياتي السابقة؟ لا حق له في سؤالي؟ أنا لم أخنه في حياتنا الزوجية، ولن أفعل وعليه أن يصدق هذا؟ لكنه شرقي لايعرف هذا الأمر، لقد تغاضي ولم يسألني، وهو يعلم أنه ليس الرجل الأول في حياتي؛ ولكن رجوع الضحايا من الماضي له الحق أن يسأل، وحق المغفرة أو عدمه ليس من حقه؛ لأن الأمر كان قبل ما ألتقيه. سوف يكون هو الآخر ضحية من ضحايا "أنجلينا ألكسندر، إبرا أوجستين أليسندرو" ياللك من ساقطة، لا تستحق الحياة من تتظاهر بالعفة والأمانة. إنك كاذبة لا تستحقين من يقف أمامك، وهو مطبق الشفاة وتعلني رفضك له، ومواساته. ياللك من ناكرة للمعروف، يجب أن يعلم وله الاختيار، يجب أن يعلم أن أخطاء الماضي لا تختفي، ولكن نغمض أعيينا حتى تستمر الحياة هذه هي معضلتي.

إنسانة غبية متطرفة في تصرفاتها، لاتعي شيئا من الدنيا، بل تظن أنها قد استوعبت الدنيا وتدرك ماهي الحياة وطبائع الناس؛ كانت لاتفقه شيئا عن الحب، تظن أنها كلمات تلقي ولا مسؤولية من بعدها. كان عبثا بكل ماهو مقدر له أن يحدث؛ لم أنتظر وقتي ولا حيني حتى أتحسس من القدر من سوف أعطيه

أغلي ما أملك، بهذه الكلمات والألم يعتصرها بدون شفقة كانت تحكي بدون وعي، أو ربما أن الوعي قد نضح بما فيه، فأصبح لا يتوقف عن انسكابه من بئر عميقة، كانت إلى وقت قريب مغلقة؛ لأن الماء الذي في أعماقه قد تحول إلى ملح.

كانت مرارة الحديث والكلمات جعلتني أتسمر في جلوسي على الفوتيل الوثير، والجلوس أمامها، و أنا أنصت لهذه الكلمات. كانت بدون وعي، قد تركت غرفة النوم، و أنا أرى هذا الجسد الفارغ قد تحول إلى قزم، و انتبهت لها سنين العمر؛ لقد أصابها الهرم فجأة بدون سابق إنذار، وهي تجلس أمامي على المقعد العريض، الذي يتصدر مشهد الردهة الواسعة، وهي تحتضن ركبتيها قرفصاء، وتكومت مثل الجنين في رحم الأم. اقتربت منها حتى أخفف عنها، لم ترفض في هذه المرة، بل تعلقت عيناها على وجهي، حتى تقرأ ما أضمره في نفسي، لم تجد شيئا لأنني لا أضمر شيئا لها، بل أريد أن تزيح ما هو يبدو كابوساً.

كنت أتوق إلى هذه الرحلة، الذهاب إلى كندا ليس حبا في كندا، ولكن خروجا عن كبت الحرية من ناحية والدي، أو من ناحية "السجان" التي كانت تحسب خطواتي و أنفاسي. كان لا يجرؤ أي صبي على الاقتراب مني؛ لقد بثت فيّ الرعب منذ الصغر، وهي تروي قصصاً غبية ومرعبة عن الأولاد الذكور، كانت قصصها مختلفة عما أراه، ولكن ظلت حكايتها والقصص التي ترويها عالقة في ذهني؛ حتى بلغت سن التخرج من المدرسة خمسة عشر عاما.

رحلتي إلى كندا كان فيها من التحايل، لا أستطيع أني أتخيل أنني قد فعلت تلك الأمور؛ حتى أخرج من تحت رقابة "السجان": إضراب عن الطعام؛ الخصام الطويل؛ قلة العناية والإهمال كان غباء من غير مفهوم، خضع في الأخير صوت العقل الذي بثته "فرانسيسكا" ناصحة لأبي؛ حتى يوافق؛ لقد

رضخ أخيراً إلى طلبي، وكان سفري إلى كندا هي بداية الشقاء الذي أعانيه منذ ذلك الحين، وربما إلي نهاية حياتي.

كان وصولي إلى بيت عمي "أنجلينو" كأنه كان يوم عيد؛ عندما قابلني في المطار، ولأول مرة ألتقي بالعائلة وزوجته الجميلة "برتا" وهي لاتشبه أمي، إنها ليست بصارمة، ولكنها حازمة هي علي عكس أمي التي هي حازمة وصارمة، وفي بعض الأحيان متقلبة المزاج، ولا تتورع عن فرض رأيها حتى وإن كان بالقوة، وليس بالإقناع. و أبناء العمومة "فيكتور؛ إيز ابيل؛ أوجستين الصغير" إنها عائلة جميلة؛ "فيكتور" يشبه إلى حد ما ابن عمه "مالديني" بنظرات الشقاوة نفسها، والإبداع في المقالب الصبيانية. إن إيز ابيل تشبهني إلى حد كبير بطول العنق نفسه، وبنظراتها الحادة نفسها، وهي ليست سهلة الانقياد، ولكنها مريحة بعد أن تجلس إليها بعد فترة؛ "أوجستين الصغير" مازال كما هو صغير؛ لقد أقنع عمي "أنجلينو" المشرفين على الرحلة أن أظل مع العائلة، و أنه يضمن سلامتها، و أنه سوف يقوم بإحضارها إلى أماكن الزيارات في الأوقات المحددة؛ لقد قام بالتوقيع على تعهد بذلك.

كان المنزل يقبع خارج تورنتو في منطقة هادئة جداً غير صاخبة، ولكني كنت أبحث عن الصخب والخروج، بمعني آخر أبحث عن أحد البارات المنتشرة، ولكن سني لايسمح بذلك، ولكني اعتمدت على جسدي الذي يبدو أن يعطيني شكلا أكبر من سني؛ ولكن تحذيرات عمي إلى زوجته "برتا" كانت واضحة وصريحة، كنت على مدار الساعة تحت ملاحظتهم وعدم تركي لوحدي؛ لكن حدث في الأسبوع الأول حادثة، وهي أن أم "برتا" زوجة عمي قد أصابتها سكتة دماغية، تم نقلها على إثرها إلى المستشفي في مقاطعة أخرى بعيداً عن تورنتو "هاليفاكس"؛ الخيارات أسوأ من بعضهما البعض، أن يأخذاني معهما بصحبة الأولاد، وفي هذه الحالة لن ترى أي من مشاهدتها في كندا!

وفي الوقت نفسه تحمل المسؤولية التي أخذها على عاتقه الذهاب بها إلى الأماكن المتفق عليها.

كان هذا الخيار مستحيلا، والخيار الآخر أن يحضر جليسة لتبقي معي حتى يحضر عمي من هذه المهمة، والتي ربما يطول هذا الوضع. أو إرجاعها إلى المشرفين في مقاطعة "انتاريو" كان الوضع متأزما للغاية، عليه أن يختار وبسرعة؛ لقد اختار أن يحضر "جليسة أطفال": كان وضعاً مضحكا كيف "لجليسة أطفال" أن تتحكم في طفلة عمرها خمسة عشر عاما؛ ولكن هذا ماحدث، لقد أحضرا هذه السيدة العجوز التي بمجرد جلوسها إلى الكرسي تغط في نوم عميق بدون إنذار؛ كانت رحمة بي مع أول يوم، وعليّ أن أمثل عليها بأنني أنفذ برنامج الرحلة الخاص بي بحذافيره، وتذكرة الطيران قد أتاحت لي التصرف بشكل منفرد، لقد ذهبت إلى شلالات "نياجرا" في أنتاريو، ثم رجعت إلي تورنتو بعد قضاء عدة ساعات هناك، وهذا كان تحت إشراف "جليسة الأطفال" التي أقلتني في سيارة تاكسي إلى المطار، ثم أقلتني مرة أخرى بعد رجوعي إلى البيت بسيارة تاكسي مرة أخرى، وبعد ذلك قد اختفيت تماما؛ كانت هذه المرة التي ألتقي به في إحدي الحانات القريبة من المطار.

لقد هبطت الطائرة قبل ميعادها مبكراً في هذا اليوم، هذا أتاح لي الذهاب إلى هذه الحانة، كانت إحدي التجارب المذهلة التي كنت أبحث عنها. لقد سألت صديقاتي عن شعورهن بعد تناولهن الجعة(البيرة) الباردة؛ كان ما ينقلونه لي يجعلني في شوق إلى تجربتها؛ لقد ذهبت إلى الحانة في سن خمسة عشر عاما، ولم يشك أحد في عمري، بل لم يسأل أحد عن تحقيق الشخصية لقد جلست إلي منصة تقديم الخمر، وسحبت كرسيا؛ كان ينظر الساقي إليّ بعيون ثاقبة، وهو يحدق في! كان يشك في عمري؛ ولكني لم أمنحه هذه الفرصة؛ بل طلبت منه كسيدة مجربة آلا ينظر إليّ بهذه النظرات؛ لأنها غير ضرورية ومعيبة مرة

أخرى أن يحدق في وجوه النساء كنت أتكلم كمحترفة، وليس كطفلة، أعتذر بلطف؛ طلبت الجعة المثلجة، أحضر كوبا ثم أحضر الآخر؛ عندما جاء إليّ مقتربا مني، وهو يريد أن يدعوني إلى كأس، قائلا لي في أدب مع ابتسامة كبيرة ساحرة:

"أدعوك لتناول كأس معي".

كان يظن أنني كبيرة بما يكفي، كان جسدي يوحي له بذلك، كانت كلماته تمتدحني على حسني وجمال العينين، وجسدي الفارع قائلا لي في كلمات عذبة:

"أيتها الجميلة ما الذي أتي بك إلى هذا المكان الذي لايليق بحسناء مثلك؟

مكملا حديثة الر ائع الذي يلف برأس أي سيدة في وضعيتي قائلا ليّ:

"هل تسمح لي الحسناء بهذه الرقصة؟".

لقد سحبني من على الكرسي، وهو يدور بي على الأرضية الخشبية، مع وقع الأقدام والموسيقى القادمة من صندوق الموسيقى، لقد دار عدة مرات لقد تركت نفسي له؛ كان الفستان له وقع السحر عليه، ولما لا، هذا الفستان الذي ينطق بمفاتن الجسد، الرقبة الطويلة لم يشك بل كان مقتنعا أنني كبيرة؛ بعد أن رأى كمية لابأس بها من المال، لايمكن أن تكون مع طالبة في مدرسة. اعتذرت له بكل أدب بعد انتهاء الرقصة، بأنني لا أستطيع المكوث أكثر من ذلك أخبرته أنني سوف أذهب الآن إلى صديقتي التي تنتظرني، كان هروب من أول مرة، لم أستطع الصمود قائلة له في سلوك سيدة مجربة:

"إن صديقتي في انتظاري علي أن أغادر الآن.... أرجو المعذرة".

كان هذا سببا واهيا للهروب، ولكن لا مفر من الكذب؛ يبدو على ملامحه الحزن، كأنه كان يبحث عن صحبة في هذا النهار، ولقد وجد ضالته فيّ. كان عليّ

الخروج بأي شكل، ولكنه أخبرني أنه سوف يكون غداً في المكان نفسه، ولكن سوف يكون ليلاً، قائلا لي فيّ كلمات قليلة:

"غدا مساء سوف أكون هنا، أرجو أن ألتقي بك مرة أخرى".

كان يتحسس الكلمات، وهو ينطق بها، كان ناعماً. كان لطيفاً لأقصي درجة؛ وجه دقيق محبب له ذقن خفيفة؛ كان يرتدي بذلة رسمية، كأنه جاء من عمل ليأخذ كأسا قبل ذهابه إلى البيت، ربما يكون متزوجاً لايبدو أنه من المتزوجين، هو بالتأكيد أعزب، ولايهم إن كان متزوجاً أم لا، فهذا شيء لايعنني.

كانت تجربة أريد أن أستمتع بصحبة هذا الشخص، ولكنك لا تعرفين نو اياه، عليك بالحذر لم أنصت لصوت العقل، بل ذهبت بعيداً بمخيلتي؛ حتى تصورت أنه ير اقصني؛ ويقبلني كان الأمر في مخيلتي يعجبني كثيراً، وكان هذا ما قررته أن أجعل "جليسة الأطفال" تعتذر للمشرفين عن عدم ذهابي إليهم؛ بدعوي مرضي. ومن ثم تنفيذ الجزء الآخر من الخروج الآمن من المنزل حتى ألتقي بهذا الشخص، الذي سيطرعلى حواسي تماما في وقتها.

تسللت إلى خارج اليبت، استقللت تاكسيا إلى المكان، ودلفت من الباب، كان أكثر صخباً من اليوم الذي كان بالأمس، لم تزعجني الأصوات بكل كانت تثير غر ائزي إلى أبعد مايكون. أنثى ذات أنوثة طاغية، وهذا الوجه المشرب بالحمرة الذي يشع بهاء، وهذا الفستان لايقل عن إثارة الغر ائز.

لقد انتبهت هذه الجموع على هذه المخلوقة التي أتت من مكان آخر غير الأرض؛ لقد كان يجلس على مقعد بالقرب من المشرب، عندما لاحظ اقتر ابي منه، كان أكثر أناقة كأنه فعلا ينتظرني؛ اقترب مني وهو ينظر إليّ ممسكا بيدي، ويقودها لنجلس على طاولة قرب الأرضية الخشبية(الباركيه) ونحن ننصت إلى الموسيقى، كانت الكلمات لاتسمع، ولكن دفء حرارة الموسيقى جعلت الكلمات بدون معنى، ونحن على هذا الحال.

لقد كان الإحساس بالجوع قد تلاشى مع هذا الكلام الساحر، من "روبرت فيشر" إنه يهودي، ولكنه لم يكن مثل هؤلاء اليهود الذين ألتقى بهم في مدرستي. يذكرني بأستاذ التاريخ الأميريكي السيد "فلتشر" الذي كان يشع ذكاء، ليس مثل مدرسي التاريخ الذين يمتلؤن بالكآبة من سرد الأحداث التاريخية التي هي دائما محاطة بأشخاص لم تلتق بهم، أو تواريخ قد أثرت في البشرية، وأماكن مازالت أثراً أو أصبحت أثراً بعد عين. يجب أن تتذكرها، كان ذكاء السيد "فلتشر" في سرد الحكايات بالتمثيل المسرحي، ولكن "روبرت" كان له الذكاء، ولكنه كان يزيد عليه في إشعاع الثقة، هي ثقة مطلوبة، وأماناً بالنسبة لأنثى، كان طلبه ناعما، لم أتخيل أنه سوف يطلب مني الذهاب إلى منزله بهذه السرعة، لم أكن أتوقع منه هذا، ولكنه تحدث في نعومة بالغة قائلا ليّ:

"منزلي سوف يكون أكثر راحة من هنا!"

لم أسابر أغواره؛ كنت أنظر إليه بعيون ثاقبة، حتى أرى ما بداخله؟ ولكن قلة خبرتي جعلتني أنساق معه إلى مايريده. ذهبنا إلى منزله والمكوث فيه كان طويلا؛ كان أكثرها حباً وشغفاً كانت أسعد أيامي. لم أحتط إلى أي شيء من الحماية في هذه المرحلة، بل تركت الأمور بسجية وعلى طبيعتي. أيام قليلة قضيتها في سعادة، انقطعت فيها عن العالم، بل لم أحاول أن أتصل بعمي، وبعد أيام أخر معه، توجهنا في سيارته إلى إقليم "يوكون" في "وايت هورس" وهي منطقة في غرب كندا، تبعد عن العمران أو من المدن الكبرى، كان هذا بيت أخته التي في مهمة عمل في لندن، وهو في عمل هنا، في "وايت هورس"؛ لأنه في مهمة لبناء نماذج بئية لصالح المحميات الطبيعية في كندا.

كان ساحراً في كلماته وتصرفاته. لقد مر شهر على وجودي معه، لم أتصل بأحد، بل انقطعت فيه عن الدنيا، لم أكن أشاهد أي أخبار! أو أقرأ أي جرائد؛ حتى لا أعلم مايدور! كان أكثر حنانا، كان هو من يقوم بمبادرة المطبخ،

والذهاب معه إلى موقع عمله. لقد كنت في كل مرة أحاول أتصل بأبي، ولكني كنت خائفة من نقمته وعقابه! كنت لا أتصور أن أضرب أو أن أعنف؛ لقد توقفت عن التفكير.

كانت مفاجأة و أنا أرى كمية القئ؛ أرجعت السبب إلى تغير الجو، أو أن الطعام ليس مايناسب معدتي! ولكن تكرر الأمر عدة مرات؛ حتى طلبت أن أذهب إلى طبيب؛ لكي يعرف أسباب هذا القئ؛ كانت أيضا مفاجأة لي أن أعلم أنني حامل في ثلاثة أشهر، قائلا لي الطبيب في كلمات صادمة:

"عليك بالراحة في الأيام القادمة؛ لأنك حامل؛ سوف أكتب لك بعض المقويات لأنك ضعيفة البنية".

كنت أنظر ببلاهة الأطفال، وهو يصرح بهذه المصيبة! طفلة تنجب طفلا! كيف هذا؟ لقد انعقد لساني؛ كان وقع الصدمة عليّ لايصدق، وعليه كانت فاجعة؛ لقد ظهر الوجه الحقيقي له وهو يصب بغضبه عليّ في كلمات صادمة! لم يصدق أنني حامل، و أنني تجاهلت وسائل الحماية! كان أكثر حنقا وغضباً قائلا ليّ:

"كيف تفعلين هذا؟ حامل!! أنت غبية وتصرفتِ بحمق لتوريطي في طفل لا أريده".

لم أستطع أن أتفوه أو أن أحاول أن أدافع عن نفسي؛ لقد تحول الحب في لحظة إلى لحظة صمت! كانت الدموع تغلبني، وهي التي جعلته يهدأ قليلا؛ حتى يشرح، ولكني قد صمت أذاني عن سماعه في حججه الغبية، التي أصابتني في مقتل؛ لقد شرح كثيرا أن ظروفه لاتسمح بوجود طفل، وأن حياته غير مستقرة قائلا ليّ:

"نحن كنا نبحث عن المتعة فقط؛ طفل؟! لاأستطيع أن أنجب الآن، كل ما أخطط له سوف ينهار"

كان يحاول أن يتملص من المسؤولية، لقد أخذ يبرر أن هذا الوقت الذي قضيناه سويا من أجل المتعة فقط، وليس من أجل الارتباط وتكوين عائلة لنا!

كان رد الفعل صادماً بالنسبة إلى هذه الطفلة، التي لاتدري ما تفعل؟ وهي تواجه هذا المصير المجهول! أعطت لهذا الشخص المجهول كليا أعز ما تملك، ولكنه لم يراعي شعوري، كان متجاهلاً تماماً لشعوري ورغبتي في الاحتواء.

مرت أيام سوداء، كان يسألني دائما عن عائلتي؟ كنت أتهرب منه في الإجابة قائلا ليّ في حدة:

"أليس لك عائلة؟"

لقد زاد في حدته؛ كان يسألني عن عملي؟ قائلا ليّ في حنق واضح:

"أليس لك عمل؟ إنك متغيبة عنه تماما؟ ولم تذكريه أمامي ولو مرة واحدة؟"

لقد تجاهلت تماما مايقوله، كانت دموعي فقط هي الملجأ الوحيد الذي لوذت به، فلا أرد عليه، وأحاول أن أتودد إليه، كان يرفض ويصر على الأسئلة؛ حتى انفجرت فيه؛ إنني ليست بامرأة كما يريد أن يعرف. أنا طالبة في مدرسة، تخرجت و أنا في زيارة لعمي في كندا، عندما التقينا قائلة له في تحدي، دفاعا عن نفسي وفي تحملي للإهانات:

"أنا طالبة؛ تخرجت في المدرسة".

لقد هوى تماما على الكرسي الوثير، إنه لايصدق! لقد امتقع وجهه تماما، و أنا أنظر إليه؛ كان الكلام صادما؛ كان ينصت وهو مرعوب تماما، ويضحك ضحكة من هو محكوم عليه بالإعدام هل ما تقولينه حقيقياً قائلا ليّ:

"لا إنك تكذبين؟! إنك لست بالطفلة".

لقد كانت معاملته ليّ تدل على أنه يعامل امرأة كاملة، وليست طفلة؛ إنك بالنسبة لي امرأة كاملة الأنوثة، لا أحد يشك في ذلك. أتعرفني أنني من الممكن

أن أضيع في هذه المسألة التغرير بقاصر؛ عليك أن تتخلصي من الجنين بعملية إجهاض في أقرب وقت ممكن، قائلا ليّ في تحدي:

"أنا من الممكن أن أسجن ويضيع مستقبلي بسببك أنت؛ عليك بالإجهاض".

كان يتحدث عن نفسه، كان كل مايعنيه هو نفسه فقط؛ كنت لا أتخيل مدى الأنانية التي أصابته، إنه يبحث عن الخروج من مأزقه؛ لم يفكر ولا لثانية واحدة في أمري. أنا لقد ظهرت حقيقته الآن فقط؛ لقد رفضت أن أخضع للإجهاض بل أصررت على الاحتفاظ بجنيني؛ حتى وإن كان فيه موتي. كيف أقتل روحا ليس لها ذنب فيما فعلته؟ كان هذا حكمي، و هو أكثر كلاما قد خرج مني قائلة له في إصراروتحدي مني:

"لن أرتكب خطأ بخطأ آخر، إننا مسؤولان عن هذا، ولاذنب لهذا الجنين أن يدفع ثمن أخطائنا".

كان ينصت ويحدث نفسه أنه لن يرتكب خطأ آخر، يكفي أن يحاول أن يجد حلا آخر لما هو فيه؛ لقد رضخ أخيرا لما قلته، على الرغم من ضعفي أمامه، ولكني آمنت بما أفعله.

لم يمسسني طوال شهور الحمل التي قضيتها في منزل أخته؛ لقد حاول أن ينقل من مكانه للهروب، ولكن الظروف حالت بينه وبين هذا الأمر، فتأجل إلى أجل غير مسمى؛ لقد حاولت أن اتصل بأمي أو بأبي، ولكني كنت أسمع صوتهما فقط بدون أن أنبس بكلمة!

كانت وسائل الاتصال في هذه الفترة محدودة، فكان الوصول إليّ صعب إلى حد ما.

لقد حان وقت وضع حملي، فاتجهت إلى المستشفي وحدي! كان شيئا لايصدقه عقل؛ أن أجلب كل شئ لمولودي وحدي، وأن أذهب إلى المستشفى

لوحدي! لايوجد أحد معي. كان هذا أمراً شديد الصعوبة عليّ؛ لم أتخيل نفسي في هذا الوقت، ولا في مليون سنة! لقد كان الأمر صعبا بالنسبة لقاصر، وولادة لأول مرة. كان إحساسي بالمرارة، هذا ماجعل أمر خروج مولودي صعبا للغاية؛ لقد ظللت في غيبوبة لمدة ثلاثة أيام؛ لضعف صحتي. و أيضا لفقدي كمية لا بأس بها من الدماء. كان دخولي إلى غرفة العناية المركزة أمراً حتميا لا مفر منه. كان أعضاء التمريض يسألون عن زوجي؟ أو شريكي إن صح الكلام؟ لا أحد ظهر حتى كان في اليوم الرابع؛ عندما جاءت الممرضة للاطمئنان على إفاقتي قائلة ليّ في بشر وسرور:

"كنا سوف نفقدك؛ نحمد الرب على سلامتك".

كان الموت أهون ليّ، و أنا أنظر إلى نفسي. أنا قد وضعت نفسي في هذه المهانة، كانت ضحكة باهتة مني، و أنا أحاول أن أبادلها الحديث؛ كانت تضحك في وجهي وهي تحدثني كنا سوف نفقدك، ولكن يظهر أنك بخير الآن؛ لقد حضر شريكك وأخذ طفلك، أنه صبي جميل، ولقد استخرج شهادة ميلاد له باسم جون فيشر، وهو سوف يرجع مرة أخرى لكي يأخذك؛ لأن عمة الولد كانت معه على حد قوله قائلة ليّ في سرور:

"حالتك كانت صعبة، ولكنك الآن أنت بخير. إن جون طفل جميل جداً، ولكن لم نستطع أن ندخله إليك؛ لأنك كنت في غيبوبة. لقد فقدت الكثير من الدماء؛ لقد حضر والده وعمته، وسوف يحضران في وقت لاحق".

كانت ما تقوله صادم، إنني لم أر ابني، لم أضمه إلى صدري! كنت أبكي بحرقة لقد زادت في الفاجعة؛ لقد ذهب بطفلي إلى غير رجعة! إنني أعلم هذا؛ لكن الممرضة لم تدرك على ماذا أبكي؟ هل هي دموع الفرح والرجوع إلى الدنيا؟ أو أنني لم أر ابني إلى الآن؟ لقد زادت من ألمي وهي تزيد عليّ قائلة لي:

"كل تكاليف العملية والحضانة قد غطيت من التأمين، من الممكن أن تمكثي هنا حتى تستردي صحتك الضعيفة، وبعد ذلك يمكنك المغادرة في أمان".

كان البكاء قد وصل إلى النحيب، وهي تنظر إليّ في دهشة بالغة؛ لم أصدق ماتقوله كنت أصرخ أنه لن يأتي، لقد أخذ ابني قبل أن أراه! هذا الجزء الذي انفصل عني هو يكملني؛ لم أضمه إلى صدري مثل الأمهات، كانت منزعجة جداً؛ وهي ترى هذا الشلال من الدموع ينساب مني قائلة لها:

"لن أضم ابني إلى صدري؛ لقد اختفى ابني إلى الأبد؛ إنني مجرمة، يا إلهي".

لقد صعقت؛ كانت لا تصدق ما ترى، لقد اختفت تماما عن الأعين، وبعد فترة وجيزة أحضرت إخصائية الصدمات والمشاكل العائلية، لتنصت إليّ، وهي تحاول أن تقرأ ما يحدث. ولكنني كنت لا أقدر على الكلام.

لقد ذهب عقلي بدون رجعة؛ كانت دموعي لا تتوقف؛ لقد حاولت بشتي الطرق أن تفهم مني شيئا، لقد فشلت تماما حتى أصبحت عشرة أيام كاملة في رعايتهم، كانوا ينظرون إليّ بنظرة الشفقة! من هذا الذي يفعل هذه الأمور في هذه السيدة، كانت قد مرت أشهر كثيرة في "و ايت هورس"؛ لقد لقيت عناية فائقة من هذه الممرضة التي عرضت استضافتي في منزلها، بعد أن علمت بالأمر، وحكيت لها ماحدث لي في خلال هذه السنة! لقد مكثت عندها لأكثر من ثلاثة أشهر. ذهبنا فيها إلى منزل أخته، الذي أصبح مهجوراً تماماً! سألنا الجيران عنهما لقد غادروا المكان منذ أكثر من ثلاثة أشهر، ولم يتركوا أي عنوان! أو تليفون للاتصال بهم.

كنت في حالة يرثي لها، لا مال ولا ملابس؛ لكن الفضل لهذه الممرضة التي أخذتني على مسئوليتها الخاصة، و وصلتني إلى عمي في تورنتو، كانت أصعب أيام تمرعليَّ.

لم نذق النوم في هذه الليلة، كانت عاصفة بكل الأحوال؛ كان مايحكي أكثر من الخيال! لكنه و اقع. وأصبحت أنا طرفا في المعضلة، ولن أخرج من هذه المعادلة! خروجي منها معناه تهربي التام، وهذا لم أتعود عليه؛ لماذا تكذب؟ لم تواجه مصيرك من قبل، بل هربت كان الموقف أكبر مني، ولكني الآن أنا أقرب من دحرهذه المو اقف.

لن تقف أمامي بعد الآن، وهذه هي زوجتي التي طالما وقفت بجانبي؛ ولكنها لم تصن شرفها! لقد فرطت فيه، كيف تحكم و أنت لم تكن هناك؛ كيف تنصب نفسك ممثلا للادعاء، ومحاميا وقاضيا؟ أنت ليست إلا إنسان عليه فقط أن يحكم إنسانيته، ولكن أن تظهر النعرات الشرقية، فهذا من المستحسن أن ينتظر قليلاً، وأن يتوارى عن الأنظار في الوقت الحالي؛ ماحدث الآن يتحمل فيها هذا الـ"روبرت" و"زوجتي" ولا يتحمل هذا الجزء ابنها "جون"، ولكني محاسبتي لها لامعنى لها؛ لايساورك الشك أنها قد فعلت هذا في الماضي، من الممكن أن تفعله في الوقت الحاضر!

إنك ليس معصوماً ما فعلته في ماضيك يندى له الجبين، وعندما قررت الزواج بعدت تماما عن ماضيك المؤلم، فلا تكون جلاداً ترتعد فر ائصه عندما يسمع "أنا برئ" لا تكون سوطاً ليد غيرك؛ دورك أن تكون أكثروجودا في حالة الاحتياج لك، وهذا هو الوقت الذي يلزمك أن تكون هنا بجانب زوجتك. لقد كذبت علي! أعلم أنني لم أكن الرجل الوحيد في حياتها.

هذه التجارب في الماضي قد أثقلتني بخبرة لا حدود لها، وخاصة في عالم النساء! لماذا لم تخبرني من قبل؟ لأنه ليس من حقك أن تخوض في الماضي. أنا ملك يمينك وعلي قدم المساواة معك، فهي لاتقل عنك؛ ولماذا لاتحكي عن ماضيك الذي هو كان قشورا من حكايتك ولم تخض في أي شيء يخصك؟ لا لأنك جعلت نفسك فوق مستوى الشبهات، وفوق مستوى التساؤل! لا تكن مغرورا وتأخذك العزة. كل هذا حدث قبل لقائك بها، فلا تكن في برج زجاجي حتى لا يلقي أحد عليك بحجر، فتكسر الهالة من حول القديس "سمير".

إنها في احتياج لك الآن؛ لقد ظهر إلى التوأم أخ آخر من أب آخر "ابن سِفاح" لقد غلى الدم في عروقي! إنه يهودي! كيف يحدث هذا؛ أولادي لهما أخ يهودي؛ هل انزعجت لأن زوجتك قد أخطأت؟ أما أن أصبح هناك أخ يهودي، يشترك معهما في أم واحدة، أم إنك تخلط اليهودية بالإسرائيلية! إنها أصبحت . هي أيضا .جزءاً من التخبط العالمي واللخبطة المأساوية!

ارجع إلى حواسك، ولا تكن صفيقا لا ذنب له في هذه الجريمة، يدفع أخطاؤها الأبناء ولكن الجرح لايندمل أبدا! يبقي غائرا في نفوسهم، مهما مرت الأيام؛ إنهم يكتوون بها طوال حياتهم فلا ذنب لهذا الابن، بل اجعل الأمر أكثر قبولا، أن يتعرف على أبنائك، إنه جزء من زوجتك، وهم جزء منك ومنها. يجب أن يتم التعارف فيما بينهم، ربما إنهم إخوة غير أشقاء، ولكنهم لم يرتكبوا أي جرم يحاسبون عليه؛ إنه ضحية ظروف لم يقر بها، ولم يشهد عليها. كان في عالم الغيب؛ وعندما أتي كان العالم أكثر لخبطة من الآن. لا يدرك أنه تم حرمانه من أمه ولم يرها؛ ولم يدرك حنانها! لقد تربى بعيدا عنها في ظروف أيضا لم يخترها، بل كان مجبرا عليها بدون سبب، وبدون دخل فيها! ما الذي جناه من يوم ولادته إلى الآن سوى الحرمان والشقاء في معرفة أمه؛ لا تكن أنت سببا آخر في شقائه، إنه لايستحق ذلك.

صرخ الصوت مرة أخرى، ولا أنا أكون سبباً في شقائي، ولماذا أتحمل هذا الشقاء؟ وأن أعرف أن هناك أخا غير شقيق لأبنائي! وعليّ أن أتقبل الأمر الو اقع؛ لقد أصبح الأمر ثقيلا على نفسي ولا أستطيع أن أتكيف مع ما تقوله. يجب أن تعطيني فرصة حتى أحدد موقفي من هذا الابن غير الشرعي اليهودي الهوية! الذي طل بوجهه من غابر الماضي، وأطل بصورته متحديا و اقعا جديداً لعله أتى لكي يحصل على أموال، أو "قطعة من الكعك" وماذا في هذا؟ إن "أنجلينا" أمه رضيت أم أبيت؛ لا تعجل بالأمر، انتظر حتى نرى ماذا في جعبته؟ لقد قرب الصباح على البزوغ، وهي مازالت في قرفصاء لاتريد أن تتحرك؛ سوف تحضر "تريسا" عما قليل، ولايجب أن تر انا على هذا الوضع.

لقد حملتها مثل الطفلة الصغيرة، بعد أن أنهكت تماما في سرد ماحدث. كانت مستسلمة تماما، و أنا أضعها في سريرها، ومازالت الدموع تجري على وجنتيها؛ لقد غطيتها تماما انتظارا لما سوف يسفر عنه لقاء هذا الـ"جون".

كان صباحا صامتا؛ التوئم تناولا إفطارهما بشغب الأطفال، ولكنه كان هادئا؛ كان يحسون أن هناك شيئا ناقصا! لم يجدا أمهما كما هي العادة في المطبخ؛ ولكن وجدا "سمير" في انتظارهما، لم يجادلا بل جلسا في هدوء. لكن كانت أعينهم تدور بحثا عنها؛ أدراكا أن هناك خطبا ما، ولكنهما لم يلحا في السؤال. ربما هي متعكرة المزاج، فلا تريد أن تترك انطباعا لديهما. أحضرت "تريسا" كوبا من الشاي إليه وهي تنظر إليه في صمت. إنها أيضا تتساءل في خبث واضح. إن السيدة لم تحضر إفطار الأطفال في هذا الصباح قائلة في خبث:

"ألن تذهب أنجي إلى العمل اليوم؟ إنها قد تأخرت في نومها؟".

لقد شعرت بحس لايخطئ؛ أن الأسئلة سوف تتكالب عليّ اليوم! لقد أخبرتها في إجابة مقتضبه؛ إنها في احتياج إلى النوم في هذه الساعة، فلا تزعجيها

بطلباتك، وأنا سوف أتصل تليفونيا للاعتذار عن عدم ذهابها اليوم إلى الشركة؛ لأنها تحتاج إلى راحة، قائلا لها في عبارة مقتضبة:

"إنها تحتاج إلى راحة؛ سوف تتغيب عن العمل اليوم".

كان عليّ أن أنهي هذه المحادثة في أسرع وقت ممكن. عليّ الآن أن أتحرك، كان عليّ الذهاب بهما إلى المدرسة؛ ولذلك أحسست بحيرة! "تريسا" أخبرتها أنني لن أتأخر بعد توصيل الأولاد إلى المدرسة، عليها أن تطلب من "برنس" أن يحضر الزهور البرية التي تحبها "أنجلينا" وأن تبدأ في ترتيب البيت ونظافته، وأن تحضر بعض الحلوى؛ لأننا في انتظار ضيوف بعد الظهر وعددهم اثنان، ولقد طلبت منها عدم إزعاج "أنجلينا"؛ حتى أحضر بعد توصيل الأولاد إلى المدرسة، لم يكن لها خيرة فيما أقوله، بل شرعت على الفور في تنفيذ ماقد قلته لها، قائلا لها في عبارات مختزلة:

"أخبري برنس أن يحضر الزهور. عليك أن تحضري بعضا من قطع الحلوى، سوف يحضر لنا ضيوف".

كانت تنصت إلى كل كلمة قد قلتها؛ كانت تتحاشاني لسبب ما؛ لاتريد مواجهتي الآن، إنها تشعر بالعار، وأن سرها قد انكشف؛ كان رجوعها إلى عمها يوم راحة له، كان يشعر أنه لم يصن الأمانة التي كانت ملقاة على عاتقه! إحساسه بالذنب كان رهيبا. لم يصدق أن ابنة أخيه قد طلت عليه مرة أخرى، وهو ينظر إليها متفحصا بعد سنة من غيابها.

كان الواقع صادما وهو يسمع من الممرضة ماحدث مع ابنة أخيه في خلال هذه السنة الكئيبة، وهو يسترجع شريطاً من الأحداث من "جليسة الأطفال" التي فقدت أثر "أنجلينا" والمحادثات التليفونية مابين نيويورك وتورنتو وحضور "ألكسندر الصغير" إلى تورنتو وعمل نشرات في الإذاعة والتلفاز المحلي

في تورنتو، وغضبه من أخيه في عدم المحافظة على ابنته التي فقدها. وأمها التي كانت تبكي ليلا ونهارا، وهي تنعى حظها في فقدان ابنتها!

كان أكثر من كان حزينا هي "فرانسيسكا"! لقد أحست أنها المخطئة في هذا الأمر عندما سمحت لها بالخروج من هذه القوقعة البغيضة، من كبت الحرية، لكنها لم تتخيل أن يكون الوضع بهذا السوء! كانت تسمع الكثير عن قضايا الخطف، ولكنها لم تسمع عن شروط الخاطفين! لقد ذهبت إلى أبعد من ذلك، أن توصي بالبحث عن حفيدتها عن طريق إحدى العصابات، والتي لها علاقة بالعائلات الخمس، ولكنه جاء الرد محبطا. إن هذا الموضوع خارج عن صلاحيتهم، كانت تريد أن ترى حفيدتها في صحة جيدة، ولكن سنة مرت! ولم تسمع عنها شيئاً. كانت تردد الكثير من الصلوات، ووضعت الكثير من النذور، كانت تدعو دائما أن تكون بخير. لقد تسمرت عندما سمعت أن حفيدتها بخير. لقد أصرت أن تذهب مع ابنها إلى تورنتو لكي تحتضن حفيدتها، قبل أن يتطاول ابنها، ويزيد من جراحها مرة أخرى.

إنها ليس في احتياج إلى هذا الآن، إنها تحتاج إلى الراحة. كان أكثر شيء مريحا لها أن ترى جدتها وهي تحتضنها في رفق. كان اللقاء مؤثراً، ولكنها كانت حاجزا منيعا لها من غضبة الأب الذي كان قد استشاط غضبا، بعد أن سمع حكاية أغرب من الخيال.

لقد قرب الوقت حتى كانت تحمل في جنباتها كل الحيرة، ماذا يبدو هذا الصبي؟ إنه ليس بصبي إنه رجل الآن، يبحث عن أمه التي أهملته! وتركته بدون أن تبحث عنه؛ كيف هذا؟ و أبوه لم يترك أي دليل من ور ائه. كانه قد مسح آثاره من بعد صيده، ولا أعرف في أي مؤسسة يعمل بها؟ حتى أخته كان يغلف أمرها الغموض! وهل هو إنجليزيا أم كنديا؟ لا أعلم. كنت أظن أنني أكثر ذكاء،

ولكني الآن أدرك أنني كنت أكثر غباء. يجب أن أنهض لأرى مايحدث، و أنا أرى "تريسا" مالذي فعلته في هذا اليوم؟.

كان خروجي بعد أن تأنقت، يجب أن يرى أنني سيدة، وعلى قدر من المسؤولية في استقبال ضيوفي؛ ولكنه ليس بضيف إنه ابني!؛ تعترفي الآن أنه ابنك! ما الذي يجعلك تصدقين أنه ابنك؟ ربما هي خدعة أخرى من أبيه؛ لكي يبتزني؛ لأنه الآن يعلم بالضرورة أنني سيدة أعمال، لقد أصبحت محنكة في هذه الأمور، لقد أصبح لي تجربتي.

لا تنخدعي بهذه الطريقة، يجب أن تكتشفي أولا من هذا الذي اتصل بالأمس؟ ويدعي أنه ابنك! إنه ابني بالتأكيد، إحساسي بذلك لا يكذب! أين كان إحساسك في الماضي؟ كنت صغيرة وغريرة لا أعرف شيئاً عن الدنيا! علي بالانتظار، وآلا أتسرع في إصدار الأحكام.

كان الانتظار مؤلما، لم تهدأ "أنجلينا"، كانت تذرع الغرفة ذهابا وعودة، وهي تنظر إلى الباب، كانت ترقب جرس الباب، وسماع أي من الخطوات غير المألوفة لديها. كنت أنظر إليها وهي تنظر إلى ساعتها، لقد حان الوقت، إنها بضع دقائق، وسوف تظهر صور من الماضي ولكنها حية، لحم ودم! وليست أشباحا!

شخص كامل يبحث عن حقه في أمه؛ يبحث عن من الذي قد حرمه من حنانها. لقد توقفت فجأة عن الحركة؛ لقد جاء ابني وها هو يقف على الباب! إنني أشعر به، وهي تسمع جرس الباب، وتفتح "تريسا" الباب، ويظهر أمامها "برنس"، ومن ورائه شخصان، لم يتبين ملامحهما بعد، ولكن "تريسا" قد تركت جزءاً من جسدها بعيدا قليلا عن مدخل الباب. إنه هو، إنه ابني بالتأكيد، ملامح الوجه نفسها، الوجه الدقيق نفسه، ولكن له ملامح الوجه نفسه المشرب بحمرة. ومن هذه التي تظهر من خلفه؟ ربما زوجته، أو حبيبته؟ إنه أصغر من أن يكون زوجا؛ لقد أفسحت "تريسا" الطريق لهما، وهما يدلفان

من الباب. كانا ينظران إلى هذه السيدة التي تسمرت في مكانها، إنها هي بالتأكيد. إنه بالتأكيد، إنه يشع بالسعادة والاضطراب إنه يحمل زهوراً برية في يده، هي الزهور التي أحبها! إنه متأنق وجميل الملامح، ومن معه لاتقل عنه أناقة.

لقد ذهبت إليه مرحبة، وهو ينظر إلي في نظرات عميقة، إنه يسألني كيف تتخلين عني؟ لم يكن ينطق بهذا، بل عينيه تحوي بذلك، إنك لم تبذلي أدنى مجهود أن تبحثي عني! لقد أهملتني تماما، كأنني لاشيء! اصطحبته من يده، وأجلسته بجانبي، ولم أنتبه كثيرا لمن معه، بل كان تركيزي كله منصباً عليه فقط. لقد أدرك "سمير" مافعلته فاصطحب المر افقة له؛ لكي تجلس بجوار "جون" خلفه تماما؛ اتخذ "سمير" مجلسه أيضا ليس بعيدا عنهم؛ لكي ير اقب الموقف وما الذي سوف يحدث.

كانت "أنجلينا" تنظر إليه في تمعن واضح، وتتفحص وجه لعلها ترى أي علامة مميزة له؛ إنها لم تره منذ ولادته؛ كانت تريد أن تقرأ ما الذي يدور في خلده؛ ما الذي يدور في عقله الآن؟ هل هناك اتهامات لي؟ بالتأكيد سوف يكون لقاءً عاصفاً، ولكن لن أدافع عن نفسي، بل أريده أن يفصح عما بداخله؛ لقد بدأ بالاعتذارلـ"سمير" عما بدر منه ليلة أمس، والاتصال متأخرا قائلا في عبارة رقيقة:

"أعتذرلك على ما سببته لك من متاعب بالأمس".

كان عليّ أن أقبل اعتذاره، فله كل العذرقائلا له:

"لم يحدث شيء؛ لا عليك".

لقد قبلت اعتذاره بابتسامة صغيرة، وهو يكمل معتذرا لنا، لم يتم التعارف بينهم جيدا، قائلا لنا في تعريف صغير:

"هذه خطيبتي لينا، وهي إنجليزية الأصل و أنا.....

لم يكمل، بل أكملت له "أنجلينا" اسمك "جون روبرت فيشر" ابني؛ لم تدعه يكمل، بل عجلت بالإجابة قائلة في فرحة يغمرها دموع، قد فرت من عينيها:

"ابني جون فيشر".

كان ينظر إليها، وينظر إلى خطيبته التي جلست خلفه تماما؛ وهو فاغر فاه قليلا، لم يصدق نفسه أنه سوف يتم تصديقه على الفور قبل جدل كبير؛ لكنه عجل بأن هذا صحيح ولكنه عليه الآن أن يكمل بقية القصة، قائلا لها في عبارات أخرى، إن الاسم ليس إلا بداية الحكاية:

"سألت أبي عليك مراراً، من هي أمي؟".

كان دائما يتهرب من الإجابة، ويصيبه الوجوم بمجرد ذكر اسمك، كان من الممكن أن يبكي بالساعات حبيس غرفته. كان هناك سر دفين لايريد أن يبوح به؛ حتى عمتي "مارثا" لقد سألتها عدة مرات عن أمي، من هي؟ ولماذا تركتني؟ كان الصمت دائما يلف إجابتها بالغموض؛ كان أبي دائما يبكي عندما يأتي ذكرك. كان يتحاشى النظر إلى وجهي، كأنه يريد أن أختفي عنه، كان هذا في لندن.

وفي يوم من الأيام كان قد دخل البيت، ومعه مجلة، كنت أنا دائما ما أقرأ هذه المجلة أثناء دراستي في الجامعة، وبعد تخرجي كانت هذه المجلة تسمي "عالم اليوم"، وهي خاصة بالأعمال التجارية، كنت أستقي منها معلومات عن عالم الأعمال، وكانت علي الغلاف صورة لسيدة؛ لم أر والدي يحتضن هذه المجلة بهذا الشكل؛ لأنه بمجرد دخوله من الباب يدفع هذه المجلة إلي، ولكن في هذا اليوم احتفظ بهذا العدد بالذات. إنها الوجه نفسه، و الاسم نفسه "أنجلينا أليسندرو"، السيدة القوية، نائب مدير مجموعة

"أليسندرو" لم يصدق. لقد توقفت "أنجلينا" أمام هذه العبارة كثيرا قائلة له:

"نعم أتذكر هذا اليوم، لقد تم انتخابي سيدة الأعمال لهذه السنة، كنت أصغر سيدة اعمال في القارة الأميركية".

لقد أكمل "جون" كنت أحاول أن آخذ منه هذه المجلة، ولكنه تركها بعد شد وجذب، وعندما أخذت منه هذه المجلة، ونظرت إلى الاسم، فقلت هذا الاسم ليس بغريب عليّ إنه الاسم نفسه المدون في شهادة الميلاد "أنجلينا ألكسندر أليسندرو"؛ هل هي مصادفة؟ أم هي أمي بالفعل؟؛ الآن عليه أن يحكي.

لقد أخذ يحكي؛ كان يغلب عليه الأسى، كانت مطارق الذكريات تدق في رأسه، كانت الدموع تتساقط منه بدون هوادة. إن تورطه في التغرير بقاصر! اتهم نفسه بالأنانية، وأنه لم يفكر إلا في نفسه فقط؛ لم يعطك فرصة لكي ترى وليدك! كان يقسو على نفسه بشدة، وهو يحكي ويبكي بكاء مراً. كان عليه أن يختفي بالوليد قبل أن تقبض عليه الشرطة، وهذا مافعله مع عمتي، عندما أخذني من المستشفى، واستخرج شهادة ميلاد لي، وبموجبها تم إضافتي على جواز سفره، وتم سفرنا إلى لندن، بعد ولادتي بعدة أيام، وطوال هذه المدة كان في حالة شرود دائما.

كان يبحث عن شيء يكون سببا في نسيانه، كانت الخمر سبيلا له! كان دائما ينظر خلفه، كان يشعر بوجود أحد يطارده. كان شعوراً بالوهم! كان أكثر ما يخشاه أنه سوف يحكم عليه في حالة إثبات التهمة عليه. اعترف أنني في هذه اللحظة كنت أكرهه بالفعل، ولكن بعد فترة قدرت موقفه، ربما أنه أخطأ، ولكن خطأه أتى على حسابي!

الأن أنا من فقدت حنان أمي! والصلات التي تربطني بك؛ وفي يوم من الأيام جاءت الشرطة لتخبرني أنه قد وقعت حادثة له، وهو كان يقود السيارة مخمورا؛ كان الأمر صادما في بداية الأمر، ولكن شروده جعلني أصدق؛ أنه من الممكن أن يحدث له مكروه، ولكن لم يكن الأمر يصل إلى وقوع حادث مؤلم بهذا الشكل! كان عليّ تقبل الأمر؛ لا أخفي عليك كنت أشعر أن الإله قد انتقم منه بما فعله بكِ، وفي الوقت نفسه أنظر إلى الأمر أنه فقط حادث مؤسف من الممكن أن يحدث لأي أحد! ولكن حالته النفسية كانت على غير مايرام من وقت قراءتي لاسمك.

وبعد ذلك ما قرأته من مذكراته التي تركها عنكِ وعنه، وذكريات خاصة في "وايت هورس" والحانة التي كانت في تورنتو، وفستانك المثير كانت كلها علامات تدل عليك؛ لقد سألت عن السجلات في المستشفى في "وايت هورس" والممرضة التي أخذتك إلى بيتها، واستضافتك هناك لقد التقيتها، وهي الآن متقاعدة، وتركت التمريض. لقد دلتني على عمك في تورنتو، ولكن رفض أن يعطيني أي معلومات عنكِ، وكان هذا غريباً لأنني لا أريد شيئا منك. لقد ظن أنني أريد أن أبتزك أو أن أشوه صورتك أمام المساهمين في تحقيقات الجرائد الصفراء، ولكن هذا لم يأتي في فكري، ولا أفكر فيه مطلقا. إنني فقط كنت أريد أن أعرفك، أن أعرف من هي أمي وعائلتي التي لم أرها مطلقا.

كانت "أنجلينا" تنصت في صمت مطبق، وهي تنظر إليه والدموع قد أغرقت الجزء العلوي من الفستان الذي ترتديه، وهي تنظر في صمت، وتنظر إلى صديقته "لينا" التي كانت تبكي أيضا، وتخفي وجهها في ظهر "جون"، وهو يحكي. كان تشعر بألمه، كانت تشعر بكلمات الصدق، وهي تخرج منه، وهو يحكي ربما للمرة الألف قصته، وهي تنصت إليه بدون ملل.

كانت تريد أن تعرف هذه السيدة التي أعطيت ولادة لهذا الشاب الصالح. انه حنون ولا يحمل ضغينة لأحد، كان هذا أكثر ما يعجبه فيه؛ كان شغفه أن يعرف أمه. لقد لف نصف العالم حتى يتعرف على أمه. لقد عبر المحيط حتى يعرف من هو؟ كان يكمل "جون" قائلا لها في خوف:

"لقد حاولت أن أذهب إلى الشركة عدة مرات، ولكني كنت أخاف من ردة الفعل، ولكني حاولت أن اعرف تليفون عملك، ولكن دائما ما يوقفني شيء ما، ولكني بعد فترة استجمعت شجاعتي وحاولت أن أتحصل على تليفون منزلك وقد كان.

كان نطقة لاسمي؛ يعترية بعض الخوف "أنجلينا" كان ينطق الاسم، كان لايستطيع أن ينطق بكلمة "أمي"، لقد قاطعته مرة أخرى قائلة له في ود وحب، وهي تمسك بوجهه:

قل "أمي".

كان هذا أمرا غريبا على نفسه، أن يتحسس الكلمة على لسانه وينطقها، وأخيرا قال لها:

"أمي".

كانت هذه الكلمة هي جائزتها، وجائزته أنه الآن يعرف أن له أم، وهي لها ابن آخر.

لقد أدخلت "تريسا" عربة الشاي، وعليها قطع من الحلوى وهي تنظر متفحصة هذا الوجه الذي أتى من الماضي! إنها بالتاكيد كانت تتنصت علينا! لقد ظهر أخ غير شقيق للتوئم؛ كانت تنظر في ريبة إليه، ولكن الآن هي مطمئنة، الآن إنه بالتاكيد ابن هذه السيدة التي تجلس أمامه، إنه يشبها كثيرا.

لقد تركت الأمر لي تماما، حتى تتركنا يكمل ما بدأه؛ لقد أكمل بعد أن ناولته فنجان الشاي، كنت قد سبقته بتقديم فنجان لصديقته التي أخذته مني في امتنان. اخيرا انتبهت "أنجلينا" لوجودي، وهي ترى أني قد قمت بوظيفة المضيف لهم؛ أرادت أن أتعرف إليهما قائلة لهما في سرور:

"هذا زوجي سمير جلال، أبو أولادي محمد ومريم".

كان وقع الأسماء غريبا عليهما؛ كان رد الفعل "جون" غير متوقع، إنه ليس الوحيد، بل إنه له إخوة كان سعيدا قائلا لها:

"انني لي إخوة؛ إنني لست وحيدا في هذه الدنيا، إذا كنت أتمني أن ألقاهم، و أتعرف عليهم".

طلبت "أنجلينا" أن يبقي قليلا؛ حتى يلتقي بهما، ولكن اعتذر اليها في منتهى اللطف، إنه لايستطيع الانتظار أكثر من ذلك؛ كان يريد أن يلقاهم، ولكن الوقت ليس في صالحه قائلا:

"عليه أن يستقل الطائرة إلى هونج كونج؛ لكي يستلم عمله في بنك مهم، لأن عمله سوف يكون في البورصة؛ لقد ترك أرقام تليفوناته هناك وعنو انه".

لم ينتظر حتى يكمل فنجان الشاي؛ لقد وقف فجأة، كان في عجلة من أمره، وهو يخبر امه بنبأ زواجه من صديقته قائلا:

- العام القادم سوف أتزوج من لينا".

وهو يقبض بكفيه على يد صديقته "لينا" وهي تبتسم ابتسامة ساحرة جذابة، مكملا حديثه و اقفا:

"و أنت لست في احتياج إلى دعوة، والسيد سمير أيضا وإخوتي، بل سوف تقفون بجانبي عند زواجي، أتوعديني بذلك من الآن؟

نحن ننصت بهدوء شديد فيما يقوله. إنه يدعوني ويدعو أبنائي وهو لايعرفنا؛ ما هذا الذي يحدث؟ كنت دائما أتحدث عما تبثه الأفلام الأميريكية من أحداث؟ كنت لا أصدق مايحدث و أتحدث إلى نفسي، إنه شيء مبالغ فيه، لماذا؟ لأنه لايحدث إلا في الأفلام، ولكنه الآن هو يحدث أمام عيني!.

إنها لاتصدق أن ابنها بعد هذه الغيبة الطويلة سوف يدعوها إلى حفل زفافه! لقد احتضنت وجهه بين كفيها، واستغرقت في قبلة طويلة لخده، ثم التحم الثلاثة في قبلات فيما بينهم؛ "أنجلينا" كانت تنظر إليه أن ينتظر قليلا، متمنية في نفسها حتى يقابل التوأم، ولكنه اعتذر؛ لانه لايستطيع الانتظار أكثر من ذلك.

كان احتضان هذا الابن شيء لايصدقه عقل! أن ترى هذا الإنسان بلحمه ودمه أمامك ولايريد منك شيئاً. هذا الغريب لم يستغل الموقف، على الأقل أن يبتز أمه عاطفيا! لم يفعل كان يريدها هي، وليس أموالها، كان لايهمه ما الذي تملكه، كان موقفه أكثر من نبيل، لم يستغل الموقف لصالحه.

كان ينظر إلى أمه على أنها ضحية لأبيه، الذي لم يراعِ ظروفها؛ كان هذا أكثر ما يحزن "أنجلينا" أن ترى ابنها لايريد شيئاً منها تعويضاً عما حدث له من فقدانه لحنانها؛ كان هذا ما يعذبها! كانت تريد أن ينتقم منها، أن يعنفها. ولكنه لم يفعل، بل ترك الأمر.

كان رد الفعل عادياً، و أنت ترى "أنجلينا" وهي تحتضن ابنها حضناً طويلاً، كأنها تريد أن تعتذر له عما بدر منها في حقه، وهو يأخذ طريقه مغادراً منزلها! لا أخفي أنني في هذا اليوم قد بلغت مشاعري الذروة، و أنا أرى شتات أم مع ابنها يتجمع تحت سقف بيت واحد، بعد هذه السنين الطويلة! ولن أكون أنا الجلاد، يكفي هذا الشقاء المستمر.

المصارحة

(٦)

"أصعب معركة في حياتك عندما يدفعك الناس إلى أن تكون شخصا آخر" وليم شكسبير

نوفمبر ٢٠١٠م.

اليافطة الألمونيوم التي بجانب الباب؛ تفصح عن الشخصية التي خلف هذا الباب "مدير التخطيط والتوسعات". التجربة التي خاضها في سبيل تطوير فرع الشركة في "برونكس" جعلت أسهمي في الشركة ترتفع؛ بعد أن تم الاعتماد على السكان والشاب الذي يبحث عن عمل وخاصة من المتعطلين، كان الهدف هو إرضاء المجتمع المحلي؛ وذلك قد ساعدني كثيراً في خلق بيئة صالحة للعمل، و أيضا زاد من شعبيتي وسط هذا المجتمع المتعطش إلى العمل.

كان الاعتماد على المقيمين، كان خليطاً من كل الجنسيات، ليس قاصراً على لون أو جنسية في إدارة المطاعم الذي أيضا ارتفعت مبيعاته، وأصبح أيضا في أمان بعد عدة عمليات لسرقته، لقد هدأ الأمر تماما؛ أصبح السكان المحليين أكثر حرصا منه بعد أن حظى أبناؤهم على وظائف في المطعم والشركة.

كان الدور الاجتماعي الذي قام به المطعم له أبلغ الأثر عليهم؛ مما جعل "ألكسندر الصغير" يعطيه الفرصة للتطوير، وخاصة مرحلة الانتشار التي تأخرت كثيرا بعد الأزمة الاقتصادية في ٢٠٠٨م، لقد استفاد منها كثيرا، مع شراء ديون البنوك؛ لقد ارتفعت إيرادته بعد ذلك إلى مقاييس لا أحد يتخيلها، وهذا ماجعل الإسراع بأعمال الانتشار والتطوير أن تسرع وتيرتها؛ لقد وكل إلى "سمير" بعمليات الانتشار والتطوير في الساحل الغربي؛ عليه اليوم أن يرسل بكافة التفاصيل إلى الشركة حجم الاتفاقيات التي وقعها مع السيدة "ليلى دي

ماركو" سيدة أعمال من الطراز الأول، وهي أرملة قد ورثت عن زوجها وهي أصغر منه بقرابة ثلاثين عاما ثروة "لابأس بها" على حد تعبيرها؛ وهي الآن تعيد استثمار جزء من ثروتها وتوزيعها على أنشطة أخرى في مجال الأعمال التجارية. لها شهرة واسعة على امتداد الساحل الغربي الممتد من آلاسكا إلى كاليفورنيا.

أنشطتها تتعدد مابين استخراج الذهب والنحاس والبترول وزراعة الحمضيات والكروم، ومجال الفنادق والمطاعم، هي المحفظة المالية الأخيرة التي تريد أن تستحوذ عليها على طول الساحل الغربي، ولم تجد غير مجموعة "أليسندرو" لكي تستثمر جزءاً من أموالها في هذه التجربة الفريدة. لقد اجتمعت بها "أنجلينا" عدة مرات في نيويورك، و أيضا قد ذهبت عدة مرات إلى كاليفورنيا؛ لكي تلقي نظرة على ما الذي تفكر فيه هذه السيدة؟ على الرغم من أنها لم تبلغ الأربعين إلا أنها على درجة فائقة من الجمال. لقد حاول الكثيرون مخاطبة ودها، ولكنها كانت عصية عليهم. لم يستطع أحد الاقتراب منها، لأنها كانت حذرة في تصرفاتها؛ لم تعطي أحداً منهم فرصة؛ كانت حازمة إلى أقصى درجة، وفي درجة من درجات العنف لاتتورع عن تنفيذ تهديدها بمجرد شعورها خاصة في الخيانة، وخاصة مع أسرار أعمالها؛ كانت بدون قلب.

لقد جلس "سمير" يكتب تقريره عن المواقع التي قرر أنها تصلح لإقامة بعض المطاعم على طول الساحل الغربي. كان يرسل بصور محملة علي ملفات مضغوطة إلى مكتب "أنجلينا" كان الاتصال على skype وهي تستفسر عن هذا أو تلك. كان الرد مباشرة؛ كان يرسل هذه التقارير من مقر شركة أنابيب البترول لصاحبتها السيدة "ليلى دي ماركو". تم توفير كل شيء له.

لقد قاربت الساعة على السابعة مساءً كان منهك القوى لم ينعم بدقيقة واحدة من الراحة؛ لقد دخلت عليه وهو مستغرق في عمله، وعلى الطرف الآخر يظهر وجه "أنجلينا" وهي الأخرى قد استغرقت في عملها، ولم تكف عن

الأسئلة؛ لقد انتبه إلى وجودها بجانبه، وهي تنظر إلى "أنجلينا" كان حديثها يحمل الكثير من علامات الدهشة قائلة له:

"آلاتكفون عن العمل أيها "اليانيكيز"؟ لقد حان وقت الراحة والاسترخاء والطعام العمل دائما لاينتهي.

"ليلى" كانت تنبهها:

أن الوقت قد تأخر، وتريد أن تذهب إلى بيتها؛ إنها ليس لها أولاد، ولكنها تريد أن تسري عن نفسها".

لقد نظرت "أنجلينا" إلى وجه "سمير"، تريد أن تستفسر هل هناك شيء آخر تريد أن نسأله؛ لقد هز رأسه أنه لايوجد شيء، وعليه الآن أن ينال قسطاً من الراحة قبل رجوعه إلى نيويورك، ولكن جاء طلب غريب من "أنجلينا" قائلة له في حزم:

"لا تأتِ غداً بل انتظر، نريد أن تبحث عن مكان مناسب لعمل منتجات لنا في الساحل الغربي.

كان الطلب غريباً؛ لأنه يعلم أنها تسعي في هذا الموضوع منذ فترة بعيدة، وجاءت لها بعض العروض، ولكنها لم تبت فيها؛ كان الطلب غريباً؛ لأنه يتطلب سؤال شركات العقارات على طول الساحل الغربي، عن طريق البريد الإلكتروني الذي من الممكن أن تفعله وهي في غرفة نومها.

كان الطلب غريباً، ولكن أمام العمل لايستطيع أن يرفض، من وقت بعيد جدا قد وضع حداً للعلاقة الزوجية، وعلاقته المحددة بنائبة مدير المجموعة، كانا منفصلين تماما.

لقد تحدثت كثيراً عن شغفها بالسياسية، وتريد ترشيح نفسها في مجلس النواب، كانت وجهة نظرها تحمل الكثير من الحقيقة، ولكنه في الوقت نفسه

سوف يحمل الكثير من الأعباء عليها. علينا الانتباه إلى الأبناء الذين لن يظلوا في كنفنا إلى أبد الأبدين! يجب علينا أن نقضي كثيرا من الوقت معهما.

كانت حجتها أن الأعمال لاتزدهر بدون سياسية، وأن قوة الأعمال ترتبط بقوة السياسية كان هذا مجال الجدال طوال السنوات الماضية، لقد لاقت الترحيب من عضو الكونجرس، لقد وعدها بالمساعدة في حالة تقرير ترشيحها إلى الكونجرس عن طريق الحزب؛ لما له من علاقات داخل الحزب الجمهوري، إنه رئيس لجنة العلاقات السياسية داخل الحزب، إنه صاحب نفوذ عظيم وكان هذا مايقلقني.

أصبحت علاقتنا الزوجية على غير ما يرام، قد أصابها الفتور منذ فترة بعيدة، لقد أصبحت عصبية؛ لا نستطيع أن نكمل محادثة زوجية في هدوء، دائما ما تنتهي إلى غضب وثورة بدون داعٍ قائلا لها في إحدى هذه الثورات:

"إنك تريدين العالم على مزاجك أنتِ، ولا تشعرين أن هناك شريكا لكِ في حياتك! إنني إنسان لي حقوق، سواء في العمل أو في المنزل، لماذا لاتقدرين هذا؟".

كانت تنظر إليّ في دهشة، ويرتسم عليها علامات السخرية التي لم أقبلها قائلة لي:

"لا تنس نفسك؛ هذه المعارف والعلاقات بسببي أنا، ليس لك دخل فيها، عليك أن تنصت إلى نفسك؛ هذه الأموال والملابس من مالي أنا".

كان كلامها إليّ جارحاً بشكل لايصدقه عقل! لقد زادت الهوة بيني وبينها قائلا لها:

"لم أكن في يوم من الأيام عالة عليكِ، ولولاي لكنت الآن في عداد الأموات.

لقد تجاوزت الحدود معي، وهي تنظر إليّ بنظرات السخرية مرة أخرى قائلة لي:

"لقد قبضت الثمن من "فرانكا" الله يرحمها، من توظيفك وإعطاك آلاف الدولارت أيها الشحات!".

ربما كان هذا صحيحاً، ولكنها قد تخطت الحدود مرة أخرى، و أنا أنظر إليها، لم يعد الكلام مجديا، لقد غلت الدماء في عروقي؛ حتى كانت صفعة قوية على وجهها. ربما أكون أنا السبب في هذا الأمر، لأني لم أتحدث معها في هدوء، بل كان دائما كلامي ينتهي بثورة عليها بدون سبب. كانت دائما تبتعد عني حتى علاقتنا الزوجية كانت دائما فاترة! لم نصلح من أمرنا، بل تركنا الأمر ولاشيء يحدث، هذا ما جعل الابتعاد عن بعضنا البعض يطول بدون شعور منا بذلك؛ كانت نفسي تحدثني أن هذا لاشيء؛ بل هذا طبيعي أن يمر الأزواج بهذه المنحنيات فلاداعٍ للقلق؛ ولكني أتذكرلها ما قد قالته من قبل:

"إن شجرة الحب يجب أن تروى كل يوم، أن تسهم في وجوده وازدهارها لامعنى لوقفها، إنها شجرة صامدة أو مثمرة وشئ آخر انك لا تستطيع الاحتفاظ بامرأة".

ماذا تعني بهذا الكلام؟ هل هذا الحديث له مغزى عندي؟ ربما كانت تعني شيئا ما؛ إنني لم أحتويها منذ فترة؛ هل أنا علي وشك الخروج من دائرة اهتماماتها ماذا تهي بأنني لا استطيع الاحتفاظ بامرأة؟ انها ما زالت تتذكر نوال بعد كل هذه السنوات فهي تتذكرها كغريمة لها وليس كماضي وال، اعترف لقد تركت العمل يأخذنا إلى أبعد من ذلك الاحتواء الذي تبحث عنه لقد اهملت، كانت الفرصة الوحيدة لنا منذ عدة سنوات، عندما ذهبنا إلى لندن لحضور زفاف ابنها "جون" على صديقته "لينا" وهي تحمل هذا "الطشت" الصغيرمن المعدن الأبيض، بعد أن ذهبت إلى "المكيفيا" ويعتبرهو حمام العروس أو ليلة الحناء للعروس، قبل الزفاف وسط صديقاتها

وعماتها، وكانت في صحبة هؤلاء قبل الزفاف الديني، الذي أقيم تحت هذه المظلة البيضاء، لقد أخذنا التوأم إلى هناك، كانت إجازة لأول مرة في حياتنا الزوجية، أن نأخذ هذه الفترة الطويلة، بعيدا عن العمل تماما، لقد شعرا التوأم بالراحة لأول مرة.

ومن قبل عندما ذهبنا في رحلة قصيرة لرؤية أمي في القاهرة، ورؤية أولاد عمهما هناك؛ لقد كان هناك أريحية كبيرة، عندما ذهبا إلى المعادي، لقد تم تجديد الفيلا بالكامل وفرشها مرة أخرى من أجل الأولاد؛ لكن منذ ذلك الحين لم نستمتع بإجازة أخرى؛ ما زالت على الشاشة عبر الـskype وهي تحدق بي، و أنا أسمع صوتها يصرخ قائلة في حدة:

"سمير؛ سمير" هل تسمعني؟

كان الرد بطيئا، لقد أصاب ثقل في لساني؛ حتى كان الرد ثقيلا قائلا لها في بطء:

"نعم أسمعك و أنصت إليك جيدا".

كان حديثها قد اتسم بالحزم والصرامة ليّ قائلة ليّ:

"عليك أن تبحث عن مكان جديد بمواصفات معينة، تصلح لكي يكون موقعا مهما للمصنع المقرر إنشاؤه على الساحل الغربي؛ لكي يغطي الساحل الغربي بالكامل؛ توفيرا للتكلفة في النقل بين الولايات".

كان حديثها قد أصابني بالدهشة! هي أن تطلب مني ذلك الآن، و أنا في طريقي إلى نيويورك مرة أخرى؛ أنا في الساحل الغربي منذ أكثر من عشرة أيام؛ لقد تم اتخاذ القرار بعدة مو اقع على طول الساحل الذي جوبناه في طائرة مروحية خاصة بشركة أنابيب البترول وبصبحتي السيدة الثرية "ليلي"؛ كان الحديث مقتضبا، و أنا أرى هذه السيدة قد أصابتها الدهشة! و أنا أنظر إليها بألا تسأل. كانت هناك نظرة مع ضحكة بلهاء، لم أفهمها؛ كان حديثا ينم عن خبث لم أدركه في وقته قائلة لي:

"من الممكن أن تكون النساء لهم متطلبات أكثر من اللازم".

كان هذا تلميحا في غير محله، لم أفهمه في وقته؛ لقد غادرت الشركة مع أوامر منها بتعليمات صريحة إلى سائق السيارة:

"آلا يتركني حتى أصل إلى مقر إقامتي".

كان هذا كرم زائد لم أتعوده. كان يبدو أنه بعد هذه المدة الطويلة تعودت أنه لايوجد شيء في أمريكا بدون مقابل، لقد تناسيت كلمات منها "ولايهمك؛ فداك؛ أنت كده بتشتمني إلخ. "لقد أوحشتني هذه الكلمات، ولكن هنا الوضع مختلف. الابتسامة لها سعر! الزمن المادي قد طغى على المشاعر الإنسانية؛ لقد وصلت إلى مقر الإقامة وهو فندق يسير على الطريق المؤدي من كاليفورنيا إلى سان فرانسيسكو، مرورا بالحي الصيني، الذي طغى عليه كل ماهو صيني، لاتكاد تسمع كلمة باللغة الإنجليزية ولما لا؟ الكل موجود في ولاية الشمس المشمسة والبرتقال.

كنت في أمس الحاجة إلى حمام طويل، وعشاء خفيف، ونوم طويل؛ تسلقت السلالم الخشبية إلى الدور الثاني، فاتحا غرفتي التي تطل على الطريق السريع. لم أفضل أن أنزل في أحد الفنادق الفاخرة، بل فضلت أن أكون بعيدا عن ضوضاء المدينة، وأن أكون خارج المدينة.

لقد أخذت الدهشة "ليلى" وهي تسمع من السائق أين أقيم؟ هذا الرجل مدير التطوير بالشركة وصاحب الخطوات في تطوير الشركة! لايريد أن ينزل في فندق فخم، وهو متزوج نائب المدير! ياله من شخص غريب؟ لايوجد غرابة في الموضوع. الطريق السريع مابين نيويورك وسان فرانسيسكو ليس بهذه الضوضاء، بل علي العكس هادئ تماما، ولكن المدينة لاتهدأ بالمرة، هي تشبة نيويورك. لقد طلبت بعض الأطباق الصينية من مطعم من الحي الصيني على

أن يتم توصليه إليّ في عنوان النزل على الطريق السريع. إنني أسمع صوت طرقات على الباب لعله أتى بطلبياتي من الطعام.

لقد فتحت الباب، و أنا أرى هذه السيدة التي تركتها منذ فترة قصيرة، وهي تنظر إليّ في شغف، وتلبس فستانا كاشفا لصدرها ولظهرها تماما! لقد دخلت بدون استئذان، واضعة طلبياتي على المنضدة التي تتوسط الغرفة، وهي تنظر إليّ حاملة في اليد الأخرى زجاجة من "النبيذ"؛ لقد أفصحت عن نواياها؛ لقد انتصبت و اقفة، وعليها ضحكة صغيرة، وهي تنظر إليّ مستوضحة وهي تحدثني قائلة ليّ:

"إنك عندك التفكير السليم، أن تترك المدينة، وتكون بعيدا عن العمران. إنه فرصة جيدة لي أن أتعرف بك أكثر، بعيدا عن الثرثرة، ونظرات المتلصصين".

لقد وقف عقلي تماما عن التفكير، فأنا لست هذا الشخص الذي يشبه نجوم السينما، بل إنسان أقل من العادي. لم أخن زوجتي من قبل، ولن أفعل. ولكن يبدو أن هناك إصرارا منها يجب آلا أعطيها الفرصة؛ ربما أُمر مع زوجتي بفترة فتور، مثل كثير من الأزواج، لكني بقيت على العهد منها، آلا أخونها؛ ولماذا تشعر هذه السيدة بالوحدة؟ إنها تملك من الأموال ما تستطيع أن تشتري عشرة رجال أفضل مني؛ لكن الأموال لاتشتري رجال، بل تشتري أطفالا.

كانت تعرف مايدور في رأسي؛ لقد تعلمت الكثير من زوجها الراحل الذي علمها الكثير من أسرار الفراش. إنها سيدة ناضجة بمعني الكلمة؛ إنني لأول مرة ألاحظ أنها لا تخاف، بل ظلت و اقفة تنظر إليّ وهي تتفحصني؛ لقد سألتني في أنوثة طاغية قائلة ليّ:

"هل لن تتناول أي طعام لقد دفعت ثمنه على الأقل، ادعوني لكي أتناول شيئا معك أم أنت بخيل؟".

لقد واجهت مو اقف كثيرة مثل هذه عدة مرات، ولكني لأول مرة يتم محاصرتي في عقر داري! كان دائما هناك مخرج ومفر من هذه المطبات غير المحسوبة، ولكن السؤال إلى أين؟ كان هذا حصارا، وأين أذهب في هذا الوقت من الليل؟ لقد تجاوزت العاشرة مساء وأريد الراحة؟ إنني منهك ولا أقدر على المغادرة؛ عليّ أن أواجه هذا المصير المظلم؛ لقد سحبت كرسياً لكي تجلس عليه، ولكنها لم تفعل! لقد سحبتني إلى الفراش مباشرة، بدون سابق إنذار، ولكني حاولت إبعادها عني. ولكنها لم تبرح مكانها فوق صدري! كدت أدفعها بيدي بعيدا عني، ولكنها قد التصقت، همست في اذني قائلة ليّ في لغة من التهديد:

"إذا فعلت ما يغضبني و أبعدتني اعتبر الاتفاق لاغياً، وسوف أتهمك بالتحرش بي، وتعلم ماذا يحدث لأمريكي من أصل شرق أوسطي؟ ماذا سوف يحدث له إذا اعترضت، ولن أكتفي بذلك، بل سوف أبلغ زوجتك بما فعلته، وسوف تلقي مصيرا مجهولا بعد ذلك!".

كان هذا تهديداً واضحاً وصريحاً لا مفر؛ لقد دفعتها بعيدا قائلا لها في هدوء:

"عليك أن تفعلي كل مافي وسعك لن أرضخ لابتزازك".

كانت تبكي، إني لا أصدق هذه الدموع بعد أن كانت متنمرة، أصبحت مثل القطة الأليفة، إنها ذات خبرة، وأصبحت تبكي؛ لقد كان رفضي لها مؤلماً موجعًا.

كان رحيلا مزعجا؛ لم أنتظر طويلا في سان فر انسيسكو، بل مع أول ضوء من الصباح كنت في المطار، مع أول طائرة مسافرة إلى نيويورك؛ كان صباحاً مزعجاً، لم أذق فيه طعم النوم؛ كنت في عجلة من أمري، و أنا أجمع حاجاتي داخل الشنطة بدون ترتيب، لقد تكومت داخل الشنطة بشكل غريب؛ جعلني

أضغط عليها بكل ما أوتيت من قوة؛ لقد كان استعجالا بدون مبرر، ولكن كان خروجا من الاضطراب الذي أصابني؛ لم أتعود على الخيانة؛ لم أخن من قبل، على الرغم ماكان يحكي عني من قبل من "شلة المعادي"، إلا أنني لم أختبر هذا في علاقاتي بالمتزوجات أو حتى المرتبطات في علاقات غرامية. كان هذا من المحظورات. وكان هذا العرف سارياً بين أفراد الأصدقاء كان في عرفنا من المحرمات التي لايصح الخوض فيه، على الرغم من ارتكابنا الكثير من الآثام المتعارف عليها بيننا، إلا أننا كن نتحاشي هذا الأمر. وأصدقكم القول لا أعرف لماذا؟؛ كان الشئ الراسخ في أذهاننا أن الخيانة لا يرضاها أحد كما سمعت من قبل أن الخيانة إرادة واختيار.

لم أترك سيارتي في المطار. استقللت سيارة الأجرة من المطار، وأنا في شرود تام مما حدث في الساحل الغربي؛ لم أخبر "أنجلينا" إنني في طريقي إلى نيويورك؛ قد أغلقت تليفوناتي النقالة خلال سفري، ولم أستخدمها بالمرة. هي بالتأكيد قد علمت بما حدث من السيدة المتصبية التي حاولت إغوائي؛ كانت تنظر إلى الأمر أنه نزوة أو علاقة عابرة، لا أحد سوف يلاحظ هذا الأمر! بل سوف يمر مرور الكرام.

ليس هذا الأمر ما كان يشغلني؟ كان يشغلني كم الأكاذيب الذي سوف يبث عن طريق هذه السيدة!. حالة العلاقة التي بيني وبين زوجتي، ربما تسمح بمرور مثل هذه الأكاذيب؛ لكن عليها آلا تصدق هذا الأمر لقد عهدتها على آلا أخون من أول يوم زواج؛ لكن ربما تنسج هذه السيدة الكثير من القصص الملفقة؛ ربما الأمر يتجاوز أنه فرصة لنمو أعمال المجموعة، وإنني قد ضيعت هذه الفرصة من أمامها. بدون وعي الكلمة خرجت قائلا:

"لاأبالي".

سمعها السائق وهو ينظر في المرآة العاكسة، إن كنت قد قلت شيئاً؛ جاء الرد سريعا: "لاشيء" لقد وقفت السيارة تماما بجانب الرصيف؛ لقد نقدته مبلغاً من المال بجانب إكرامية لابأس بها، وهو يتمنى لي يوماً سعيداً.

كان نزولا أمام "برنس"، وهو يقف بالقبعة العالية أمام باب البناية الضخمة، وهو يفتح لي الباب الأمامي للدخول؛ محييا إياه علي ذوقه، وهو يتقدم أمامي لفتح باب المصعد. لم أساله عن أي شيء. بالتأكيد التوأم مازلا في المدرسة. وبالتأكيد القلق قد ساور "أنجلينا"؛ لقد أخرجت التليفونات النقالة، و أنا أنظر إلى هذا الكم من الرسائل والمكالمات الفائتة. لم أفتح لأرى فحوى هذه الرسائل؛ لأنني أعلم فحواها، وما الذي يدور حولها؛ لقد بلغت عدد المكالمات أكثر من سبع عشر مكالمة من هذا الصباح! لقد قرب الوقت على الظهر. أنا في احيتاج إلى راحة طويلة وترتيب أفكار لحين عودة "أنجلينا"؛ لكي نقر ما سوف نفعله مع هذه السيدة؟ ولن أتحمل التعنيف أو التقريع منها على فوات هذه الفرصة.

لن أسمح لها، وعليها أن تصدق أنه لا يعنيني هذه السيدة، بل يعنيني في المقام الأول أولادي وهي، ومدى احترامهما لوالدهما؛ لقد وصلت إلى الشقة، فتح بالمفتاح باب الشقة؛ لايبدو أحد هنا! اليوم هو الثلاثاء يوم عمل عادي. أين هي "تريسا" يبدو أنه لايوجد أحد في المنزل؛ ولكن هناك صوت يأتي من الغرفة الداخلية. ما هذا الصوت؟ إنه صوت ابنتي "مريم" لماذا لم تذهب إلى المدرسة اليوم؟ لكن أين "محمد"؟ اليوم؟ الذي تمرد على دراسته! لقد قرر أن يلتحق بالبحرية الأميريكية، وأن يكون في القاعدة الأميريكية في اليابان، بجوار صديقته اليابانية "اشيكا" التي زرت مدرستها العام الماضي. آلا تكفي هذه اللخبطة؟ ابن غير شرعي يهودي! وربما أطفال من يابانية! يالها من ورطات لا داعي لذكرها الآن.

لماذا لم يتواجد بجانبها في هذا اليوم؟ إنها في العام القادم سوف تذهب إلى لندن في منحة تبادل طلاب؛ لقد تم قبولها في كلية لندن للأعمال، وسوف تبدأ العام المقبل.

إنها تضحك بصوت عالٍ مع شخص آخر لا أستطيع أن أتبين من هو؟ هذا الصوت لصبي أو لرجل! من هذا الذي مع ابنتي في غرفتها؟ لقد استشطت غضبا و أنا أسمع هذه الأصوات المختلطة! هذا بالتأكيد صوت رجل! انها تنطق باسمه "تيم"، من هذا الذي يعبث مع ابنتي؟ كيف تجرؤ على هذا العمل؟ والفعل البغيض المشين؟

لقد بثت فيها كل التعاليم الدينية والأخلاقية؛ للمحافظة عليها وآلاتقع في هذا الفعل الآثم؛ اقتربت من غرفتها والضحكات تتعالى منهما؛ فتح باب غرفتها كان فيه رهبة وخوف مع الارتعاب من رؤية مايحدث في الداخل! كان الوضع رهيباً لم أكن أتخيل أن أكون في هذا الوضع والموقف بالنسبة إلى أب في هذا الوضع الضيعف، الذي لايتناسب مع الجرم الحادث أمامي!.

كان جلوسي في الردهة، كان بكائي مراً مثل النساء اللاتي فقدن عزيزلديهن؛ لقد اتهمتني ابنتي بأنني؛ قد اغتصبت حريتها، كانت تصرخ في وجهي لقد تعديت على حريتها الشخصية في اختيارمن تريده قائلة ليّ في وقاحة تحسد عليها:

"إنك تغتصب حريتي؛ ليس لك الحق في الدخول إلى غرفتي بدون إذن!".

كان الصمت مطبقاً! لقد أصابني بالفزع، لم أعد قادرا على النطق! كانت وقاحة لم أتخيلها! أن تصدر من ابنتي التي لم أبخل عليها بنصائح عن العفة والشرف! ولكن كيف تستقيم الأمور وهي محاطة بكل سبل الإغواء؛ والسخرية من كل صديقاتها، عندما يعلمن أنها ما زالت عذراء؛ كن ينظرن للعفة والشرف على أنهما من علامات التخلف والأمور البالية التي لاتصلح في الألفية الثالثة!

أوضحت لها عدة مرات بأن العفاف شئ لاينظرعلى أنه من التخلف؛ بل هو عزة للمرأة، لا يناله إلا من يستحقها. كانت تنظر إليَّ، وهي تلملم ثوبها في بطء، غير مبالية بأنني أنظر إليها وهي عارية تماما، كانت تخفي جسدها عني؛ كنت أريد أن تتوالى الصفعات على وجهها؛ هذه الآثمة التي لم تراعي الأخلاقيات ولا حرمة جسدها! ولن أقول ديانة أو شرعية، وهذا الـ"تيم"، هذا الغريب يتفحص جسدها، وهو لايبالي بنظراتي له، بل كان ينظر إليَّ كأنني قد جئت من عصور الكهوف المظلمة! لقد أطلقها علي قائلا ليّ في صلف:

"والدك غير متحضر!"

كأن الحضارة لاتكون حضارة من وجهة نظرهم، إلا مع اغتصاب واغتيال الشرف والعفة! هذا هو التمدن والحضارة؛ لقد انتبهت كثيرا لهذا الأمر، وكان في اعتقادي أن هذا الأمر لن يحدث ما دامت قد تحصنت من كل هذه الشرور! كنت مخطئا.

لقد طال جلوسي في الردهة، وأن أنظر ومطاطئ الرأس إلى الأرضية الرخامية، و أنا أسمع بدخول "أنجلينا"، لقد سمعتها عدة مرات، وهي تنادي عليّ، والصمت يلف المكان، و أنا أنظر إليه والدموع تكسوني تماما؛ لم تتحرك من مكانها! كانها تعلم بما حدث؛ لقد حكيت لها ابنتي بما صدرمني؛ لقد أخذت تعنفني على مافعلته؛ لقد اقتحمت غرفة ابنتي قائلة ليّ في تعنيف لا أفهمه بعد هذا العمر الطويل:

"لقد انتهكت حرمة غرفة نومها! كيف تجرؤ على هذا الفعل؟".

إن رأس العائلة قد اقتحم غرفة ابنته، بدون سابق استئذان؛ لقد تجاهلت خصوصيتها؛ لم أراعِ شعورها؛ لم أطق ما تقوله، كانت ثورة عارمة مغلفة بدموع غزيرة. كيف تو افقين على هذا الأمر؟! كان صوتي قد بلغ من العنف ما

لم يحدث من قبل. كنت أحدثها بما فعلته في الماضي كان حديثي طرق شديد من المطارق على رأسها قائلا لها في لوم ليئم:

"لا تدعيني أذكرك بما حدث لك من قبل، وتورطك في علاقة عاطفية كان من ورائها "جون"!

اعترف كان ضربا تحت الحزام، ولكن كان لابد منه؛ لكي تفيق بما تقوله، ولكنها كانت تجاوزت هذه المرحلة، ولم يعد يؤثر فيها علي الإطلاق؛ لقد نظرت إليّ بنظرات غريبة! ونطقت لي بكلمات تدل على جهلي بحقائق الأمور. إن ابنتي لا سلطان ليّ عليها، وهي تفعل ما تشاء في جسدها! قائلة ليّ في نبرة من البرود الذي استفحل:

"لا شأن لك بهذا الأمر إنه جسدها ولا سلطان لك عليها".

كنت لا أصدق ما تقول! لقد تسمرت في مكاني! محاولا أن أرد الصاع لها مرة أخرى، قائلا لها في عنف:

"كيف تو افقين على هذا الأمر؟ إنها مازالت قاصرة! وهي تحت سقف بيتك!".

كان ردها أكثر عنفا مني، ما تقوله هو صحيح، ولكنها قاصر لا تدرك ما تفعله قائلة ليّ:

"من الممكن أن تزج بك في السجن، لقد تعديت على حريتها الشخصية، ولم تعتد بها كأنثى لها حقوق أن تستضيف من تريده أو تختاره"!.

الحديث كان لايجدي مع زوجتي! كنت أريد الخروج؛ لقد بلغ بي التعب و أنا أنظر إليهم جميعا؛ لقد وصل بي الحال إلى حالة الانسداد الكلامي، لا أريد أن أتكلم مع أحد؛ كان الصمت يلف المكان؛ يجب أن أخرج من هذا المكان بأسرع ما يمكن، لا أستطيع أن أنظر إليهم! إنهم يعدونني من عصور إنسان الكهوف! غير متمدن، ولا أفقه شيئاً عن الاختيار والحرية؛ لأنني قد جئت من مجتمع

يقوم على التعسف، وكبت الحرية، وعدم احترام الرأي الآخر. كأن الحرية عندهم شيء مقدس ولا حدود له.

كان كل شيء بالنسبة لِيّ له حدود؛ ولا أحد يتوغل على حريته، أو حرية الآخرين، لقد قلت مرة إن حدود الإنسان مثل حدود الدول لا يجوز التوغل فيها، أو الاعتداء عليها، وأن تحترم الدول حدودها وحدود الآخرين، وألا تؤذي نفسك أو تؤذي الآخرين. كأن هذا كلام متخلف، قد عفا عليه الزمن؛ لقد قالتها زوجتي مرة لي لا تستطيع هذا مع الدول العظمى لأن الدول العظمي تسمح بتدخلها، ولا تسمح لك بتدخلك، هذه هي الحرية وهذه حرية الاقوياء وتصرف الاقوياء فقط! لا هذه ليست بحرية هذا اغتيال للحرية! وما ينطبق على الدول ينطبق على الإنسان، لا ضرر ولا ضرار.

لقد أخذت حقيبتي التي لم أفرغها من حاجاتي، وأخذتها نزولا على الدرجات الرخامية. لم أنتظر المصعد حتى يقلني من الدور العلوي؛ لقد استغرقت في النزول كثيرا؛ جذبا لشنطة ملابسي، متدحرجة من أعلى السلمات الرخامية؛ لقد أخذ "برنس" يتفحصني، لم يدرك أن هذا الـ"تيم" سبب في نزولي من بيتي! لم يدرك أن هذا الموضوع سوف يسبب كل هذه التعاسة البادية على وجهي! و أنا أنظر إليه أن يستوقف سيارة أجرة لكي أستقلها؛ لقد فتح الباب الأمامي ليسمح لي بالخروج من الباب الأمامي، حاملا بدلا عني الشنطة؛ لقد استوقف سيارة الأجرة؛ لقد نطقت له بأنني أريد "برونكس"

كان أمراً غريباً مني؛ إنني أريد أن أذهب لكي أرى "الجنرال". لقد سألت عليه عدة مرات؛ إنه دخل عدة مرات إلى المستشفى لعمل فحوصات له، ولقد تعرض لأزمة قلبية، دخل على إثرها إلى المستشفى لعمل قسطرة للقلب. لم يكن الوضع خطيراً، ولكن يجب أن أطمئن عليه هو كان المعلم الأول لي في هذه

البلاد الكئيبة! لقد تجاوز الآن الثمانين من عمره؛ لقد ذهبت السنين الجميلة إلى غير رجعة.

كان ينظر إلى البناية العالية، إنها لم تتغير ما زالت كما هي، كان يحدث نفسه بأن الذين تغيروا نحن!. هل كان يقصد التفخيم في نفسه؟ أم أنه يقصد العائلة التي تغيرت؟ أم هي الظروف التي تغير من الناس؟ هي المشكلة الأبدية التي لاتتغير، بل هي مشكلة بشر مشكلة منذ قديم الأزل فطبيعة الأرض لاتتغير، بل من يغيرون فيها هم البشر والنفس البشرية.

إنه الطريق نفسه الذي سلكته منذ عدة سنوات بعيدة، ولكن في الأولى أتيت إليها وكل الآمال معقودة على كاهلي، أن أحقق جزءاً من طموحاتي التي لم تتوقف، هل الظروف ساعدتني على ذلك؟ كان يبتسم ابتسامة سخرية، ولكن كم من التضحيات قد دفعتها في سبيل سلوك هذا الطريق. أرى أن الذي قد رأيته اليوم لقد ذهب بهذا الطموح والذي حققته هباءً: أنا لم أحافظ على بيتي، أو قيمها! بل تركت "النداهة" تنادي عليّ حتى أتى "تيم" و أفاقني من الحلم الذي أعيشه؛ لقد أفاقني على صفعة مدوية، وكانت الأداة من لحمي ودمي، هي ابنتي التي قد صفعتني! وليس هذا الـ"تيم".

لم يتغير المدخل كثيرا، بل المدخل أصبح باهت الألوان قليلا، لقد تآكلت الألوان مثل تآكل السنين التي مرت عليّ، كأنها الدهر في الساعات الماضية! إنه يجلس في مكانه والنظارة الطبية قد تدلت قليلا من على أنفه، مازال على عاداته القديمة، يرمق بطرف عينيه الباب الرئيس، و أيضا بطرف عينيه الأخرى عناوين الصحيفة. إنه لم يتغير برغم تآكل السنين من عمره إلا أنه ما زال كما هو "جنرال" حتى في مجلسه.

لقد انتفض من على كرسيه، وهو ينظر إليّ متحققا؛ نعم لقد تغيرت هذه حقيقية لامفر منها إنه يبحث عن هذا الشاب الذي أتى في يوم من الايام وهو يقطر من الأمطار مع السائق الهندي، وهو يسأل عن غرفة. ما الذي أتى به في هذه الساعة؟ إنه يعلم أنه في رغد من العيش، وأصبح شخصاً مسؤولا في شركة زوجته، ربما أتى اليوم للسؤال عني؟ ولكن ما هذه الحقيبة التي يحملها؟ ربما يحتاج إلى مكان للراحة من عناء اليوم. ولماذا لم يتجه إلى بيته بدلا من مصاحبة ورؤية "النرويجي" مرة أخرى؟ لقد ضحك ضحكة قصيرة، وهو يقترب منه محتضنا إياه مرحبا به؛ كان ينظر إليه في صمت؛ لقد ظهرت عليه علامات السنين في بضع ساعات سأله سؤالاً واضحاً: ما الذي أتى به في هذه الساعة من الليل قائلا ليّ:

"أي ريح طيبة أتت بك إلى هنا؟"

لقد غلبني الصمت، لا أريد أن أتحدث؛ كنت أريد أن أخفي ما بداخلي! لا أريد لأحد أن يطلع عما يعذبني في هذه الليلة البائسة، التي لم تترك جزءاً في جسدي إلا ويتألم؛ كنت لا أريد أن يفصح عن مكنون صدري، الذي أصبح مثل المرجل المشتعل؛ لقد فهم "الجنرال" أنني لا أريد أن أتحدث إلى أحد، بل لقد غلبني الصمت، فلم يطل عليّ، لقد سألني عن رغبتي قائلا:

"أن كنت أريد أن أقضي ليلتي هنا؟"

لقد أومات برأسي إليه، قائلا له في همس وضعف واضح:

"نعم أريد أن أقضي ليلتي هنا في غرفتي".

إنه لايريد أن يثقل عليه، بل اصطحبه في هدوء إلى المصعد، ومن المصعد كان الصمت يلف هذه الغرفة الصغيرة، التي ضاقت بالجسدين والمثقلة بهموم الدنيا. لقد تصور "سمير" أن المصعد قد تكاسل في الطلوع، إنه يحس بالأدوار

تطبق على صدره في الصعود! وأخيراً وصل إلى الطابق الرابع. إنه الدور نفسه، والهدوء نفسه. إنها الغرفة نفسها التي كانت بالأمس.

استيقظ "سمير" الذي ربما لم يتعد نومه بضع دقائق، تخلل نومه الكوابيس والأحلام المزعجة التي سيطرت عليه، وهي تراود عقله الباطن، وتردد الصور السوداء وهو يرى ابنته عارية الجسد؛ وتطفق بملابسها لتواري ماتبقى من جسدها؛ لم تخجل من هذا الـ"تيم" الذي كان يتفحص جسدها بعيون عارية، ولم يخجل من رؤيته؟ بل لم يعجل بخروجه! بل كان يتمهل في وقوفه وخروجه من أمامه في بطء؛ يرزح عقله في صور أخرى عن مدى أفكاره البالية التي لاتصلح في أمريكا! "إنك أمريكيا، عليك أن تنسى أنك مصري"؛ وهل عليّ أن أنسى أني إنسان يعرف معني العفة والشرف والعذرية حتى في الأفكار المتقدمة! هل حقا إنني يجب أن أتخلى عما تعلمته وأعرفه، بأن الأخلاق لاتتجزأ عن التقدم! بل الأخلاق ترتبط بالتقدم، وترتبط بالعلم أيضا، لاغني عن الأخلاق والشرف والعذرية، فهي أيضا لاتخص المرأة، ولكن تخص الرجال أيضاً.

الصور المرتبكة في عقلي الباطن قد أصابتني بلوثة عقلية، لا أصدق أن هذا يصدر من زوجتي؟ لقد اتهمتني "بالتخلف والرجعية"! فأهلا ومرحبا بالرجعية والتخلف؛ من أجل المحافظة على كرامة ابنتي؛ هل هي كرامة ابنتي حقا ما أبحث عنها؟ أم هي كرامتك أنت التي تبحث عنها؟؛ حتى لايقال عنك إن ابنتك قد "استحمرت" أباها؛ لقد استخدمت هذا اللفظ "الحمار" حتى تعرف أنك لم تكن هناك حاضرا في أخطر مراحل ابنتك العمرية؛ لا أريد أن أبرح من مكاني، بل أريد أن أظل فيه. لا أريد أن أوجه هذا المصير الغامض؛ حتى أبنائي لا أعرفهم!!.

كان نزولي إلى الدور الأرضي معجزة بكل المقاييس! لا أريد أن أتحدث مع أحد، ولكن نزولي لرؤية "الجنرال" كان أمراً فأنا في أشد الاحتياج إليه؛ أن أتحدث فقط بدون توقف؛ أريد أي أحد ينصت إلى أوجاعي.

كانت "أمي" تنظر إليّ فقط وتعرف مايدور في خلدي من أفكار؛ كانت تقرأ أفكاري فقط وهي تنظر إلي! أين هي الآن؟ هي تبعد آلاف الاميال، ولكنها تشعر بي وما أمر به؛ إنها في المكان نفسه. كأنه لم يفارق مكانه، بل كأنه تشبث به منذ قديم الأزل، إنه ما زال مثل المس، بل ربما زادت رقعة السحابة البيضاء في رأسه.

لقد مرت السنون الكثر وهو على الحالة نفسها؛ لقد نظر من تحت نظارته الطبية وعلامات العبوس تكسو الوجه، مثل غيمات المطر؛ لم ينتظر أن يسألني مابي؟ ولكنه دفع إلي بكرسي؛ كي أجلس معه قليلا؛ لم يستعجل، بل ما جعلني أثرثر بالكثير إنه ما زال يتذكر احتسائي للشاي، لقد أحضر كوبا من الشاي وهو ينظر إلي مليا، إنه مازال يتذكر؛ لقد أخذت أثرثر منذ أتيت إلى هذه البناية؛ حتى أتيت إليه بالأمس، لم يقاطعني في حديثي، بل تركني أثرثر وأعربد في كلمات وفي جمل طويلة حينا، وقصيرة في أحيان أخرى؛ بل كان ينصت إليّ في شغف وبدون ملل.

كانت علامات التعجب تكسو وجهه مرة، ومرات أخرى علامات الاستهجان والإنكار مرات عديدة كنت أشعر أنه يفهمني؛ هل هو قريبا مني إلى هذه الدرجة حتى يفهم ما أعانيه؟ المشكلات الإنسانية واحدة لا تختلف من جنسية إلى أخرى كلها متشابهة لا تحتاج إلى تفاسير، بل هي من معين واحد، هي المعاناة الإنسانية ومشكلات الإنسان الحياتية على مدار عمر البشرية.

شعرت بالراحة من هذا العبء الذي أرزح تحته؛ لقد كانت ثرثارة مجدية؛ واعترف أنني لا أحتاج إلى نصيحة، بقدر ما أحتاج إلى أحد يسمعني، واعتقد أن

"الجنرال" قد قدم نفسه ليلعب هذا الدور جيدا، إنه منصت جيد، ولا أقول مستمع جيد؛ إنه ينصت فقط بدون أن يعلق، إنه لايبحث لي عن المشورة بقدر مايبحث عما يريحني. وهذا في بعض الأحيان مفيد أن تجد الراحة في من تحدثه، لاتريد أن تسمع نصيحة، بل تريد من ينصت إليك بدون الحكم عليك مسبقا.

كان لسان حاله أن ما يستمع إليه قد مر عليه عدة مرات، ولكن هذه المرة المعاناة أكثر مما يحتمل هذا الإنسان الجالس أمامه، ومعاناته ينطق به وجهه الذي اكتسي بالمعاناة إلى أن تأصلت في نفسه، من العجز عن التكيف والاصطدام بحضارة غير حضارته.

اعترف و أقر أنني أخطأت؛ هذا أول الخيط للإصلاح؛ لقد تركت الأولاد وهم في أهم سنوات العمر، تركت أهم الأشخاص من أجل العمل والمال، وزيادة رصيدي في البنوك عدة آلاف من الدولارت؛ لم أعد أمكث في البيت غير ساعات قليلة؛ أغلب الأوقات في حديث عن الأعمال والخطط المستقبلية.

اعتمدت على "الست هانم" ومربية في تربية الأولاد، وزرع كل ماهو أمريكي في النفس؛ "سمير" أنت تتهم نفسك بالانفصام في الشخصية؛ نعم أنا مصاب بهذا الداء! أبحث عن الفضيلة و أنا فرد بعيد عنها؛ الفضيلة والشرف والكرامة والعفة والعذرية تبحث عنها في مجتمع لا يعترف بهذا، وإن اعترف بها فهو يعترف بها علي سبيل الاستحياء.

أنت تبحث عن كل هذا والمجتمع بنفسه لايساعدك على هذا! بل يتهمك بالجنون والرجعية إذا رجعت إلى أصولك، "إنك اخترت الحلم الأميريكي"، وعندما تختار ليس لك أن تتراجع؛ لأنك لو تراجعت ربما تكسب نفسك وراحة الضمير، وتشفي من الانفصام في الشخصية، ولكن سوف تخسر من اتهمك بالرجعية وأولهم أولادك! نعم أولادك لن يتراجعوا عن اتهامك بالرجعية.

لقد اخترت "الحلم الأميريكي"، وعليك أن تتحمل تبعاته بدون شكوى؛ نعم لقد اخترت الحلم الذي يلائمني أنا، ولكنه لايلائم ذريتي التي أسعي أن تكون على نفس دربي؛ لقد تناسيت أنك أتيت من خلفية مختلفة تماما عما تعيشه الآن! بل وضع تتصادم فيه أخلاقيات ومبادئ مختلفة تماما عما تربيت عليه، بل مختلفة عما عرفته من سلوكيات. هو صراع بما يسمونه مابين "التقدم العلمي والرجعية الإنسانية" إنه انفصام متغلل في نفسي، وأشعر به.

(٧)

"من رحم الإحباط والمعاناة والألم والفساد تخرج الثورات التي تبنى على الأحلام والآمال لكرامة الإنسان ولغد أفضل"

مجدي حافظ

يناير ٢٠١١م

لم يتوقف الهاتف عن الرنين طوال الشهور الماضية، من وقت خروجي من المنزل إلى الآن، كنت أبحث بجدية عن عمل لي، بعد أن تقدمت باستقالتي من الشركة؛ كان الوضع مريرا، و أنا أرى الأسرة تتهاوى؛ بسبب عدم فهم "أنجلينا" لما أعانية؛ لم أكن أبحث عن الخلاص بقدر ما كنت أبحث عن فرصة لتلقي الأفكار وإيجاد حلول. ولكن أبداً لم نلتقِ في منتصف الطريق أو تقديم تنازلات؛ لأنه أصبح هناك أطراف أخرى في المعادلة. أولهم ابنتي التي في وجهة نظرها إنها لم ترتكب خطأ ما، بل مافعلته هو "أبسط حقوقها الإنسانية" لم تنظر إلى الأمر أن ما فعلته يأتي في أفعال ومصاف "العاهرات" اللائي يجب حرقهن؛ لكن الأمور قد زادت سوءاً بعد أن جاء الرفض التام من الأسرة أن مافعلته من اقتحام لغرفتها هو اقتحام لخصوصيتها. إنني والدها لايحق لي أن أتدخل في حياتها، وفي الوقت نفسه يحق للغريب أن يرى جسدها العاري مثلما والدتها أمها!؛ إنه بحق قمة التناقض في النفس البشرية! لم يكن هناك مفر من البعد عن المنزل في الوقت الحالي، و أنا أنظر إلى أحوالهم من بعيد؛ لقد كان أمراً في غاية الصعوبة، و أنا أبتعد عنهم.

كان رنين الهو اتف المحمولة لم تتوقف، وخاصة في السؤال عن خبرتي، أو عن السيرة الذاتية، أو إرسال البريد الإلكتروني كان هذا عملا مضنيا في البحث عن عمل لي؛ حتى أخرج من الدائرة التي قد وضعت نفسي بها، والبعد عن

عائلتي؛ اعتراضا على أفعالهم المشينة من وجهة نظري، وخروجي من حياتهم لرجعيتي المستحكمة، وللأفكار البالية.

كان هذا أمرا في منتهى الصعوبة، ولكن الأيام قد توالت، والتحقت بعمل آخر؛ نظراً لخبرتي الطويلة في مجال الشركات، ولكن كان هناك مايؤرقني كثيراً من ناحية هذه الشركة، كان الود الذي يظهر من مدير عام الشركة أمرا يدعو إلى القلق لا أعرف لماذا؟ هل تدخلت "أنجلينا" في أمر توظيفي في هذه الشركة؟ أم أن الأمر بمحض الصدفة، وليس له علاقة بزوجتي؟.

كان هذا أمراً محيراً على الرغم من تنافس الشركتين، إلا أن الأمر يدعو إلى القلق، ولكني لم أعرف هذا الأمر الكثير من تفكيري، ربما تأتي الأيام بجديد؛ لم أتخل عن غرفتي والمشاركة التي لاتنقطع من شريكي في غرفتي البرودة التي أعاني منها في أوائل شهر يناير، وزيارات صاحب الغرفة الآخر شريكي "النرويجي".

كم قضيت أياماً وليال طويلة أفكر في أمر شركاء الغرفة من بعد مغادرتي في الشقة العلوية في أهم أماكن في نيويورك، الآن الرجوع إلى "برونكس" مرة أخرى ليس في أمري ندم، بل مراجعة للنفس طوال هذه المدة التي ليست بالقليلة.

كانت دائما هناك رسائل قصيرة تأتي على الهاتف المحمول من وقت إلى آخر. لم تكن تزعجني بهذا القدر إلا في الآونة الأخيرة، و أنا أرى أن الأحوال المعيشية في مصر قد تفاقمت. كان أكثر مايزعجني رؤية من ينبش في القمامة، و انتشار الباعة الجائلين وتعدد السرقات. وعلى الطرف الآخرالتشدق بأن الوضع الاقتصادي على مايرام، وأن نسبة الناتج القومي قد بلغت أرقاماً قياسية. وأن المواطن المصري أحسن من المواطن الهندي، أو المواطن الصومالي! ولماذا لانكون أحسن من سنغافورة! لماذا دائما أن نكون أحسن من الأقل منا؟ كان

هذا أمراً يدعو إلى الأسى والحسرة عن الانتهاكات التي تحدث من قتل في طوابير الخبز، أو مايحدث في أقسام الشرطة. كانت فئة منعمة لا تلقي بالا بما يحدث في الشارع، وتعيش في أبراج عاجية، قد ارتفعت بعيداً عن نبض الشارع، ومحاولات الانفصال عن الشارع، فهي تحيا في مجمعات سكنية محاطة بالأسوار، بعيدا عن أعين المتلصصين، أو أن تهاجر خارج حدود القاهرة، وتبني على طول الساحل الشمالي مجمعات سكنية محاطة أيضا بأسوار بعيدة . أيضا . عن أعين المتلصصين، هي دائما حجب الصورة عن الشارع العادي، وترك الباقي إلى الشائعات التي تتغلل في نفوس البشر؛ حتى يكون هناك متنفس لمراحل الكبت والفقر المحيط بهم.

لم تنقطع الرسائل النصية القصيرة عن الهواتف المحمولة، هي من أرقام أعرفها تماما، ولكن هناك أرقاماً وعناوين للبريد الإلكتروني لا أعرفها، وكيف يتم الاتصال بي؟ ولكن كان هناك مايزعجني من هذه الرسائل، وهي السباب لي لتركي عائلتي! كان هذا نوعا من التقريع واللوم، ولكن هذا الأمر قد تعدى الحدود، عندما بدأت أتلقى مكالمات في منتصف الليل من أصوات رجالية، وفي بعض الأحيان من أصوات نسائية! إن "أنجلينا" قد بدأت في الخيانة في فراش الزوجية؛ لقد بلغت بهم الوقاحة في إرسال مقطع للفيديو على الحاسب الآلي الناقل الخاص بي، وفي رسائل هاتفية فجة؛ كان غصة في قلبي، إنها لاتحترم حتى عدم وجودي؛ اعترف يا "سمير" لقد حاولت أن تستجدي منك الحب، وهي تتحايل عليك في الشهور الماضية؛ ولكنك لم تعرها أي اهتمام، بل تركت لها المسؤولية، وأن تفعل ما يحلو لها قائلة لك في إحدى المرات:

"عليك أن تتقبل الوضع هذه أميريكا وليست مصر؛ اعتقدت أن وجودك في أميريكا قد غير كثيرا من أفكارك، ولكنه من الواضح أنه لم يغير شيئاً فيك".

ليس هذا حقيقيا، لقد تغير الكثير فيّ، ولكني لا أقبل أن نقع في مشاكل نحن في غني عنها، إنني مسؤول عن هذه الأسرة، ومسؤول عن أولادي فيما هو صالح لهم، ولكن التغيير الأكبر كان في نهمي للعمل، وجمع أموال كثيرة، بغض النظر ما الذي سوف أخسره مقابل هذه الأموال قائلا لها:

"إنك لم تفهمي إلى الآن أن أولادي وخاصة البنت يجب أن تصان حتى تتزوج، ولكن مافعلته لايغفر من ذنب هذه القاصر، التي تريد أن تسجن أباها؛ لأنه قام "باقتحام خصوصيتها!".

كانت أنجي تنصت إليّ في صمت، وهي تحاول أن تعتذر بالنيابة عن ابنتها، ولكني لم أكترث كثيرا بما تقوله قائلة ليّ:

"أنا سوف أعتذر؛ ولكن عليك من البداية أن توضح لها أن هذا يغضبك؛ هي بالتأكيد لن تفعله، ولكنك كنت مشغولا عنها دائما؛ عليك أن ترجع البيت، وأن نجد حلا لهذه المشكلة".

اعترف أني لم أكترث لوضع أي حلول لهذه المشكلة؛ لم أكن أنصت إليها جيدا! كنت أضع العبء كله عليها. إنها هي الأم، مسؤولة عن تربية الأبناء، ومسؤولة عن الأخلاق كيف هذا؟ الحكايات القديمة ما زالت مرتبطة في ذهنك؛ إنها محفورة وبشدة في غياهب نفسك، لم تتركك بل كنت في كل مرة تستدعي هذه الذكريات، وتلقي عليه باللوم؛ لقد اعتذرت إليك حتى ترجع إلى الشقة، ولكنك أبيت أن تنصت، فما الذي تنتظره بعد كل هذا؟ إنها ليست براهبة، وإنك ليس بقديس، لقد اتجهت أيضا إلى بنات الهوى، لم يكن هذا منتظراً منك على الإطلاق، لقد حذرك "الجنرال" من عواقب هذا التصرف. إنك تتجه إلى الهاوية بلا رجعة، قائلا لك في مرة من المرات:

"إنك تشعل النار بالبنزين؛ سوف تزداد اشتعالا".

كان هذا حقيقيا؛ لكنك لم تنصت إلى الجنرال! بل تجاهلت الأمر كله، كأنه شيء لا يعنيه، وبالفعل الأمر كله لايعنيه، بل "كل واحد حر فيما يفعله"؛ لكنه كان ينظر إلى القيم التي أتيت بها من البلاد الأخرى، كان ينظر إليها على أنها شيء جميل، وجميل أن يتمسك الإنسان بهذه القيم ولا يتخلى عنها، في ظل ما يعانيه المجتمع من تدهور في القيم، وبيع الوهم للسذج أمثاله؛ كان أمر لا أريد تصديقه، ولكنه أمر حي أمامك، يخبرك بما تفعله زوجتك: الخيانة أمام عينيك! إنها لم تتورع عن خيانتك ليس بجديد عليها؛ أنت أيضا لم تتمسك بما قلته لها "إنني لن أخون". إن الخيانة في دمك الآن، مثلها تماما، لافرق بينكما، هي تنظر إلى الأمر على أنه ليس بخيانة، بل تنفيس عن رغباتها، والاحتواء الذي افتقدته.

و أنت أيضا تنظر إلى الأمر على أنه نزوة! ومن حقك أن "تعيش يومين" كان هذا رد فعلك؛ لم يصل الأمر إلى رأسك، إنه شرف، ويجب الدفاع عنه؛ بل نظرت إليه على أنه أمر عادي؛ لم يغلي الدم في عروقك، بل كنت بارد الدم! كأن الأمر لايعنيك، بل بعيدا عن عتبات بيتك، بل أيضا وضعت حدوداً للتعامل مع الأمر.

هذه الأمور عادية في "بلاد الأحلام" لاترق إلى الدم، بل أن يكون الانفصال أفضل.

"لايسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم".

لقد غاب المتنبي عن هذا الموقف، بل طواه النسيان متعمدا. اعترف أنني قد فقدت معنى الرجولة؛ خوفا من عار الخيانة، وملاحقة القانون في أثري؛ لم أنظر إلى الأمر أنه عار قد جلبته على نفسي، وتناسيت أني من أرضٍ غير الأرض. اعترف لقد تغلب عليّ العقل، ولم تتغلب عليّ النخوة لقد تناسيتها تماما، و أنا أنظر في المرآة هل هذا الشخص الذي تظهر ملامحه في المرآة هو الشخص

نفسه الذي أتى إلى هذه البلاد قبل خمسة عشر عاما؟ لقد اختلف تماما عن الآن!.

لقد زادت الرسائل الهاتفية! كانت الأمور قد وصلت إلى الحد الذي لايطاق؛ كانت المعاناة قد زادت على أكتافي، بل زادت معاناتي حتى أخبرت نفسي أنها لن تزول. كانت مقاطع الفيديو قد زادت، بل زادت بتفاصيل عن تحرك "زوجتي المصونة" في شوارع نيويورك جهاراً نهاراً وسراً أيضاً، كان يقتلني رؤيتها مع الشخص نفسه، بدون أدنى اعتبار لمشاعر الزوج الغائب، الذي لايعلم شيئاً، الزوج الذي ماتت فيه النخوة، وهو يرى خيانة زوجته أمام عينيه.

حالة الانفصام قد زادت عندي بما لايدع مجالا للشك. الإنسان الذي ترك أرضه لكي يحيا حياة كريمة، لقد أصبحت حياته في الوحل تماما، ولايعبأ بشيء.

هذه المرة كانت الرسالة عنيفة وحادة جداً؛ الآن أعرف من أرسل هذه الرسالة، إنها من سيدة مجروحة أيضا في كرامتها. الآن أعلم تماما لماذا هذا الود الظاهر على وجه مدير عام الشركة؛ إنه كان بإيعاز من هذه السيدة التي زوجها أصبح عشيقاً لزوجتي، رئيس مجلس الإدارة وعضو الكونجرس!.

كانت زوجتي تبحث لها عن مقعد في مجلس النواب، الذي سيطر عليه الجمهوريون في ظل رئيس ديمقراطي، وما المانع من تقديم تنازلات؛ للحصول على مقعد في التجديد النصفي، ولما لا نقدم بعض الإغراءات لا مانع في ذلك، لامانع من المال والسلطة. وهاهي الزوجة المطعونة في كرامتها تريد أن تنتقم لكرامتها، وماهي أقرب طريق إلى ذلك؟ هو أنا هذا الشخص المطعون في كرامته؛ هي تريد أن تنتقم من عشيق زوجتي عن طريقي أنا، إنها تتذكر دائما أنني من العالم العربي أو الشرق الأوسط، وأن عرف الدم هو السائد في هذه الأمور دائما، وإنني لن أتورع عن الانتقام منهما؛ بدافع الشرف، ويتصدر الخبر

الجرائد، وتنشره الجرائد التي تبحث عن الفضائح عن هذا الهمجي الذي أتى من محور الشر؛ لكي يصحح مفاهيم الشرف والكرامة!

إنه همجي يستحق الإعدام. والدفاع من جمعيات أخرى تحمى حقوق الخائنات إنه لايستحق هذه العفيفة؛ لقد استحملت صلفه وغباءه، وهو يبني مستقبله في أرض الأحلام؛ لقد جنى الكثير من المال، لايستطيع أن يحققه في أرضه؛ إنه مازال يعيش في الرمال الصفراء، ويركب الجمال. وجمعيات حقوق المرأة إنه لايستحق الحياة، هذا البدوي الجاهل الذي أتى مع جحافل المهاجرين؛ لكي يعكر صفو الحياة، ويلقي علينا بعظته وهو أبعد الناس عنها.

نحن ليس في احتياج إلى هؤلاء المهاجرين؛ نحن نحتفظ بقيم هذا المجتمع على طريقتنا نحن؛ نحن لانريد من يقدم النصائح لنساءنا. نحن أكثر تقدما من هؤلاء الحفاة الذين يحاولون تغير المجتمع بقوة؛ نحن أكثر تحررا منهم، بل نساؤهم لا يقدرن أن يكن متساويات معنا في الحقوق نفسها، عليهم أن يرجعوا إلى بلادهم ولايعكروا صفو حياتنا.

لقد تركت لي رسالة طويلة، تخبرني أن العاشقين سوف يلتقيان هذا المساء خارج نيويورك، في منطقة تعتبر من ضواحي نيويورك، لماذا هذا المكان ليس بغريب عليّ؟ نعم إنه المكان نفسه الذي يسكن به والدها! ياالله هل "ألكسندر الصغير" يعلم ماذا تفعله ابنته في هذه الليلة؟ هل عليّ أن أذهب إلى هناك؟ أم عليّ أتركها إلى حال سبيلها؟ أن أطلب الطلاق بناء على ما قد تم إرساله إليّ من مقاطع ورسائل مصورة، توضح مدى خيانتها لي؟

كنت في حيرة من أمري، ولكن الأمر الغريب حقا في هذا الأمر هو ترك الأمر إلى هذا الحد! أم أن انتقم من خيانتها لي؟.

لقد تركت لي مفتاح الباب الأمامي تحت الدوسة المطاطية، أمام الباب، ولقد حددت الموعد للقاءهما العاشرة مساءً؛ وهل ستترك الأولاد بدون رعاية؛

لقد كبرا بما فيه الكفاية، وعليهم الآن أن يتكفلوا بمصالحهم الخاصة، إنها لن تكون الحارس عليهما؛ عليهما الاعتماد على أنفسهم بدون تدخل منها؛ منتهى الأنانية من أم من المفروض أن توصلهما إلى بر الأمان!

أنت يجب آلا تتحدث عن المسؤولية، لقد تركت المركب في وسط العواصف الهوجاء بدون ربان، بدون أن تنظر إلى الصورة الكاملة؛ لقد نظرت إلى نفسك فقط، بدون أن تنزل ميدان المعركة، بدون أن تقطر نقطة دم واحدة، دفاعا عن كيانك وكيان أسرتك التي هي الآن في مهب الريح.

كان الأمر غريبا عند الاقتراب من بيت هذا العضو في الكونجرس الذي اختفى طقم الحراسة عنه تماما! هل هو بإيعاز من زوجة هذا العضو المحترم؟ أم كان بإيعاز من عضو الكونجرس نفسه؟ هل لايريد أن يعرف المجلس الموقر بما يفعله العضو المحترم مع سيدة متزوجة؟ أم أن الأمر مدبر تماما.

كان البيت هادئا تماما، و أنا أحاول أن أتنصت على أحاديث أو كلمات، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة مساءً، و أنا ألف المفتاح في الباب الأمامي، لقد تعمدت آلا أثير جلبة لأنه في هذه الحالة لو تم إطلاق النار عليّ سوف يكون بسبب الدفاع عن النفس من قبل عضو الكونجرس، وأن الذي دخل إلى بيته سوف يكون دخيلا أو لصاً يستحق رصاصة؛ لاقتحامه منزل عضو المجلس الموقر.

لن يقولوا إن الدخيل هو زوج مخدوع في زوجته، وإنها قد ضبطت في وضع مخل تستحق عليه الإعدام؛ لقد تحاشيت تماما عمل جلبة، بل صعدت إلى الدور العلوي، و أنا أتحسس خطو اتي، و أنظر حولي حتى لا يكون هذا كمينا لي.

الضحكات تتصاعد من غرفة النوم، إنه صوت زوجتي، وهو ينادي عليها باسمها "أنجلينا" إنني لا أتخيل هذا هو اسمها؛ ربما شخص آخر لماذا يجب أن تكون هي؟ أتريد آلا تصدق نفسك! إنها هي بالتاكيد، لا أحد غيرها. إنها

الضحكة الطويلة نفسها، لقد سمعتها كثيراً، وهي تعلن عن سعادتها في أوقاتنا الحميمية، إنها لاتفرق. الأمر سيان عندها لافرق بين زوج وعشيق، ليس بجديد عليها! لقد فعلتها عندما كانت طفلة. والآن هي تفعلها. تناست فيه أن الزوج المخدوع قد اقترب كثيرا من مخدع عضو الكونجرس. لقد فتحت الباب إنها في أحضانه! إنها عارية تماما، والضوء الخافت يكشف عن تفاصيل الخيانة! اعترف لم تتحرك ولا نقطة دم واحدة من عروقي، إنها تجمدت تماما، أصبح دمي باردا، و أنا أنظر إليهما، وكل واحد يسحب الغطاء إلى نفسه، ينظرون إلى يدي؟ نعم أحمل في يدي مسدساً طبقا للتعديل الثاني من وثيقة الحريات التي تم توقيعها من خمسة وخمسين رجلا، يؤمنون بالحرية والدفاع عنها بإطلاق الرصاص؛ نعم لقد اشتريته منذ فترة، منذ تعرضت إلى الضرب بالرصاص من أحد العائلات الخمس؛ لكني تجمدت مشاعري تماما.

إنها جريمة وما يفعلونه أليس بجريمة شرف يحاسب عليه القانون؟ إنك ليس في مصر، بل في أرض الأحلام، هذه الجرائم لايعترفون بها، بل يعتبرونها همجية؛ لن يعترفوا بأنك قد انتقمت إلى شرفك، بل سوف يعتقدون أنك قد خرجت عن القيم الأميريكية! من الممكن أن تقاضيها في المحاكم بتهمة الزنا، و أنت تنشر في الصحف الصفراء كيف هي عاملتك في باديء الأمر، و أنت كيف تعديت على حقوق ابنتك، ولم تراعِ حريتها في جسدها؛ وتتعرض حياتك الشخصية إلى النبش في الماضي، والبحث عن الجوانب الشخصية، وربما يتعرضون إلى أسرتك في مصر، والبرامج الحوارية تبرز ما الذي حمل هذا المهاجر على فعلته؟ لن يخبروك أنه بحكم الدستور هو مواطن أميريكي، بل سوف يكون هو مسلما عربيا همجيا متعطشا إلى الدماء، لم يسلك القانون، وأصبح مارقاً عن القانون؛ كان الأمر مفزعاً، و أنا أرى "أنجلينا" في أحضان عضو المجلس الموقر، الذي سوف يؤمن لها مقعدا في المجلس الموقر؛

هل هذا قدري؟ إنها أمور لاتتغير من مكان إلى آخر، ربما يتغير الأشخاص والأماكن، ولكن تبقي الأحداث لاتتغير، تختلف الشخوص والأماكن، ولكن تبقي الخيانة والعهر قدم التاريخ.

كان الأمر خارجاً عن إطار العقل أن ترى زوجتك في أحضان رجل آخر، لم يتورع عن تنديس شرفك، الذي طالما كنت تتمسك به أمامها، ولكنك الآن تخليت عنه، عندما ارتميت في أحضان أخرى، هي أيضا لم تتورع عن خيانتك! إنكما تشبهان بعضكما البعض، لافرق بينكم؛ بل هي أذكي منك: إن خيانتها في آخر المطاف سوف يؤمن لها مقعداً في المجلس الموقر، أم أنت لا طائل من خيانتك لها، بل الأسوأ أنك في آخر المطاف عاهر آخر ينضم إلى طابور طويل في أعداد الخائنين. كانت تسحب الأغطية على جسدها، وأنا لا أعبأ بها، وهي تتدحرج على هذه الدرجات من الطابق العلوي، وأنا أنظر إليها في شفقة، إنها تحاول أن تلحق بي قائلة ليّ:

"أنت السبب في هذا؟ عليك أن تلوم نفسك".

هل اللوم يقع عليّ أنا فقط؟ أم إننا نقف على قدم المساواة في هذه الخيانة؟ إنها لن تتخيل رد فعل أبنائها، بل تغاضيت عن هذا الأمر كليا. لم يجرؤ عضو الكونجرس على النزول من مخدعه، بل تركته في صدمته، وهو يلعق عار الفضيحة، ما الذي ينتظره لا يعلم؟ وأنا أيضا لا أعلم مصيره؟ لقد تركتهما في هذا الوضع المخزي بهما، وأنا أنطلق بسيارتي غير عابيء بإشارات المرور، التي من كثرتها لم أكن أبالي بها، لقد اخترقت شوارع كثيرة، وأبنية كثيرة، وعبور كباري معدنية، وأخرى علوية، لم أدرك إلا ووجدت نفسي أمام البناية التي يقع فيه منزل "أنجلينا"، لم يكن أحد في المدخل، كان الصمت يلف المكان؛ أدير المفتاح في الباب الأمامي للشقة التي شهدت كثيرا من الأفراح والأطراح.

الأخبار الواردة عن الوضع المتوتر في ميدان التحرير، لم أصغ جيدا لم تقوله هذه المذيعة المنتشية، بما يحدث في أرض الكنانة، وتتسلل إلى أسماعي أصوات الضحكات لم أبالِ بها، بل دخلت مخترقا الممر الطويل إلى غرفة ابنتي. إنها في الوضع نفسه! لم أتمالك نفسي و أنا أسحب الحزام الجلدي المطوق به خصري، وبلسعات عنيفة على الجسدين العاريين أمامي.

كان الصراخ قد وصل إلى عنان السماء، و أنا أطارد هذا الـ"تيم"، طارداً إياه من الشقة؛ كان الغضب والحنق قد وصل إلى عنان السماء، و أنا أرى ابنتي في نهاية غرفتها، وهي تحتمي به من ضرباتي؛ لقد أنهكتنا المطاردة، وخارت قواي، و أنا أترنح على أرضية المنزل، حاملا الحزام الجلدي في يدي، فاتحا الباب على رؤية زوجتي التي تسمرت في الأرض، والتلفاز على الأخبار، وهي تفتح بصورة كبيرة على ميدان التحرير واللافتات تُرفع عيش.. حرية...عدالة اجتماعية، خارجا من الباب.

تمت

كلمة أخيرة

لا تزال معاناة الإنسان منذ بدء الخليقة لم تتغير، بل زادت تعقيدا؛ مازال يبحث عن أحلامه اليسيرة، مازال يبحث عن ذاته، يضرب في الأرض، يعبر بحاراً ومحيطاتٍ قد يفعلها ويجد مايصبو إليه من أحلامه، وقد يغرق وتذهب أحلامه أدراج الرياح من أجل ماذا؟ من أجل القليل من الكرامة الإنسانية، من أجل عدم الاستهانة بمشاعره الإنسانية، من أجل رؤية أفضل للمستقبل؛ من أجل الحصول والوصول إلى جزء ولو قليل من العدل النسبي.

تتحطم كل هذه المعاني والأحلام بمزيد من التخبط، بمزيد من الإحباط، بمزيد من عدم وجود صور حقيقية شفافة للآمال، والشفاء من الآلام، والطموح الذي يهوى في هوة سحيقة أمام الديكتاتورية، والقمع الممنهج والفساد بأنواعه.

هل ينأى الإنسان عن كل هذا؟ ويصبح الخوف والمجهول هو شرنقته! أم البحث عن وطن آخر من أجل أبسط الحقوق، مع تنازله عن قيم كثيرة، إنه بكل تأكيد التخبط والعبث، حتى تزداد المعاناة قسوة، وتصبح الأحلام اليسيرة كوابيس وتزداد ضراوة على الجنس البشري، وتصبح كاراكلا.

المؤلف.

تمت بحمد الله

٢٠١٦/١٠/٢٨م

من هو كاراكلا؟

هو الإمبراطور لوسيوس سبتيموس باسيانوس، والذي ولد في لوجدنوم (ليون؛ فرنسا) والذي حكم من ٢١١– ٢١٧ ميلادية، وفي سن السابعة تم تغيير اسمه إلى ماركوس أوريليوس إنطونيوس أوغسطس؛ لتأكيد الانتماء إلى أسرة ماركوس أوريليوس. كاراكلا ذو الأصول البونيقية من أبيه سيبتيموس سيفيروس، وأمه السورية من أماه جوليا دومنا الشهيرة، ابنة مدينة حمص التي كانت ذات نفوذ وقوة وسلطة في الإمبراطورية الرومانية.

اتخذ لقب كاراكلا نسبة إلى إزاره المميز كالبرنوس المختلط في ألو انه، الذي كان يرتديه والذي أصبح موضة، و أيضا في اختلاط الأنساب.

كان كاراكلا واحدا من أكثر الأباطرة دموية، عندما أقدم في ديسمبر ٢١١ م على قتل أخيه (جيتا) بعد موت أبيه في حضرة أمه؛ لينفرد بالحكم، ويقتل صهره و ابن عمه جيوس فلفيوس ويعدم أنصاره، وقتل كل من له علاقة بأخيه، أو كل من يحمل له وداً، لقد قتل أكثر من عشرين ألفا من الرجال والنساء. كان الشعب يميل إلى الإمبراطور(جيتا)، وكان من نتائج قتله، وقتل كل هؤلاء البشر أن أصبح الإمبراطور (كاراكلا) مكروها من الشعب. وكان مصابا بالأمراض النفسية، عندما أقدم في جريمة شنعاء في احتجاج الإسكندريين بصفة عامة على الحكم الروماني، أدى في عام 215م وعلى إثر زيارة الإمبراطور الروماني كاراكلا إلى الإسكندرية إلى قتل ما يزيد عن عشرين ألف سكندري؛ بسبب قصيدة هجاء قيلت في كاراكلا. وكان أيضاً من أبرز الأباطرة الرومان، الذين تركوا أثاراً اجتماعية هامة، وكان حكمهم لافتا للأنظار بسبب منجز اته التالية:

- أصدر سنة ٢١٢م مرسوم كاراكلا الشهير، حيث منح كاراكلا الجنسية الرومانية للأحرار في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، من أجل زيادة الضرائب الذي جعل بموجبه جميع سكان الإمبراطورية سواسية، يخضعون لقانون واحد ضمن الحرية والحقوق الأساسية التي منحت إليهم.
- التخفيض في قيمة العملة الفضية بنسبة ٢٥% من أجل دفع رو اتب الجحافل والحملات الحربية.
- تشييد الحمامات الكبيرة خارج روما، والتي تزال معروفة بحمامات كاراكلا، مازالت أثارها قائمة حتى الآن، وتتسع لألف وستمائة زائر.

وفي هذه الأيام قد ظهرلنا أكثرمن كاراكلا، ولم يعد يحتاج إلى كاراكلا آخر.

مجدي حافظ

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017